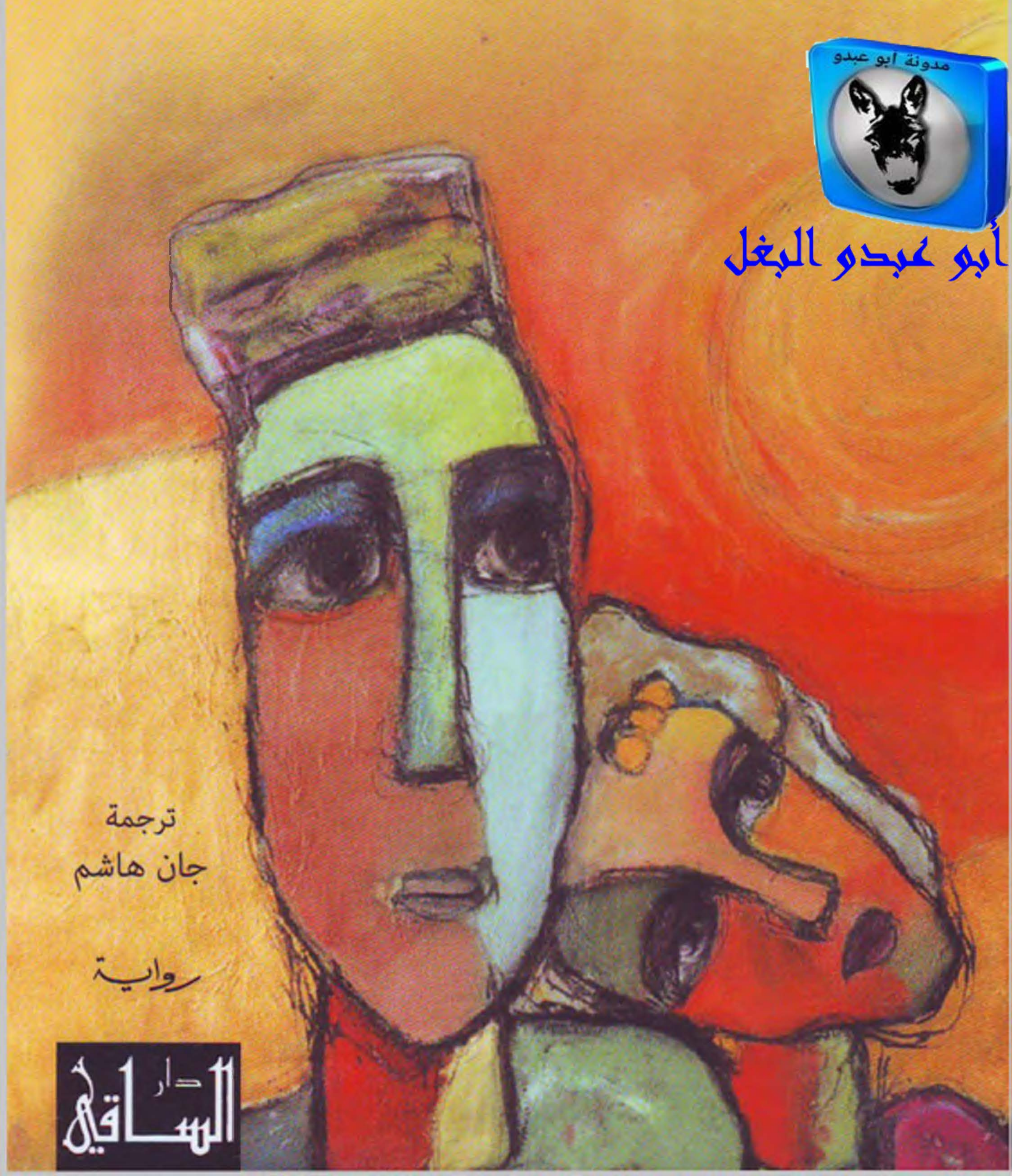
حائز جائزة
غونكور الفرنسية 1987

الطاهر بن جلون

عينان منكسرتان



ترجمة
جان هاشم

رواية

دار الساقي

لوحة الغلاف بريشة الفنانة عالية الفارسي
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

الطاهر بن جلون

عينان منكسرتان

ترجمة

جان هاشم



الطبعة الأولى 2017

ISBN 978-6-14425-934-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى الراعية الصغيرة في مزودة

تمهيد

قصّة الكنز المرصود في الجبل التي حكاها والد جدّي قبل مئة عام هي قصّة حقيقية، وإليها هي من بين كل بنات القبيلة صوّب العجوز إصبعه الممدودة من دون أن يدري أحد لماذا. فهي مثل سائر الفتيات من أترابها، لا وادعة كليّاً ولا شقيّة جدّاً لكنها ذات عينين واسعتين تشعّان بنور لطيف متلوّن. قال لها الجدّ: "بهاتين العينين الكبيرتين ستشهدين أموراً لا تعجبك، أموراً تمقتها نفسك لكنّك ستكونين من الحكمة والإرادة بما يجعلك تمتنعين عن فضح الأمور وتتركين البشر ينشرون الشقاء والكذب والغدر. ستدعين الأرض تواريهم ووحدك تدركين لماذا يحفر الناس قبورهم بأيديهم. وبهما تكتشفين أموراً مذهلة، حقولاً كلّ شجرة فيها مرآة موجّهة صوب الشمس ناشرة النور والزهر والثمر. سترين الفجر يطلع أوّلاً من عينيك ليغمر بعدها الجبال والأنهار. وفي عينيك مستودع تترك فيه كلّ ليلة تعيشينها قطعة من أحلامك، وحيث كل قصّة تفتح لقصة جديدة وحيث يخزّن ضوء الصباح أبجدية السرّ. وليست هذه موهبة، بل هذا هو مجرى الأمور. وجداني والقدر وقع خيارهما عليك. وجّهت يدي إلى نظرتك ولمحت في البعيد ومضةً

مثل تفجّر ضحكة، مثل برق رحيم نزل من السماء مثنياً على مبادرتي. تعيشين سنين طويلة وحظّك أن تموتي لا من مرض ولا بالآلام، بل بأولى كلمات السرّ التي تتشكّل تباعاً على لسانك، وبإمكانك أن تنطقي بها بلا خشية لأنها ليست هي السرّ بل غشاؤه الذي يبقيه مغلّفاً في أعماق نفسك، مثل بصلة بقشور كثيرة تتساقط عنها شيئاً فشيئاً. وإذ تبلغين الجوهر تنطقين بالعبارة التي صنعتك، تسقط الكلمات مثل جذوات جمر في حفنة رماد في كفّين مفتوحتين، تبعث بنفس امرأة حبلى وتسلّمين السرّ وأنتِ تسلمين الروح. هكذا تجري الأمور، عمرك تحدّده إرادة الصمت.

حاليّاً ركّزي نظرك على كفّي وضعي يديك على صدري وتأمّلي في هذا الرماد المرصّع بجمرات حمر، ها هنا السرّ، وهو كما ترين مسألة كنز دفنته أياد كثيرة تحت الزيتونة الرابعة الواقعة شرق ضريح وليّ قبيلتنا، ويجب أن يعود هذا الكنز إلى حفيدة حفيدة أسلافنا.

كلّ هذه الحجارة مركومة على كومة من تراب شديد السمرة مادّة حياتنا الأساسية بحدّ ذاتها، تربة أرضنا، رمل أهوائنا الأسود، والقاع العميق الذي يرقد فيه أجدادنا، هذه الأرض المسكونة بأرواح أهلنا وأهل أهلنا، رفاتهم رمادها وإذا ما مسّتها يدٌ غريبة تتحوّل جمراً يحرق الأصابع الدخيلة. وحدها يدك تملك القدرة على اجتياز هذا الحاجز الأخير لتبلغ الغشاء العازل الذي نسجته عنكبوت الأعماق، فتفتحينه من دون أن تمزّقيه وتلمسين براحة يدك القماش البيض الذي طرّزته سبع نساء مئويّات من قبيلتنا وتسحبين الخيط الذهبي الذي يفتح الكيس الحاوي بعض عجائب هذا العالم".

بعد لحظة صمت بدا فيها العجوز غارقاً في التفكير أخذ بكفّيه يدي الفتاة ورفع رأسه إلى أعلى الوسادة وتلفّظ بآخر كلامه بطيئاً كمن يجدّ السير نحو الشفق الرائق. "هناك كنوز مخبّأة في جُزر، أمّا كنزنا فهو في الجبل. نحن من أهل اليابسة ونولي ظهرنا للبحر. لا أعرف ما هي الجزيرة، وما همّ! فأنا تعلّمت الأرض كمن يتعلّم القراءة والكتابة... ولا أعرف الكثير. ها أنت تملكين السرّ الآن، وليس فقط أن عندنا كنزاً بل المكان الذي دُفن فيه أيضاً. تتزوّجين في السنة الثانية من بلوغك سنّ النضج وتُرزقين صبيّاً أولاً ثم بنتين. ويتكاثر أحفادك ومنهم الصبيّة التي ستذهب لنبش الكنز بيديها البارعتين. ستتعرّفين إليها، ويمهلك الموت لكي يتسنّى لك الوقت لتحميلها السرّ، وبعدها تتمتّعين بطمأنينة الحياة الأبدية".

ولم يلبث الجدّ أن فارق الحياة ممسكاً بيدي حفيدته التي لم تكد تبلغ العاشرة من عمرها. كانت تظنّ أن الموت هو كانطفاء الضوء فظلّت نائمة هزيعاً من الليل بين ذراعي الميت وعندما وجدوا جثة العجوز باردة وشاحبة ظنّوا لوهلة أن الصغيرة أيضاً ماتت معه. ونهضت مذعورة وارتمت فوق جدّها باكية متمسّكة بغندورته طالبة منه أن يفيق. وعندما حدّقت في وجهه الهامد أدركت أنه ما عاد باليد حيلة، فتراجعت وكفكفت دموعها وكتفت يديها إلى صدرها كأنّها تحتفظ بشيء نفيس. في تلك اللحظة أصبحت المؤتمنة الجديدة على السرّ، ناطورة الكلمات والطرق وحامية هذا الإرث الذي لا اسم له بوعد شرف لم يُحنث به يُروى ويُورَّث في رهبة الاعتراف.

اليوم أصبحت المؤتمنة على السرّ جدّة، وهي تنتظر عودة حفيدتها التي وحدها تملك مفتاح الكنز. لكن هل هي نفسها تعرف ما هو السرّ؟

- ١ -

ليس الأفق بعيداً جداً، هو يدنو مع الغيوم وصولاً إلى قريتنا. لكن عندما يكون الطقس صافياً يبتعد، يقصد مكاناً آخر. يحدث لي أن أمدّ يدي وأحسّ أنّي أطاله. هو خطّ متكسّر مركّب من شجيرات متجمّعة على نفسها وتلال جرداء. وأنا أيضاً مثل العنزات التي أرعاها أتسلّق شجرة وأثبت جلستي على غصنها الرئيسي محاولة رؤية ما إن كان هناك شيء ما وراء هذا الخطّ المتحرّك، فأرى شجراً ثمّ هضاباً تخيّم عليها غشاوة رقيقة من ضباب مثل حجاب أو ناموسيّة. وفوق الشجرة أنسى كلّ شيء، القطيع والكلب والزمن. بإمكاني إمضاء نهار بأكمله معلّقة بهذا الوضع من دون أن أشعر بالملل. أدندن أغنية، أتثاءب قليلاً وفي باقي الوقت أستسلم للأحلام. أمضي في تكوين عالم متكامل انطلاقاً من الأشكال التي تتراءى لي على صفحة السماء أو من خلال أغصان الشجر، حيوانات متوحّشة أروّضها ورجال أصفّهم على رأس جرف وأروح أراقبهم وقد كاد الرعب يقضي عليهم. أكتفي باختلاس النظر إليهم، لا أدفعهم، وطيور جارحة ألّين طباعها، وغيوم تتراكض بجنون وأشجار تنقلب رأساً على عقب

وأخرى تطاول السماء. ومن هناك أستدعي وجه سليمة القبيح. هي عمّتي، لا تحبّني وأنا أكرهها. سلّمني والدي إليها عندما هاجر للعمل في الخارج، بعد أن وعدني بالعودة ليأخذني معه. ما أزال في انتظاره. وهذا أحد أسباب تسلّقي الشجر. أستطلع الأفق والأرض المنبسطة أمامه على أمل رؤيته يصل يوماً ما. أمّي لا تزال عند أهلها المقيمين في المقلب الآخر من التلّة. فهي حبلى ولا يمكنها الاعتناء بي. وعندما عرضت عمّتي أن تسكنني معها لم أرد مرافقتها، كنت أعرف أنّها ستسيء معاملتي. إذاً فيما أنا مستلقية مرتاحة على أثخن غصن في الشجرة، أستحضر أمامي، وللمزيد من التحديد على صفحة السماء التي أشاهدها عبر الأوراق، وجه سليمة المقيت، وأقرّر أنّه بشع. أجعله مثل طين طيّع وأكوّر ثقبين مكان العينين ومزقاً طويلاً مكان الفم. أمّا الأنف فمجدوع. ثمّ أروح أركله بقدمي إلى أن تختلط كلّ معالمه فلا يُرى فيه أيّ شكل بشريّ.

لماذا تتسرّب بشاعة النفس من خزّانها الداخلي لتغطّي الوجه؟ لا أخشى البشاعة الجسدية بل تلك الأخرى لأنّها متأصّلة وتصدر من الأقاصي. تحفر مفرشها على الجسد وفي الزمن. العينان مرآة كلّ شيء. فعندما تكونان ممتلئتين بماء أصفر فهذا يعني أنّهما مصابتان بعدوى بشاعة النفس. وعمّتي حملت الكراهية في عينيها الصفراوين أحياناً والحمراوين عندما تغضب. عيناها على صغرهما تكتسحان وجهها. كانتا صغيرتين وغائرتين كأنهما ثقبان ضيّقان تتسلّل عبرهما الكراهية. إنه سائلٌ يسري في الجسد وعلينا نحن أن نمنحه شيئاً من الإنسانية. وأنا ليس بمقدوري ألّا أبادل عمّتي الكراهية، وفي

الواقع أنا أردّ الألم لمسبّبه. أرفض أن أفتح لها الباب، ولا يمكنها أن تخدعني. تظنّ أن فتاة صغيرة مثلي عاجزة عن إدراك ما يدور حولها. وأنا ليس فقط أنني أفهم كلّ شيء بل فوق ذلك لا أبقى ساكتة ولامبالية. وأول مواجهة مع عمّتي حدثت ليلاً. لم أنم، وخرجت أتمشّى في المزرعة. كان القمر بدراً تقريباً، وينشر ضوءه. كنت أمشي من دون إصدار أيّ صوت. وإذ دخلت الحظيرة لاحظت أن البقرات تنام نوماً خفيفاً، وقد نهضت جميعاً ظانّة أنّه موعد الخروج. وهنا أصبت بالصدمة. فقد نبّه صوت هذه الحيوانات عمّتي وإذا بها تدخل الحظيرة متسلّحة بعصا. ظنّت أن هناك سارقاً، وانهالت عليّ بالضرب. عرفتني بالتأكيد لكنها واصلت الضرب كأنني خيشة تبن. ورحت أعدّ الضربات، عشراً، عشرين وربما ثلاثين. فقد جسمي الإحساس، كان لكلّ ضربة وزنها من الكراهية والحقد. وقرّرت ألّا أسامحها على ذلك وألّا أنسى، بل بالعكس حملني تفكيري إلى المستقبل. هي عجوز واهنة وأنا فتيّة وحيويّة، لكن لن أضربها. فقط أنظر إليها، أراقبها وأقدّر مدى ألمها وضحكها، لا آتي حراكاً ولا أفعل شيئاً، حتّى الضحك، ابتسامة وحسب. فقط حاولت بعينيها أن تطلق آخر ألسنة النار المليئة بتلك الكراهية التي تسكنها. لا يجب أبداً ردّ الكراهية بالشرّ – بل ردّها من دون إضافات، إعادتها إلى صاحبها وإرجاعها إلى هذا الجسد المنهك الممتلئ والمستنفد. لعلّها تفتح فيه ثقوباً فيما أنا أتفرّج من دون أيّ ردّة فعل. فكرت تماماً أنه لا يجب سلوك طريقها نفسه. كانت تقول إنّني بنت الشيطان. وأنا كنت صلبة لكن لست سيئة. أحبّ هذه القرية وتلالها وأشجارها

وحولها وأهلها. هي في النهاية قريتي وفي كياني حتى وإن لم تشبه قرية حقيقية. لكنني لم أتوقع أن تدع عمّتي تعيش فيها. عندما أفكّر فيها لا أجدها تظهر في أزقتها. كنت أحياناً أسمع صوتها الأجشّ الفجّ. صوت ما كان إلا ليصرخ ويصيح ويشتم ويهمن. حتى البهائم كانت تخاف من صوتها فتحرمها الاجترار أو الاقتراب من التبن، فتنظر إليها مواربة كأنها تخشى مواجهتها. ومن وقت إلى آخر تقوم ببعض الحركات محاولة ملاطفتها، فتصدّها البقرات وتتفلّت النعاج من بين يديها. الكلّ ينبذها، حتّى الحجارة تنزلق عند مرورها. وتجمد الأشجار شاهدة خرساء على المأساة الواقعة يومياً. لم يكن الجيران يتدخلون في شؤوننا وحتى إنهم كانوا أحياناً يتمتمون ببعض الصلوات كيلا يقوم أيّ اتّصال بيننا وبينهم، وأساساً ما كان أحد ليعبأ بذلك. وأنا كنت أتمنّى أن يكون لي صديقات لأحسّ أنني لست وحيدة ومعزولة، لكي أحظى بالحماية ويكون لي ملاذ عند هؤلاء أو أولئك من الناس. لم يكن لي الحقّ في أن أقول إنّه لا أسرة لي، وإنّ أهلي رحلوا بعيداً إلى ما وراء البحار وإنّ بيني وبينهم ما يشبه الجبال العالية العصيّة. كنت أنتظر الصيف بفارغ الصبر لأرى والدي، وتنضمّ أمّي إليه، يحضران لإمضاء أسبوعين ثلاثة في القرية. يأتيان هنا للراحة ولا يسنح لي الوقت ولا الفرصة لأتكلم معهما ولا لأختلي بهما وأخبرهما بالعذابات التي ألقاها. ما إن يدنو الصيف حتى تصبح عمّتي لطيفة، تشتري لي فستاناً وصندلاً وتقدّم لي الطعام بانتظام أكثر وتجبرني على ابتلاع حبّة تجعلني أسمن. تقول لي: "خذي اشربي حبّة الحلبة هذه تكسبك بعض القوة!"، وفي الحقيقة، إنها

تجعلني أنتفخ، فيتغيّر شكلي لكن بما أنني دقيقة الجسم كان أقلّ تغيير يظهر عليّ. لم أكن أريد أن أفسد إقامة أهلي فأتفادى أن أسبّب لهم المشاكل.

في أحد فصول الصيف مرض أخي الأصغر، شحب لونه وراح يتقيّأ كلّ ما يأكله، فقرّر والداي إبقاءه في القرية إزاء ابتهاج عمّتي إذ قُدّمت إليها ضحيّة جديدة، وهما لا يراودهما أيّ شكّ في المصيبة التي تحضّر لها هذه المرأة. أمّا أنا فكنت أعلم وفي نفس الوقت اعتقدت أننا نحن الاثنين قد ننجح ربما في تغير مسار المأساة.

وجرت الأمور بسرعة صاعقة. فقد القدرة على الكلام ثم اختفى صوته. كان ينظر إلينا مرتعباً بعينيه الواسعتين كأنه يطلب منّا أن نفعل شيئاً، أن نتضرّع إلى الله أو إلى وليّ القرية لإزالة آلام بطنه وإعادة قدرته على الكلام. وغمر وجهه صفاء مذهل، نوع من ابتسامة طبيعية دائمة. واتّسعت عيناه لتنزل فيهما كل دموع الطفولة. لم يكن يبكي بل يتأمّل السماء كأنّه يسأل نجمة ما عن مصدر هذه المعاناة. انتفخت معدته فأبقى يديه عليها. وراح يخاف الناس الذين يعودونه، كأنّه يرى فيهم عمالقة أو أشباحاً مرعبة، فيميل برأسه كيلا يراهم. وعندما تدنو منه عمّتي حاملة طاسة حليب ساخن يدفعها مريقاً الحليب على يديها، فتصيح وتبرطم ببعض الكلمات الخبيثة. وللمرة الأولى في حياتي رأيت وجهاً يتحوّل إلى اللون الأخضر، وفي بضع ثوانٍ أستشفّ الموت، عليه مسحة من عمّتي ذات البشرة الخضراء الشاحبة. وهذا اللون نفسه اكتسح خدّي أخي ثمّ جبينه. بقيت عيناه مفتوحتين وقد فرغتا من كلّ شيء، لا دمع ولا أيّ مسحة خيال. أوقفت كفّاه

المنقبضتان الألم نهائياً، بدا مرفوعاً على سقيفة من أوراق الشجر وقد بات جسده الضئيل شفّافاً طافياً بين الغيوم. وحام فوق المنزل طائر، يمامة ربّما. وعصفت زوبعة هواء حارّ بالفناء حاملة سرير القشّ بعد أن دارت كدوّامة كأنّها تلملم أغراض الولد الصغير. هذا هو ضحك الصحراء الأصفر. عندما تحضر هذه الضحكة فغالباً لكي تغسل منزلاً أنجز فيه الموت عمله. وفي حالتنا جاءت من باب الظلم والجنون استحضرتها ساحرة. ليس في الموت اتّزان، هو رفيق قطّاع الطرق والفوضى، يد من الصوّان تنقّب في حزم القشّ التي نلجأ إليها غالباً عندما نعرف بموت أحدهم في القرية. نختبئ هناك لأننا نخاف أن يحصد أحدنا في طريقه، لا لشيء، فقط كيلا يبقى وحيداً، لكي يأخذ برفقته ولداً يرشده إلى درب السماء ويفتح أمامه الأبواب السحرية الخفيّة. لأن الولد الذي يوت هو ملاك يذهب مباشرة إلى الجنّة. حكوا لنا ذلك وكرّروه إلى أن انتهى بنا الأمر بتصديقه. وأنا أشتاق إلى أخي شوقاً جارفاً حتى وإن أصبح ملاكاً في السماء. لم أتمكّن من تقبّل غيابه المفاجئ وثابرت على إقناع نفسي بمختلف القصص. لقد حاصرني اللون الأخضر، وكلما وقعت عيناي على عمّتي أجد هذا اللون يكسو وجهها. وفي الواقع كنت أرى الناس بالألوان، وخصصت عمتي بالأخضر، أضيف إليه مسحة صفراء للعينين وزرقاء للشفتين مركّبة على مزاجي رأس الساحرة المليء بالحسد والكراهية. إنّ الرغبة في الثأر لأخي وإعادة الحقّ إلى عائلتي قد أمدّت مخيّلتي بقوة لا حدّ لها، وأصبحت أكثر قوة وذكاءً من تلك المرأة المفطورة على الشرّ.

كانت قريتنا بعيدة عن المدينة، وبالتالي لا يمكن الموت أن يأتي إلّا من الله. يموت فيها ولد مريض لأنّه لا طبيب فيها والمعالجون كلّهم مشعوذون. فالموت هو آخر كلمة من القدر، ومن كان ليتجرّأ على الشك في ذلك؟ لقد سُمِّم أخي، وعرفت ذلك، ولطالما كنت واثقة من ذلك لكن لم أملك الدليل. كان عمري بعمر الحزن، أمّا الدموع التي تسبّب بها الغياب فلم يكن لي الحقّ في إظهارها على الملأ، أحتفظ بها لنفسي، أحبسها طويلاً ثم أنفجر بعيداً عن المنزل عندما أصبح وحيدة مع قطيعي من البقر والماعز، أجلس في ظلّ شجرة وأبكي لساعات وأنا ألعب بعصا الراعية. يريحني ذلك وأشعر بطمأنينة جميلة فأهوّم مكتفية بمراقبة الدوابّ بطرف عيني. من قبل كان أخي ينضمّ إليّ ونروح نخطّط لمشاريع مستقبلية حلوة جداً. كنا نحب التكلم على أحلامنا بصوت عالٍ، ومنها مغادرة هذه القرية ورؤية العائلة كلها مجتمعة حول والدنا وشراء حبوب الحلوى بالكيلو وتوزيعها على سائر الأولاد وارتداء ثياب جديدة وشرب الكوكاكولا ومضغ العلكة وركوب سيّارة والذهاب إلى الأعياد الشعبية وانتعال الأحذية... نضع بذلك لائحة بكل أحلامنا. وهو كان متردّداً لا يجرؤ على البوح بكلّ شيء لي. عندما يتحدّث عمّا يتمنّى الحصول عليه أو القيام به يصبح رزيناً كأنه كان يستشعر موته. تتغيّر نبرة صوته ويسرح بعينيه إلى البعيد ثم يخفضهما كأنّه لم يرَ أيّ مستقبل. كان ولداً حزيناً لأنه لم يفهم قطّ لماذا لا يعيش أبي معنا هنا. كانت كلّ أحلامه تدور حول الوالد الغائب فيقول مثلاً: "أنا حلمي هو أبي. أين تقع "لافرانس"؟ أهي بعيدة؟ إذا ركضت إلى التلة هناك فهل يمكن أن

أرى لافرانس أبي؟ لشدّة تفكيري فيه نسيت وجهه. أنتِ هل يمكنك أن تقولي لي كيف هو وجهه؟ منذ أيّام سألت أمّي عن ذلك فسقطت باكية. صحيح أنني أحياناً أراه جيّداً، بالقرب منّي ويكفيني أن أمدّ يدي لأمسك به. وفي أحيانٍ أخرى يبدو كلّ شيء ضبابيّاً، يبدو لي وجهه أشبه بغيمة. إن لم يعد فسأسافر لأرجعه. أذهب بباص يوم الجمعة وفي المدينة لا بدّ من أن أجد أحداً يدلّني أين تقع لافرانس. أتذكّر تماماً رائحته، تفوح منه رائحة النفط والعرق والتوابل التي تخلط بها أمّي الطاجن. أتذكرين رائحته أنتِ؟

- نعم بالتأكيد لكن من دون نفط.

- لا، أنا أقصد أنها رائحة وقود الباص عندما يصل إلى القرية. إنها رائحة السفر...

ويشرد بنظره بعض الوقت ملاحقاً حلماً ما ثم يهمس: "رحل والدي بسبب عمّتي، فقد تشاجرا، سبّبت له العار وأذكر أنها صرخت في وجهه، خاف وبعد أيّام تركنا".

- كلا لم يتركنا، بل هاجر للعمل مثل زوج عمّتي. من أجلنا سافر، لكي يحمل إلينا الهدايا. أتذكر السيّارة العاملة بالبطاريات وتسير وحدها وخافت منها جدّتنا.

- نعم لكنه لن يعود، أعرف ذلك.

في تلك اللحظة تحديداً حوّم فوقنا أحد طيور الليل فحدستُ بوقوع مأساة ما. وحان موعد العودة بالماشية، فلبث أخي جامداً يتأمّل الأفق فيما كنت أجمع البقرات من جهة والنعاج من جهة أخرى لسَوقها إلى المزرعة. كنت متوترة ورحت أضرب الهواء بالعصا

فتصدر صفيراً. إنه نذير شؤم.

في المساء كان العشاء مكدَراً، والدتي لم تأكل، لم تكن جائعة، لكن بدت على وجهها مسحة من القلق الصامت. وهي بتطيُّرها مثل كل أهل القبيلة كانت تستشعر أمراً مأساوياً. وأطلقت عمّتي مزحة ثمّ اتّهمت أمي بأنها بليدة، ساعية إلى استفزازها. لم تردّ أمّي بكلمة ونهضت مغادرة الغرفة وهي تتمتم بكلام بدا أنه دعاء من نوع: "اللهمّ نجّنا من كل شرّ واجعل الغائب على خير ما يرام". كانت تفكّر في والدي وهذا أيضاً وسواس. لم تتحمّل كثيراً انفصالها عنه وعلى غرار كلّ زوجات المهاجرين كانت تخشى عليه من حادث عمل أو اعتداء في الشارع. ولم يكن يخطر ببالها أنّ الويل سيحلّ بولدها. كان السمّ ممزوجاً بكبكوبة من اللحم المفروم. وعندما عاد كان جائعاً وأمّي ما تزال في الحقول فانتهزت عمّتي هذه السانحة لتطعمه كبكوبة الموت.

بعد هذا العشاء المروّع أحسّ أخي بالحاجة إلى التقيّؤ وخاف أن يخرج وحده فرافقته، لكنه لم يتمكن من استفراغ ما يزعجه. وبقينا في الليل إلى وقت متأخّر في فناء المزرعة والكلّ نيام. وكنّا نتأمّل السماء عندما طلب منّي أن أصف له وجه والدنا. فاجأني طلبه ورأيت فيه نوعاً من لعبة:

"هو عريض وجميل، ناعم ولطيف، عيناه ملؤهما الوداعة ويداه ثخينتان مثل سرير، أحبّ أن ألقي رأسي عليهما فأنام وأحلم. أبي هو أجمل رجال القبيلة، طيّب ولا يمكن أن يلحق الأذى بأيّ شخص. لم أرَه غاضباً قطّ، ولم أسمعه يوماً يرفع صوته. يؤدّي كلّ صلواته

ويسأل الله أن ينعم علينا بأفضل ما يكون..."

قاطعني مطالباً بوصف دقيق لوجهه:

"عيناه سوداوان، وحاجباه متلاصقان، أنفه دقيق وذقنه مدوّرة وخدّاه ممتلئان. جبينه عريض تخطّطه بعض التجاعيد. كثيف الشعر وشحمتا أذنيه سميكتان... ويبدو أن هذه علامة الطيبة والغنى..."

غفا وعيناه نصف مغمضتين. وضعت يدي على جبينه فوجدت حرارته مرتفعة جدّاً. حاولت إيقاظه من دون جدوى، كان نومه عميقاً كأنّما غاب عن الوعي. أسرعت لأحضر أمّي ونقلناه إلى الداخل وبقينا بجانبه حتى الفجر. استيقظ مذعوراً وتقيّأ دفعة واحدة سائلاً أخضرَ مختلطاً بالدم. وعند طلوع النهار كان قد فارق الحياة.

-٢-

ظللت طوال الليل شاخصة إليه أشاهد كيف تتساقط نفسه أو أراقب تحديداً كيف تتسرّب الروح من هذا الجسد الضئيل الذي لم يتسنَّ له الوقت ليمرض يوماً. كانت تطلع منه عبر حشرجات متقطّعة غريبة الشكل، هواء عفن الرائحة، وكانت الأنفاس الأخيرة مقزِّزة. وأنا تنشَّقت ملء صدري هذه الأنفاس النتنة لكي أحتفظ بداخلي بحياة هذا الأخ الذي أحرقت براءته قلبي. وأصيب رأسي بدوخة هي ما بين الصداع والدوار كادت تذهب بي بعيداً من هذه الغرفة التي مقتُّ كلّ ما فيها من أغراض باتت شهوداً جامدة على موت ظالم. كنت أنظر إليها أيضاً محدّقة فيها إلى أن ترتعش جفوني. إنّها الغرفة الرئيسة التي كنّا نأكل فيها وننام. وحدها عمّتي كانت لها غرفة، ليست فسيحة جدّاً، لكنّها مريحة تماماً. ولا بدّ من أنّها مكانها السرّي تحضّر فيه تركيباتها وخلطاتها القاتلة. تنعزل فيها ولا تسمح لأحد بتجاوز العتبة، حتى (بل خاصّة) والدتي. هي الغرفة الوحيدة في المزرعة التي لها بابٌ خشبيّ بقفل ومفتاح.

ويبدو أنّها كانت تنجز وضع مخططاتها ليلاً على ضوء الشمعة،

ويحضر بعض الناس لمقابلتها، فتختلي بهم فيما نحن يُحظَر علينا طرح الأسئلة. ولم أعرف إلّا بعد زمن طويل أنها كانت مشهورة في القرى المجاورة بممارستها السحر وبعلاقاتها المتواصلة مع الشياطين.

كنّا ننام على فرش محشوّة بالقش والتبن، رقيقة ومرصوصة على الأرض رصّاً. في وسط الغرفة خوان وعند مدخلها غلّاية وإبريق شاي كبير وأكواب على صينيّة. على الجدار صورة الكعبة، باهتة الألوان، ومسبحة معلّقة بمسمار، ولم يكن عندنا ساعة حائط، لا حاجة بنا إلى معرفة الوقت. وكنت أمضي الليالي وأنا أبثّ على هذا الجدار الترابي اللون صوراً من أحلامي. كنت أخلع وجهاً على كل شكل طبيعي وألعب معه. وأحلامي هي أحلام راعية تتمنّى أن ترسل إلى المسلخ كلّ الحيوانات المكلّفة الاهتمام بها. أردت التخلّص منها لأتمكّن من الرحيل عن هذا المكان الذي حلّت عليه اللعنة منذ أن سافر أبي. الرحيل أينما كان، مغادرة هذه المزرعة والإفلات من هذه الساحرة، الذهاب إلى المدينة والالتحاق بمدرسة.

لا بدّ أنّ قريتنا هي وليدة خطأ. نائية عن كلّ شيء، لا يمكن بلوغها إلّا على ظهور البغال. هجرها كلّ الرجال إمّا إلى المدينة وإمّا إلى الخارج، فلم يبقَ فيها إلّا نساء وأولاد وبعض العجزة. قرية تكاد الحياة لا تمرّ بها، توقّف الزمن فيها وظنّ ناسها أنّ كلّ شيء سيتغيّر، وأنّ الكهرباء ستصل إلى كومة المنازل المهجورة والمتداعية هذه. لم نكن ننعم بكهرباء ولا بطريق، وفي ما خصّ المياه فالاتّكال على نسبة الأمطار. والتالي فإن المستشفى والمدرسة والغاز المنزلي والورق

وأقلام التلوين كانت في آخر العالم في ما وراء الظلمة حيث يتعذّر الوصول.

كانت هناك مدرسة قرآنيّة في المسجد الصغير الوحيد، لكن لا يحقّ للفتيات دخولها. ارتادها أخي وكنت أرافقه من وقت إلى آخر حيث أبقى وأطوف حولها مثل المجنونة وصدى الآيات القرآنية يتلوها الطلاب معاً يتناهى إليّ، فأردّدها بشكل أخرق وأنا لا أفهم منها شيئاً. أستشيط غضباً وأخبط الأرض بقدميّ لاعنة المدرسة وفقيهها العجوز الكفيف. وفي أحد الأيام تدثّرت بجلباب أخي ورفعت الغطاء على رأسي ونبتُ عنه. فقد سرّه ألّا يذهب يومها إلى المدرسة، هو ساق القطيع وأنا حملت لوحه الصغير واندسست بين سائر الصبية حانية الرأس. راح الأولاد يضحكون فأسكتهم الفقيه ومن مكانه راح بعصاه الطويلة يفتّش عن الدخيلة يتلمّس لحظة، ثمّ وصل طرف العصا إلى رأسي وبحركة دقيقة أزاح الغطاء عن رأسي، أحسست نفسي عارية. صاح الأولاد، ووجّه الفقيه ضربة خاطفة إلى رأسي، فأطلقت صرخة وخرجت راكضة. وسمعت العجوز يقول: "بالطبع أنا أعمى، لكن لست غبيّاً... النسوة أكتشفهن من رائحتهنّ الكريهة... فلتتابع...". ومنذ ذلك اليوم أصبحت المدرسة حلمي الوحيد، لا هذه المدرسة التي لا مكان للبنات فيها، بل تلك التي تُعِدّ المهندسين والمعلّمين والطيّارين...

بلغت العاشرة من عمري وأنا لا أعرف القراءة ولا الكتابة. تصلنا رسالة من والدي فأحرص على فتحها وأتظاهر بأنّني أقرأها، مبتدعة كل شيء، فتضحك أمّي، لكنها تبقى قلقة. تنتظر عودة ساعي البريد

أو وصول البقال المتجوّل الذي يقرأ بصعوبة. كانت تحبّ قراءتي كثيراً... خالت أنّني موهوبة جدّاً وأنّني تعلمت القراءة وحدي مع البقر أو أقلّه مع أخي. لكن يصعب على البقال أن يفهم خطّ أبي فيعجز في محاولته ويستغني عن القراءة مؤكّداً: "يقول إن الأمور على خير ما يرام وإنّه سيرجع قريباً".

وكنت آخذ الرسالة بعده وأقول وأنا أهجّئ الكلمات كمن يكتشف الأحرف الأبجديّة للمرة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم (كل الرسائل تبدأ بهذه العبارة، وبذلك لا أكون مخطئة)،
مدينة فلان، الأحد، نيسان ١٩... ثم هذه السنة...
أعزّائي الغالين
أفكّر فيكم كلّ يوم. أنا في صحّة جيّدة، لا ينقصني سوى رؤية وجوهكم. الطقس بارد. لكنّي ألبس جيّداً.
كيف حالك يا زوجتي وأنت يا إدريس وأنتِ يا فاطمة؟
أرسلت لكم مالاً، حمّلت الحاج هديّة لكل منكم، فهو سيعود قريباً. حماكم الله من عيون السوء. هنا كل شيء جيّد. كل الأقارب يهدونكم السلام، عمر وإبراهيم ومحمد وقدور. سلامي إلى كل العائلة...

كانت والدتي تستغرب دوماً هذه الرسائل الموجزة، أمّا عمّتي فتغضب كلّ مرّة لأنه لا يذكرها. لا يُعقل أن ينسى والدي شقيقته، لكنّني كنت حرّة في قراءتي وأقول ما يحلو لي سماعه، فتنتزع الرسالة من بين يديّ

وتصيح بي: "سأجعل قطعة الورق هذه تحكي. أنا أعرف الحقيقة، امّا أنتِ يا ابنة الأخ الحقيرة فأنا أعرف أنّك لا تعرفين القراءة، أنتِ ممثّلة تسخرين من الناس المسنّين، لكن الله يعرف كيف يعيدك إلى الصراط المستقيم. أمرك لله ولأنبيائه... أنتِ لا تحترمين أحداً..."

وكانت أمّي تلوذ بالصمت، تتحاشى مواجهة هذه المرأة الشرسة وقد نأت بنفسها عن القبيلة وفضّلت السكوت وعدم القيام بردّة فعل لعلمها بما قد تأتيه ابنة حميها. كانت هي العاقر وتتّهم زوجها بعجزه عن منحها أولاداً ولا تتورّع عن تناول هذه المسائل الحميمة أمام أفراد العائلة. تقول إنّ زوجها قد يكون أكل شيئاً فاسداً عشيّة عرسهما، تتكلم عن ذلك بكلّ ثقة رافضة حتى استشارة الأطبّاء. وفي إحدى المرّات، عند مرور شاحنة المستوصف الجوّال الصغيرة، التي تأتي كلّ خمسة عشر يوماً، طلبت منها والدتها أن تستشير طبيباً، فرفضت متذرّعة بأنّ جدّتي تدفعها إلى الكشف عن جسدها أمام رجل ثمّ وقعت أرضاً متظاهرة بأنها أصيبت بنوبة صرع. ولم تعد جدّتي تكلّمها منذ ذلك اليوم. إن احترام الوالدين هو من وصايا الله وعلى المسلم أن يطيعهما حتى وإن كانا على خطأ. هذا ما شرحه لي أبي منذ نعومة أظفاري وكنت قد ارتكبت حماقة ثمّ نعتّ أمّي بالكذب، ما جعلني أواجه يوماً أسود. فقد سجنني والدي في الزريبة وتركني طيلة النهار بلا طعام. أذكر أنني شربت ماء ملوّثاً من حوض صغير للحيوانات. توجّعت طوال الليل لكن ليس من الماء. لقد جُرحت، وأحسست بالخجل، ومن يومها بتّ أعرف أنه لا يجب التقليل من احترام الوالدين.

في اليوم التالي، ولكي أهدّئ غضبي، غبت عن البيت فترة طويلة من بعد الظهر. كنت قد عثرت في الجبل على مخبأ مثاليّ، فجوة في صخرة تشبه مغارة صغيرة. صرت أرى فيها بيتي الثاني، ملاذي وقبري، أدخلها وأسدّ بابها بحجر كبير وبعض أغصان الشجر. وفي الصيف تطيب لي جدّاً الإقامة فيها، هناك ألتقي مجدّداً شخصيّات أحلامي، يمثّل كلّاً منها حجرٌ كبير نوعاً ماً. منها الملك والملكة، ومنها الشحّاذ والمجنون ومنها الفارس المقنّع ثمّ عائلتي. والدي حصاة مصقولة ناعمة الملمس، أضعها على يمين الملك، الصخرة الجميلة المرصّعة بحبيبات بلّورية. كان يمثّل لي العدالة، وعندما يكون عندي شكوى أقدّمها أتوجّه بالكلام إلى تلك الحصاة الرائعة المزوّدة بكل القدرات. الملكة لم تظهر قطّ، هي كناية عن حجر صغير ملفوف بخيط من ذهب سرقته من عمّتي. أما فارسي فلم يكن حجراً بل قطعة خشب شذّبتها ولوّنتها ببعض أوراق الزهر. لم أكن أشركه في مشاكلي، بل أحتفظ به لما بعد، ليوم اضطراري إلى مغادرة القرية. الشحّاذ جعلته حفنة من الرمل الرطب أنفخ فوقه فيقع ويصبح مجنون القصر. ومع بعض اللعاب كان الرمل يتحرّك وهذا هو الجنون بعينه، كنت أعرف أنّه في حضرة الملك لا أحد يأتي بحركة.

جعلت والدتي نصف الحجر المصقول الذي يمثّل والدي. رسمت بقطعة طبشور خطّاً في وسط الحجر لعلمي أنّ هذين الكائنين لا ينفصلان "طول العمر وحتى الممات". أمّا أخي فكان حصاة هشّة تتفتّت بمجرّد لمسها. كانت حصاتي المفضّلة. أمّا عمتي فلم تكن حجراً بل عقرب ميتة لممتها ووضعتها في عمق المغارة.

تلك كانت حديقتي السرّية، مدرستي القرآنيّة وبيتي المشرق. كدّست فيها كومة من الأغراض التي بدخولها هناك فقدت وظائفها لتصبح شخصيّات حلم أرتّب الحياة فيه بأدقّ التفاصيل، فالسكّين ليس للقطع بل لتدعيم سقف القصر، والقصعة الفخارية صارت وادياً يرتاح فيه الجنود، وملعقة الخشب قارباً لأخي ولي...

كنت أمضي ساعات في ترتيب هذه المرجة من رمل وحصى. وعندما يتسنّى لي بعض الوقت أنصرف إلى إنجاز أبجديّتي. كان عندي لوحة قرآنية، سرقتها طبعاً، كنت أكتب عليها أحرفاً ليست بربريّة ولا عربيّة ولا أجنبيّة. هي رموز خاصّة بي، أنا وحدي أمسك مفاتيحها ومعانيها ووجهة استعمالها.

لم أكن أتكلّم سوى اللغة البربرية ولا أعرف إن كانت تُكتب. فرسائل والدي كانت بالعربية يدبّجها له كاتب عام. ولم أكن أفهم الشيء الكثير عندما يقرأها لنا ساعي البريد لكن كنت أحزر بعض معانيها.

أما أبجديتي فكانت كناية عن رسوم بسيطة وألوان ونقاط وفواصل وخطوط صغيرة ونجوم... وفي أحد الأيام لحق بي أخي وفاجأني لحظة إزاحتي حجر الباب، فأجفلت ولم يكن لي خيار سوى إدخاله محلّفة إيّاه بألا يخبر أحداً. انسلّ جسدانا داخل المغارة، وأخذت أخي من كتفه وأنا أعرّفه إلى شخصياتي وأصدقائي، ما جعله ينفجر ضاحكاً مبهوراً. لم يخطر له أن تكون أخته قادرة على الخروج عن المألوف بهذا الشكل وأن تكون بهذه الجرأة، أن يكون لها بيت آخر وتدير عالماً آخر. ثمّ سألني إن كنت أسمح له بالمشاركة في

هذا الحلم، لأنه هو أيضاً عنده شخصيات يفصّلها من الغيوم ويدعها تسرح في رأسه الصغير.

أفسحت له مكاناً صغيراً وقدمته إليه:

- هذا بيتك. لك الحقّ في أن تدعو إليه من تشاء. لكن انتبه لا شجار بين جماعتي وجماعتك. حالياً يلازم كل واحد مكانه، ثم شيئاً فشيئاً نفتح الحدود ونجعلهم يتعارفون.

غمرته السعادة ورقص من الفرح خابطاً الأرض برجليه. كانت شخصياته رسوماً على دفتر، فقطعها وألصقها بعجين رطب على ألواح خشبية، وكلها من الحيوانات، جمل برأسين، ثعبان يعتمر قبّعة من القشّ، ديك بساق واحدة، حصان مجنّح وجاموس برأس إنسان وحمار صغير... وكشف لي أنّ الحمار يمثّله بسبب لطافته، فيما لا تمثّل سائر الحيوانات إلّا نفسها. لم تظهر منه أيّ فظاظة تجاه أهل البيت، وحده والدي حظي منه برسم يمثّله كشمس متوهّجة، وقد احتفظ بهذا الرسم لنفسه لا يريه لأحد.

هناك باتت لنا أسرارنا مودعة مصونة لا خوف عليها من أيّ انكشاف. وصار يقصد المغارة وحده أحياناً حيث ينظّم معارك بين كلّ حيواناته. وفي أحد الأيام عاد باكياً، فقد عضّ الثعبان الحمار!

قال لي:

- مات بعد معاناة. كان الثعبان سامّاً وأنا لا أعرف ذلك. دفنت الحمار خارج المغارة. أحسست بالألم وبكيت.

حاولت أن أعزيه قائلة إنه حمار من ورق وإن بإمكانه أن يرسم حميراً أخرى.

– كلا! هذا الحمار لم يكن من ورق.

وبذلك عرفت منه أن ما يحدث في مكاننا السريّ لم يكن لعبة، بل جدّي. ومنذ ذلك اليوم خفّت شيئاً فشيئاً زياراتي للمغارة ورحت أسهر على إبقاء أخي في مزاج جيّد. واحتفظت بالسرّ إلى يوم اقترحت عليّ حليفة، جارتنا التي كنت أصطاد معها عصافير الدوريّ، أن تطلعني على شيء نفيس. وعرضت عليّ أن نتبادل أسرارنا. فوعدتها وأقسمت ألّا أقول شيئاً. فعصبت عيني وقادتني إلى الغابة على طريق جانبيّ. تبعتها ويدي بيدها، وتوقفت فسمعت صرير باب ينفتح، ثم رفعت العصابة عن عيني فوجدت نفسي في قلب جذع شجرة. كانت أكبر بكثير من مغارتي ثم كان فيها ضوء جميل يتسرّب من بعض الشقوق في اللحاء. لقد جعلت من هذا الكهف الخفيف الإضاءة مستودعاً ونمليّة طعام. يبدو أنها لم تكن تأكل عندما تجوع، فتسرق الطعام وتخزّنه، علب سردين وربطة بسكويت وكيس صغير مليء بالثمار المجففة ورغيف مستطيل وثلاثة أو أربعة صحون مكسورة وفتّاحة علب صدئة ومسامير وملاقط غسيل وعلبة سجائر من نوع "تروب" نصف ملآنة وشمعة وعلبة ثقاب...

في الداخل يمكن الوقوف، لم نكن كبيرتين جداً فنهضت وقالت لي:

– ها هنا كنزي وسرّي وحلمي.

أنا كنت أنظر إلى الأشياء المصفوفة جيّداً، أما هي فكشفت لي عن رأس نهديها الصغيرين وعن فمها ثم عن بطنها.

كنّا في العمر نفسه تقريباً، لم نكد نبلغ العاشرة. طلبت منّي أن أريها نهديّ.

- لكن ليس عندي نهدان... ليس بعد.

- لا يهمّ، أريني في كلّ الأحوال.

فتحت ثوبي. فدنت منّي ووضعت سبابتها على رأس كلّ نهد وعادت بها إلى شفتيها. وكان عليّ أن أقوم بالمثل. كان طرفا نهديها أكثر بروزاً وأثخن ممّا عندي. تحسّستهما ووجدتهما ناعمين جداً، فانتابتني رغبة في مداعبتهما ثمّ احمررت خجلاً.

غادرتُ ركضاً مضطربة بهذا الاتصال الذي أيقظ فيّ إحساساً غريباً جميلاً وجديداً كلّياً.

صرت أحلم بهما. لقد تضخم الثديان وصرت أحلم برأسي بينهما، أتنقّل بشفتيّ من واحد إلى الآخر شاربة منهما، لا الحليب بل ماء محلّى بالسكّر. وكنت أجمع يديّ بين فخذي فلا أشعر بالخجل. فقط عندما أستيقظ أحسّ بوطأة خطأ كبير. أشعر بالاستياء وأكره حليفة وأقرف من نفسي. اكتشفت أن جسدي يمكن أن يحسّ بشيء آخر غير البرد والجوع، والحرارة والتعب.

-٣-

كنت أعدّ البقرات مسندة ظهري إلى الشجرة وغفوت فيما تداعب نسمة خفيفة وجهي. استسلمت لهذه الحالة من الاسترخاء اللذيذ الذي يعرفه الأولاد. لم أكن طفلة لطيفة، فقد داست قدماي في سيرها على الكثير من الحجارة الحادّة لدرجة أن جسدي كله وحتى روحي باتا يكرهان كلّ ما يمكن أن يكون لطيفاً وحنوناً. لكنّني أعترف بأنّ إغفاءة بعد الظهر ذاك كانت ممتعة ولم أعرف مثلها أبداً في ما بعد، ولذلك ربما لا أزال أتذكّرها.

أحسست يداً تلامس كتفي، التفتّ فرأيت رجلاً طويل القامة نحيفاً ذا شاربين أصهبين رائعين. كان أجنبيّاً، وعلى الأرجح فرنسياً يافعاً. لكن كيف وصل إلى البلد؟ لم يدعُه أحد من القرية. كان يحمل كيساً على ظهره وبدا تائهاً. لم يكن يتكلّم أيّ كلمة باللغة البربرية وأنا لا أعرف أيّ كلمة فرنسية. أشرت عليه بالجلوس فابتسم ووضع كيسه على الأرض وأخرج مزماراً معدنيّاً لم أرَ مثله من قبل. ناولني إيّاه وطلب منّي أن أعزف عليه. تفحّصته ونفخت فيه فأصدر صوتاً نشازاً. فابتسم وأمسك أصابعي ووضعها على الثقوب. ففهمت

أنه يجب نفخ الهواء فيه وسحب الأصابع عليه تباعاً إلى أن تتشكّل أصوات تؤلف الموسيقى. وفي آخر النهار بتّ أعزف بسهولة مذهلة. وعندما حان موعد العودة بالبقرات كان يغطّ في نوم عميق. حاولت إيقاظه لكن وجدته متمتعاً بنومه فلم ألحّ عليه. خبّأت المزمار في مغارتي وعدت إلى المزرعة. وطوال المساء والليل كنت أفكر في هذا الرجل مأخوذة بصورته وابتسامته.

عند العشاء تحدّثت عمّتي عن غريب، سارق أولاد، يلاحقه رجال الدرك. قالت إنه يجتذب الأولاد إلى الغابة لكي يبيعهم لاحقاً في فرنسا من أُسَرٍ لا أولاد لها.

لم أمضِ الليل مرتعدة من الخوف بل جاءت ردّة فعلي معاكسة إذ كنت متوتّرة من الفرح! رأيتني مخطوفة على يد هذا الفارس الجميل، في هذه الأثناء أكون قد تدبّرت له جواداً، ليحملني بعيداً عن القرية المسكونة بالشقاء والوحشة. ثمّ إن فكرة السفر إلى فرنسا أضفت على حلمي ألواناً وموسيقى رائعة. وقلت ربما أشجع بنفسي هذا الغريب عل أخذي بين أمتعته. يا للمغامرة! فحتى لو باعني في فرنسا أعرف كيف أهرب وأعثر على والدي. هذا كان حلمي. وماذا عن أخي؟ ماذا سيحدث له وهو بين يدي عمّة تتآكلها الكراهية وجدّة موهونة وأمّ تعيسة أسقط في يدها؟ لن أتركه وحده... شرط أن يوافق الأجنبي على خطفنا معاً. وأمّي ستفقد صوابها... كلا. تخلّيت عن كلّ هذه المشاريع وغفوت بين يدي الخاطف الجميل، تحت الشجرة... أعدت ترتيب حلمي، فألبست الفرنسي غندورة زرقاء جميلة وانطلقنا معاً وسط ضباب الصباح.

في اليوم التالي انتظرت الغريب في المكان نفسه. كانت تحيط بي حيواناتي وهي تنظر إليّ بعيون مشفقة مغرورقة بالدموع. وعند انتصاف النهار ذهبت لآتي بالمزمار وعزفت عليه على أمل أن أراه يظهر مجدّداً. وعزفت بشكل سيّئ جداً. نسيت كلّ شيء وعرفت أن وجوده هو الذي كان يوجّه أصابعي. وبدلاً من فارسي رأيت عمّتي تظهر عليّ منفوشة الشعر حاملة قضيباً ضربتني به ضربة خاطفة على قصبة ساقي، وأخذت المزمار وولّت مهدّدة إيّاي بالويل والثبور. وعدت مساءً إلى البيت وأنا أعرج عازمة على الانتقام. وفي الليل وضعت عدّة مخططات للتخلّص من هذه المرأة:

أضرم النار في كوخها، لكن الحريق قد يأتي على المزرعة بأكملها.

أدخل أثناء نومها كانون فحم، فتموت مختنقة، لكنّ أمرين يحولان دون ذلك، فالباب مقفل دوماً ثم ستموت وهي نائمة من دون أن تتألم وأن تعرف أنّ هذا انتقامي.

استغلال فرصة غيابها في خلال النهار ودسّ ثلاث أو أربع عقارب (وهي تجتاح القرية). لكن لا، هي أقوى من هذه الدويبات. وهي التي علمتنا يوماً كيف نمسك العقرب من دون أن نجعلها تلدغنا.

أسكب على وجهها غلاية من الماء الغالي، فتتشوّه، لكنها في الأساس قبيحة جداً.

ألتقط بعض الجرذان وأسجنها عدّة أيام في قفص إلى أن يضاعف الجوع شراستها، وأترقّب دخولها ذاك الكوخ الذي يحوي حفرة نستعملها كمرحاض وأطلق الجرذان فتلتهمها وتقتلع قفاها السمينة.

قرّ رأيي على هذا المخطّط الأخير. وكنت بحاجة إلى الوقت

والصبر والشجاعة. فلطالما كنت أخاف من الجرذان، حتى إنه كان يُغمى عليّ أحياناً عند رؤيتها. ويجب أولاً الإمساك بها وليس هذا بالأمر السهل، ولم يكن بإمكاني طلب المساعدة من أخي.

وكلما مرّ الوقت أصبحت رغبتي في الانتقام هوساً. كنت أتصوّرها واقعة وقد طارت ساقاها في الهواء، وسروالها المُنزل يعوّق حركاتها والجرذان تتهافت على بطنها وعورتها سالخة منها قطعاً من اللحم الدامي. كنت أرتعد من هذا المشهد الذي يتراءى لي دوماً. أخاف منه وفي الوقت نفسه عليّ تنفيذ المخطّط. فصنعت كفوفاً من بعض الخرق ووفقت بصندوقة خشب تركها البقال المتجوّل هناك. ولتسكيرها استعنت ببعض ألواح الخشب. وباتت العدة جاهزة فانتقلت إلى المرحلة الثانية، أي مراقبة حركتها ذهاباً وإياباً وحفر ممرّ للجرذان وإيجاد حجر لإغلاقه ومنع هذه الحيوانات القذرة من الخروج منه، وأخيراً تحديد موعد ذهابها إلى الحفرة. لاحظت أنّها تقصدها مرّتين في اليوم، صباحاً بعد تناول الفطور ومساءً قبل أن تنام. فاخترت المساء على أساس أن الظلمة والسكوت يجعلان العملية مرعبة. لم يكن هدفي أن أؤذيها وحسب بل أن أرعبها وأزعزع حياتها طول العمر.

لم يصعب عليّ إيجاد الجرذان، واستعملت غربالاً لكي أحاصرها وأسجنها في الصندوقة، وصارت تطلق أصواتاً حادّة تؤذي أذنيّ وتجعلني أقشعرّ اشمئزازاً. واستبدّ بها الجوع والشرّ خصوصاً، فخبّأتها في المغارة وانتظرت اليوم والساعة المناسبين.

في المساء الأوّل لم تذهب إلى الحفرة، وهذا ما أقلقني إذ قد

لا يكون مخطّطي كاملاً. وكان موسم التين وأعرف أنها تحبّه كثيراً. فقطفت كيلوغراماً تقريباً وقدّمته إليها في صباح اليوم التالي. استغربت الأمر وظنّت أنني قدمت هذه الهدية طلباً للسماح. تركتها لظنّها وزدت على مبادرتي بعض الكلمات المجاملة واعدة بالطاعة من الآن وصاعداً. وكما توقعت التهمت صحن التين ولم تدع فيه سوى حبّة أو اثنتين فجّتين قليلاً. وبتّ واثقة من أنها في المساء ستذهب مراراً لقضاء حاجتها في الحفرة.

جلست مستعدّة في مكان غير بعيد من مسرح العملية على صندوقة الجرذان الهائجة وقد عيل صبرها. كان الكلّ نياماً، فيما ارتديت أنا جلباباً أسود لأتماهى مع المشهد المظلم، ولم يكن ضوء القمر قوياً. وباتت الظروف ملائمة فلا بدّ من أن تنجح العملية. ولم أفكّر في ما سيحدث بعدها.

خرجَتْ حاملة دلو ماء، كنت مختبئة وراء شجرة قرب الإسطبل. فدخلت مكان الحفرة وتركت الباب مشقوقاً. ولم أضيّع الوقت، فأسرعت وأقفلت الباب من الخارج وأطلقت الجرذان التي اندفعت إلى كوخ الحفرة صارخة من الجوع والفرح (جرذان فرحة! يا للمشهد!). وسمعت صراخاً ثم صوت جسد يقع. ولم أعد أميّز بين صراخها وصراخ الجرذان. وراحت تخبط الباب بقدميها، محدثة جلبة كبيرة أيقظت الجميع. وانتهزت الفرصة لأسرع إلى غرفتنا حيث وجدت أمّي واقفة مرتعبة. ظنّت أن هناك لصّاً. ورحت بدوري أسأل عمّا يحدث، فطلبت منّي أمّي أن آوي إلى فراشي فرفضت. أردت أن أعرف ماذا جرى. وأنا التي أنجدتها. فتحت الباب وبدا المشهد

مرعباً. أشفقت عليها قليلاً لكن لم ألبث أن شعرت بالرضى الداخليّ. كانت المرأة البائسة مطروحة أرضاً والدم والبراز على ساقيها. وراحت تبكي وتقول إن الجنّ عادوا. وهدّدت كلّ القبيلة وتوعّدت بانتقام رهيب. ولم تكن قد اتّهمت أحداً بعد. لكنّها لاحظت غياب أخي الصغير. وخطر ببالها أنه هو من دبّر هذه العملية بالتواطؤ مع الجنّ أو لأنّه شرّير يتلبّس مظهر الولد البريء.

انتابني خوف شديد، واستشعرت أنّ انتقامها سيقع على أخي وأردت أن أفضح نفسي لأحميه، لكن فات الأوان، كانت عازمة على إنزال الشقاء بالعائلة. وقد اشتدّت كراهيتها وأصبحت عيناها صفراوين. لم أكن أعرف أنّ للحقد لوناً، علماً بأنني أحببت اللون الأصفر لكن عندما كان يملأ عينيها يصبح ملوّثاً. إنّه الشرّ يُغرق صفحة عينيها.

لم تكن عضّات الجرذان هي المهمّة بل هو أثر الخوف ما كان أقوى. وقد نجحت العملية لأن هذا الوحش للمرة الأولى طُرح أرضاً ذليلاً في مواجهة عنف أعمى غارقاً في الظلام تفوح منه رائحة الخراء والبول. فقد استعاد الوحش إنسانيّته لبضع دقائق، الوقت الكافي لكي يتحقّق من أنه ليس الوحيد القادر على ترهيب الآخرين. وسواء أكان بواسطة الجنّ أم الجرذان نجحتُ في إلحاق الأذى به وجعله يشعر بالخوف. لكن نصري اقترن بالمرارة والحزن، فقد خشيت انتقامها.

لازمت غرفتها عدّة أيام، تمضي نهاراتها شاتمة السماوات والأرض والقرية والقبيلة. وحسبنا أنا وأخي أنّها تقضي حاجتها في سريرها. وفي الواقع، كانت مصدومة لدرجة أنه لم يعد عندها

حاجات تقضيها! وصارت من وقت إلى آخر تفتح باب غرفتها وتطلق لعناتها، من مَعينها الغنيّ بالسباب المتنوّع والمرعب: "يا أبناء النهار الظلاميّ!"، "يا أبناء العار والزنا!"، "فلتعصف الوحشة في بيتكم وبكل عائلتكم!"، "ليأخذكم العدم على فراش من الجمر!"، "لعن الله الشجرة التي ظلّلتكم وثبّتكم في هذه القرية التي لا تستأهلون حتى قبراً فيها!"، "لتنهش الضباع أجسادكم وأنتم في عزّ نومكم!"، "لعن الله أصلكم ودينكم ويوم خرجتم من ذاك الثقب إلى العالم!" و"ليزرقّ جلدكم بالحمّى ولتسدّ الرمال كلّ منافسكم!".

وبعد الشتائم تأتي التهديدات: "سيفاجئكم انتقامي مثل البرق والرعد... وينزل بكم الألم والاختناق والدموع والموت... ضغينتي لا تكلّ أبداً... وأعرف كيف أغذّيها وأشحذها وأصبّرها حتى اللحظة المناسبة. الكراهية خير صاحب لي، رضعتها مع حليب أمّي. وإن لم يكن لي أولاد فإن ألف شخص وشخص يأتمرون بي ويطيعونني. وسيحضرون لدفنكم أحياءً، وبعد موتكم سينبشونكم ليضحكوا ويرقصوا على جثثكم الصفراء الشاحبة..."

أيّاماً ولياليَ نسمع هذه المجنونة! وصوتها، الحادّ أحياناً، والجهوري أحياناً أخرى، يلفّنا كأنّما بملاءة متّسخة أو بلحاف محشوّ بالقمل. وتروح أمّي تصلّي وتتضرّع إلى الله أن ينجينا من هذه المرأة المصمّمة على ارتكاب جريمة تحت جنح الظلام وفي غياب الرجال. كانت أمّي مرتعبة، تبكي وترجو عودة والدي. أمّا جدّتي فكانت صمّاء عملياً غير دارية بما يجري في المزرعة. في الليل كنا نعتصم بعضنا ببعض، ننام أمّي وأخي وأنا في سرير واحد، نلوذ

بعضنا بعض. وعندما أسوق البقرات إلى الرعي أدسّ سكين مطبخ في جعبتي. لكن أكثر ما كنت أخاف على أمّي العاجزة عن الدفاع عن نفسها، وعلى أخي الطيّب القلب والبريء جدّاً.

مرّت أسابيع من دون أن يطرأ شيء. إنّه هدوء ما قبل العاصفة. لم تنسَ لكنّها أخذت وقتها لكي تنفّذ مخطّطها. باتت تعلم أنني أنا التي تسبّبت بإذلالها. وعندما تمرّ بجانبي ترميني بنظرات مغتبطة ممزوجة بغيظ بارد مكتوم. ستعتمد المفاجأة في ضربتها. ولذلك وقع اختيارها على أخي الصغير، لبراءته كما بسبب مجيئه إلى هذه الحياة وحسب. أرادت أن تعاقب الجميع، أهلي وأنا، وذلك بانتزاع هذا الولد، ثمّ أنا نفسي عندما تحمّلني المسؤولية عن هذه المأساة. سأحمل طوال حياتي وزر هذا الخطأ وهذا الشعور الرهيب بالذنب في أعماق نفسي. فإذا مات أخي فذلك لأنّني استفززت هذا الوحش، سأعيش إذاً تحت وطأة هذا العبء آملة تحقّق العدالة الإلهيّة.

إنّ الشرّ فنّ، وهو ليس في متناول أيّ أحد. يجب معرفة توظيفه وجعله شريعة حياة. فلا أمّي ولا أنا ولا حتّى والدي كان عندنا الرغبة أو حتى إمكانية توسّل الكراهية والشرّ.

وهذا ما فكّرت فيه لفترة طويلة، فكيف يمكن أن يتولى الشرّ على النفس، فيحجّرها ويفرغها من جوهرها ويجعل منها نصلاً قاطعاً يمزّق القلوب متمتّعاً بذلك؟ كيف تتغلغل الكراهية في إنسان حتى يصبح هو أداة ويرضى بالشقاء؟ تأخّرت كثيراً لأفهم، أو على الأقل خلت نفسي فهمت، أن الكراهية تحصّن صاحبها وأنها تصلّب الطاقة وتنمّيها. لم تكن عمّتي قطّ مريضة، لكن لم يكن عندها قلب وجلدها

أغلظ من الدرع. لا يمكن أن تتألم ولا تعرف الرحمة. وعزائي الوحيد أن هذه المرأة ماتت في عزلة تامّة، وبئس العزاء! لقد كنّا عاجزين أمام ضراوتها، وهكذا تحقّق الموت على يديها. غسل الفقيه الأعمى جثّة أخي، وكُفِّن بملاءة بيضاء ودُفن عند صلاة الظهر. وراح الناس يردّدون: "إنّه القدر" و"إنّها مشيئة الله". وظنّ الفقيه أنه يعزّينا بقوله: "أراد الله ملاكاً فاختار هذا الولد!". كنت أبكي في إحدى الزوايا، ولم تعد عيناي تريان الأشياء في أماكنها. مالت الأشجار حتّى لامست الأرض، وانقلبت الحيوانات على ظهورها وقوائمها في الهواء، وترجّحت السماء يميناً ويساراً، وبدا لي الناس صغاراً جداً. وحدها عمّتي التي اتّشحت بالبياض حداداً، كانت كبيرة، ورأسها الأضخم من جسمها يتهادى. عندما تتنقل تطول ذراعاها وتكشطان الأرض، وتترك قدماها خلفهما حفراً واسعة يطلع منها الدخان، وأخيراً تفوح منها رائحة براز يملأ نتنها القرية. لقد بدت على حقيقتها، وحشاً في أوج مجده.

لم تكن لنا القدرة على مواجهتها. اشتبهت أميّ في أنها سمّمت أخي، لكنّها لم تستطع الصراخ بذلك. كان ألمها كبيراً لدرجة أنه لم يعد يفيد بشيء، فهو في مطلق الأحوال لن يحيي أخي. وبكت جدّتي بصمت فيما إصبعها تشير باستمرار إلى غرفة عمّتي.

كان بالإمكان إذاً قتل ولد ودفنه والبكاء عليه في قرية جبلية صغيرة على بعد ساعة أو ساعتين من المدينة. لقد ضرب القدر ضربته، وحلّت المصيبة. استجابت عمّتي دعوة السماء، وتكفّل الله بالباقي.

كلا! آمنت أمي بهذه القصص كما آمنت بها أمّها وجدّتها وأمّ

جدّتها... أمّا أنا فقد رفضت تقبّل هذا الهوان. أردت أن أكون الشخص الذي تتوقف الأمور عنده. فليس لأننا كنا معزولين في هذا البلد يجب أن تنجو مجرمة بفعلتها. انتظرت عودة أبي لكي أفجّر الفضيحة. لكنّني لم أعرف والدي جيّداً. ففي عشر سنوات تسنّى لي أن أراه شهراً واحداً كلّ سنة... فيكون المجموع بالنسبة إليّ ستة أشهر، سبعة أشهر. لقد رحل عند منتصف إحدى الليالي وربما كنت في الرابعة من عمري. وما أزال أذكرني في ذاك الصباح وقد أحسست بفراغ كبير يلفّني. وبكيت. لم يعد موجوداً. وصرت أمضي الوقت وأنا ألعب بالحجارة. لذلك يحدث لي أحياناً أن أضيّع معالم وجه أبي في ذكرياتي.

كيف ستكون ردّة فعله؟ هل يسلّم أخته إلى القضاء؟ هل يسكت؟ هل يبكي بصمت؟ أم يهشّم رأس الوحش بحجر كبير؟

قصدت أمّي المدينة على ظهر بغل، وحملت معها رسالة من والدي تحوي رقم هاتف يمكن أن نترك له رسالة عند صاحبه. وفي طريقها كانت تتساءل كيف تبلغه الخبر: "إدريس مريض، احضر بسرعة"، "تعرّض إدريس لحادث، يجب أن تأتي"، أو "عذ، كلّنا بخير ما عدا إدريس". لم يكن بإمكانها أن تترك له رسالة من نوع: "مات ابنك، عد إلى الديار". كلا. لو أمكنها على الأقلّ أن تكلمه مباشرة، لكن هذا مستحيل. فهذا الرقم هو لبقال من مواطنينا على طريق مكان منامة والدي.

عندما كانت تتخيّل هذا الرجل عائداً منهكاً في المساء لكي يأكل وينام، وأنّ البقال سيقصده أو يوفد من يبلغه: "أحمل رسالة إليك،

فقد اتّصلت بك عائلتك، لقد توفّى الله ابنك!..." كانت دموعها تنهمر بحرارة.

في مثل هذه اللحظات يبدو المنفى ظلماً بالفعل. فلو لم يهاجر هذا الرجل لما تجرّأت عمّتي ربما على إعطاء قرص من اللحم الممزوج بالسمّ لولد بريء استهدفته بانتقامها لأنّه لم يأتِ ذنباً ولأنّه كان صبيّاً ذكراً قرّة عين أهلي. لقد سعت إلى الأذى، ولم تنجح فقط في ذلك، بل وصلت إلى أبعد من مناها.

أبلغت أمّي الخبر كما هو إلى البقال الذي لا بدّ من أنّه أبلغه لوالدي في المساء.

- ٤ -

هل من معجزة تبدّد الحزن؟ كيف يمكن سدّ فجوة واسعة في القلب وفي الكبد وفي الرأس؟ وكيف يشتغل تفكيري طوال النهار من دون أن يطغى وجه إدريس ببسمته وطيبة قلبه على مكان وجودنا؟

وبعكس إيهامات الحكايات، ليس الموت هيكلاً عظمياً قبيحاً يحمل منجلاً ويجوب البراري مهدّداً هنا وحاصداً هناك البشر الضعفاء العاجزين. بالنسبة إليّ، لبس الموت وجهاً، هو وجه عمّتي، وجه طافح بالإحباط والنقص والحسد والشؤم الرهيب المتحكم بها وهي توزّعه بكلّ قواها لكي تشفي غليلها.

بات الموت الآن يحتفظ برائحة، هي رائحة ثياب عمّتي، رائحة عرقها المتراكم على مدى أسابيع ممزوجة برائحة عطر كبش القرنفل، عطر زنخ يفوح مع رائحة الفلفل والقرفة. والكلّ يختلط برائحة البخور الجنائزي، يضفي على الموت رائحة رهيبة مخلّفة وراءها عبقاً يطبعه الغبار والشمس على الأشياء والأشجار والنباتات. ويمكن أن تبدو عارية أو شفّافة، وقد تعلمت مذّاك كيف أتعرّف إليها وأحسّ بوجودها وأقدّر كلّ تصرّف منها، وأن أتكهّن بمعنى

حركاتها. وأبقى على حذرٍ منها لأنّني تعلمت كلّ شيء عن الموت والحداد وأنا في العاشرة من عمري.

سبق أن شاهدت حيوانات تنفق، لكن بدا ذلك طبيعيّاً. كانت تفارق الحياة كما وُلدت، ببطء بلا دموع ولا صراخ. ترحل تاركة لنا أجسادها لا نعرف ماذا نفعل بها. ربما تألمت، وربما لم تكن راغبة في مغادرة هذه المراعي والزرائب، لكن على ما يبدو لم تكن عندها مشكلة مع الموت.

لم أكفّ عن التفكير في والدي. تخيّلته يبكي وحده في حجرة صغيرة بين مهاجرين يلعبون بالورق في انتظار النوم. يبكي ولا يفوه بكلمة إذ قد لا يكون له أيّ صديق يكلمه ويخبره كم هو محطّم ومكتوٍ في أعماق نفسه وكم يشعر بالوحدة وقد تخلّى عنه الله الذي سلبه ابنه، وكم أن المنفى، ولو طوعيّاً، قد حزّ في قلبه جرحاً مؤلماً، وحيث لا شيء بقي على ما كان عليه، حيث ستتلاشى النجوم في السماء وتتضاءل أسرار البحر. ولم يعد من أهمّية لأيّامه ولا للعمل أو الشمس أو الذكرى. هو الذي كان يعيش مع رزمة من الذكريات المشدودة بعضها إلى بعض بالخيط الرفيع نفسه، خيط النظرة والحنان اللامتناهي، سوف يتخلّى عن كلّ شيء، ويترك كلّ شيء على رجاء مهووس بأن يرى مجدّداً وجه ابنه، ولو مرّة واحدة.

في رزمة الذكريات هذه كانت هناك على الأخصّ صورة ولديه وزوجته وأخيراً أمّه. وعندما يريد أن يرتاح ويسترخي، يتمدّد على سريره متأمّلاً سقف الفندق القذر ويستعيد صورة كلّ هذه الوجوه. وهو لم يكن يفعل ذلك دوماً خوفاً من أن يستنفد هذه الصور ذات

الحضور الواهي. وفي ذلك المساء تشوّش كلّ شيء في رأسه، لم يعد يرى جيّداً ولا يميّز الوجوه بعضها من بعض. لم تعد عيناه الممتلئتان بالدموع قادرتين على رؤية أيّ شيء. فما بينهما والذكريات غشاء عازل ثبّت كلّ شيء في غموض ضبابيّ. يواصل التلفّظ باسم ابنه متأتئاً كأنّه في حالة هذيان. وهرع زوج عمّتي الذي لا ينام معه في الحجرة نفسها لرؤيته ومساعدته. هو رجلٌ طيّب. لم يوفّق في زواجه بشقيقة أبي، كان رجلاً ضعيفاً وعديم الخيال، يواجه فظاظة عمّتي بلطف بائس يجعله مثيراً للشفقة. وهو أوّل من هاجر، وكان يرسل المال من دون أن يعود صيفاً. وفي غضون ثلاث سنوات قرّرت عمّتي أنها تحرّرت من واجباتها تجاه زوجها الغائب، الزوج الذي لم يكن رجلاً لأنه لم ينجح في إعطائها ولداً. في المراحل الأولى من زواجهما كانت تضربه وتحقّره أمام عائلته. لكنه تمكّن، بدفعه المال في كلّ مكان، من الحصول على جواز سفر. وغادر صبيحة أحد الأيام في شاحنة البقال الصغيرة ولم تصل منه أيّ أخبار إلّا بعد بضعة أشهر وذلك على شكل تكليف تفويض مرسل من مكتب بريد بلدة مورو في فرنسا.

وكان من شأن المأساة أن ساعدته على تصفية حساب قديم مع زوجته. فقرّر أن يعود مع أبي، فتكفّل بإبلاغ إدارة المعمل، واشترى بطاقتي السفر وحاول أن يشدّ عزم ابن حميه. ما كان ليشتبه، بينه وبين نفسه، في أن زوجته هي التي سمّمت هذا الصبيّ المسكين. لكنّه في أثناء الرحلة تذكّر شجاراً لا ينساه بينهما يوم ولادة إدريس. ففي فورة غضبها أقسمت على تضييع هذا الصبيّ إن لم تنجب واحداً مثله. ولم

يظنّ أن الأمور قد تصل بها إلى حدّ القتل. ولا يكاد يطرد هذه الفكرة من رأسه حتّى تعاوده فوراً. وفي منتصف الرحلة أصبحت هاجساً لديه، وباتت يقيناً عند الوصول إلى القرية. أنزلتهما سيّارة التاكسي في منتصف الليل أمام المزرعة. وبقي والدي وقتاً طويلاً قابعاً على حجر، ممسكاً رأسه بيديه وهو يبكي، وكذلك زوج عمّتي. ومع الفجر قصدا معاً المدافن وراحا يفتّشان عن قبر طريّ التراب والأصغر من غيره، فلم يجدا صعوبة في العثور عليه. بسط والدي سجّادة وصلّى. كانت أنفاس الهواء منعشة ويخيّم على هذه المقابر جوّ لطيف مميّز، وقد رطّب ندى الصباح التربة قليلاً. أحسّ بالبرد فرفع ياقة سترته ثمّ جثا على ركبتيه وقبّل القبر، وعندما نهض كان التراب يلطّخ جبينه وذقنه. أخذ منديلاً من جيبه وملأه من ذاك التراب. وربّما في هذه اللحظة أو بعدها ظهر فارس على جواد أغبر، وعلى كلّ من كتفيه يمامة، يشعّ بالضوء فتوجّه إلى والدي بهذه العبارات:

"أيها الرجل القريب جدّاً الآتي من مكان بعيد جدّاً، لا تحزن! ثِقْ بالقدر وبكلام الله. لقد غاب ابنك، وهو في الجنّة، ملاك. لم يكن عنده ما يفعله هنا على الأرض وفي هذه القرية. كان لا بدّ من أن يقع ضحيّة سمّ الحسد. وهو الآن ارتاح من آلامه. لقد أخذه الموت يوم أنجز حفظ القرآن كلّه، رحل مع آخر سورة، مع آخر آية. لقد حلّق على جناح آخر ألفاظ كلام الله. تحلَّ بالإيمان يا أيّها الرجل الجاهل الطيّب! لا تحاول الانتقام، ولا تزعج القدر. دع الأمر لله الكلّي القدرة فهو يأخذ لك حقّك حتى وإن كنت ستصاب مجدّداً في عائلتك. لا تفعل شيئاً، صلِّ كمسلم صالح واسأل الله الرحمة.

اهجر القرية وخذ عائلتك وابنتك بعيداً، بعيداً جداً عن عين فارغة ستتوصّل، لشدّة تركيزها عليكم، إلى إغراقكم في الشقاء إلى الأبد. تحلَّ بالصبر، ففيه شجاعتك وقوّتك وإيمانك. اهجر المكان هنا، غيّر وجهتك، اسكن أرضاً أخرى، لتكون في منأى عن شرّ يسكن امرأة قريبة منك. ارحل وأنجب مزيداً من الأولاد ولا تعُد أبداً إلى قرية الشقاء هذه. لا تزعج العجزة الذي ينطفئون ببطء فيها. لا تحمل معك شيئاً من هذه القرية، ولا حتى حفنة التراب هذه التي أخذتها للتوّ. ملعون هو هذا المكان. لقد تخلّى عنه كلّ الرجال، حتّى لم يبقَ فيه إلّا العجائز ومجنونة ستخنقها الأفعى التي تسحب السمّ منها. ولا تبصق وأنت تغادر، لا تقل كلمة واترك كل شيء، بِعْ ماشيتك إذا أمكنك واسلك طريق المنفى. ها هي الشمس تشرق وعليّ أن أعود إلى مدافن أخرى حيث عليّ القيام بأعمال أخرى. وداعاً أيّها الرجل الصالح!".

ودار الفارس على نفسه وغاب وسط سحابة غبار وراء يمامتيه اللتين ترشدانه إلى الطريق.

عندما أخبرني والدي هذه القصة لم أجرؤ على معارضته، وتركته يصدّق تخيّلاته. وعلى كلٍّ، لا بدّ من أنّ الصوت الذي سمعه هو صوت العقل. فماذا بقي له من عمل في هذه الأرض اليابسة؟ فمن الأفضل له أن يرحل ويصطحب عائلته ويبتعد عن جذوره، ربما ليحبّهم أكثر ويساندهم، ليحمي ثروته وأثمن ما يملك من رأسمال وليكون مع أفراد أسرته. فهو بات حريصاً على أن يكون بجانبهم إذا – لسوء الحظ – نزلت بهم مصيبة جديدة.

خطر لي لحظة أن العمة اختارت ادريس ضحيّة لها لكي تؤلمني أكثر وتعذّب ضميري بهذه الغلطة. وعلمت بعد سنوات طويلة أنها استهدفتني تحديداً وأرادت موتي، ليس انتقاماً للمكيدة التي نصبتها لها، بل لأنني، بحسب كلام والد جدّي وهو يحتضر، كنت صاحبة اليد المؤهّلة لاكتشاف الكنز المخبّأ في الجبل. أمّا قصّة الحسد والغيرة فهي ثانويّة. كنت أشدّ خطراً وأكثر إزعاجاً من أخي الذي لم يحمل من جهته لغزاً ولا سرّاً، بل طفولته وحسب. وقد أملت على الدوام أن تنجب بنتاً، ما دام الكنز لم يُكتشف بعد.

وكانت خطتها جارية على قدم وساق، وهي أن تتظاهر بالحمل وتلد وحدها في غياب الجميع، وربما في الجبل، وتعود حاملة رضيعاً تهبها إيّاه امرأة من المدينة مقابل بعض المال. وبهذا تلعب علينا مقلب "الولد الغافي"، فلا يتمكّن زوجها من قول أيّ شيء وبذلك تضع "ابنتها" في منافسة معي أنا في مسألة الكنز. وكان الجدّ الأكبر قد قال إن "هذه الفتاة سيختارها القدر، وهي ستولد في العقد العاشر بعد وفاتي...". ولا شكّ في أنها اعتبرت نفسها مثل القدر وهي التي تحرّك الخيوط محطّمة الآمال ومهيمنة على العائلة التي لا يمكن رجالها إلّا أن يكونوا غائبين.

بدا والدي أكثر هدوءاً عند عودته من المقبرة. دنا من أمّي ووضع يده اليمنى على رأسها وقبلها. وتراجع ثم جاء وجلس بقربي، وقد استيقظت للتوّ. فضمّني إليه وشدّ بقوة وبكى طويلاً. وتفوّه بكلام ما لكن شهقاته عوّقت فهمي ما أراد قوله. بكى حياته وحكى لنا مراحل قصّته، رجل بسيط منحدر من فرع فقير في القبيلة اضطرّ إلى الهجرة

إلى فرنسا وهو في العشرين من عمره، لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يدرك من الإسلام إلا بعض الآيات القرآنية والصلوات، رجل متواضع لا طموحات كبيرة له، رأسماله الوحيد هو قوّته البدنية وممتلكاته الأثمن على قلبه، أي ولداه وزوجته. لم يعرف من فرنسا سوى جدران المعمل والحجرة التي كان يتشاركها مع تسعة مهاجرين. فبين ليلة وضحاها وجد نفسه مهجّراً من قرية لعنتها السماوات إلى قرية أخرى لا يعرف فيها الناس ولا الأشياء. عاش وهو يفكّر فينا وعمل كيلا ينقصنا شيء. لقد وهبنا الحياة، ووجد حياته فينا. وحالياً باتت حياة تافهة، ينقصها إدريس.

واتُّخذ القرار، لن نبقى في هذه القرية، نحن أيضاً سنهاجر، نرحل إلى فرنسا لبناء حياتنا هناك بالقرب منه وفي ظلّ حمايته. وقد قام بالخطوات اللازمة، فأعدّ الأوراق ووجد المسكن وباع الماشية والأرض وأوكل رعاية جدّتي إلى بعض الأقارب وترك أخته تموت من الوحدة والإهمال.

تغيّر والدي حتى بتّ كأنّي لا أعرفه. أصبح رجلاً حيوياً يتّخذ قراراته بسرعة ويطبّقها. فقد بسمته لكن لم يفقد القوّة على الاستمرار في العيش بالرغم من المأساة. لقد هزّه موت إدريس لدرجة أنّه اكتسب طاقة جديدة. لم يعد رجلاً منقاداً ومهزوماً ومؤمناً بحتميّة القدر ينجز الأعمال من دون تفكير، حتى ليمكن القول إن الحياة طرقت بابه وأعطته فرصة جديدة. وقد ظلّ بالطبع أمّياً، مثلي، لكنّه صار يعرف كيف يتدبّر أموره في دهاليز الإدارات. يعرف الأوراق الرسميّة من ألوانها ومن رموز حدّدها كمعالم لها. استعان بخدمات طالب التقاه

في الباص، يدفع له ليملأ الأوراق ويرشده. وفي غضون أسبوع بات ملفّ جوازات سفرنا جاهزاً، فلم يبقَ إلّا التأشيرة من فرنسا التي لم يتأخّر في إرسالها إلينا. ولم يكن لأمّي أن تعترض على هذا السفر على عجل. كانت تبكي في سرّها لأنّها تخاف المجهول. وسألت والدي إن كانت هناك عائلات بربريّة يمكنها أن تتكلم معها، فردّ بالإيجاب من دون تحديد. أحسّت أمّي أنّها تُقتلَع من هذه الأرض التي لم تغادرها قطّ، لم تكن تعرف حتى القرية المجاورة، وأنها تقوم بقفزة في الفراغ حتى وإن طمأنها والدي. وبالنسبة إليّ كانت قفزة في المجهول لكنّها أفضل هديّة تقدَّم لي. إنّها المغامرة. كان عندي الفضول للتعرف إلى أماكن أخرى وكنت على سعيدة جدّاً لمغادرة القرية بماشيتها وأشجارها ومزارعها والعمّة... كنت فرحة لكن حزينة في الوقت نفسه، مثل والدي. كنّا في حداد مكتوم، وفي أعماقنا من الحزن ما يكفي لجعلنا ندفن أنفسنا تحت التراب. ومع ذلك فهذا الحزن نفسه هو الذي أمدّنا بطاقة جديدة للعيش.

عاد والدي في الصيف ليصطحبنا. لم يحمل معه متاعاً، جاء بسيّارة طويلة يقال لها "فاميليال". ارتاح نهاراً واحداً ثمّ ملأ صندوق السيّارة ببعض الأغراض. وأضحكتنا والدتي عندما أرادت أن تحمل معها كانون النار والفحم، فقال لها والدي:

- كلّ هذا لم يعد يلزم. هناك سيكون لك موقد على الغاز، وبرّاد وكهرباء وماء بالحنفيّات، وحتى سيكون لك جهاز تلفزيون أفضل من جهاز البقّال... وهناك حتى وإن اشتدّ البرد وكان العمل قاسياً، نجد الحضارة!...

الحضارة! ما تزال هذه الكلمة تطنّ في أذني حتى اليوم مثل كلمة سحريّة تفتح أبواباً وتوسّع الآفاق أكثر فأكثر وتغيّر الحياة وتمنحها القدرة على أن تكون أفضل... لكن كيف يمكن اجتياز هذا الباب من دون إجادة القراءة والكتابة؟ فطرحت السؤال على والدي:

- عند وصولنا تلتحقين بالمدرسة. لم يفت الأوان بعد، أنتِ في العاشرة والنصف من عمرك سيقبلونك في مدرسة لهذه الحالات، وبما أنك ذكيّة جدّاً ستتعلمين بسرعة.

لحظة مغادرتنا خرجت عمّتي من غرفتها وهي تبكي، وقد حلّت شعرها وارتمت على قدمي أبي وقبّلت حذاءه طالبة الصفح:

- عفواً، أنا بريئة، لم أقترف شيئاً، لست سوى امرأة مسكينة وحيدة هجرها زوجها الكاذب، لا أحد يحبّني، وأنتَ أخي، من طينتي، فلذة كبدي، أطلب منك الصفح. خذني معك ولا تتركني ها هنا، ارأف بي، سأموت، لا يحقّ لك أن تتخلّى عن فردٍ من أسرتك وقبيلتك. سيعاقبك الله إن تركتني... صدّقت زوجتك ولا تريد أن تنصت إلى أختك... لقد مرض إدريس لأنّه نزل ليلاً في البئر... صعقه الجنّ... كانت ليلة مقمرة وأنت تعرف أنّه لا يجوز ذلك في ليلة البدر... إنّها الحقيقة وما بقي ليس سوى نميمة، ستُبتلى بمصائب أخرى... توقَّ نفسك... وتذكّر كلام الأجداد ووصاياهم: "كلّ من يغادر أرضه هو رجل ضالّ... ومن يقتلع جذور أصوله يستنزل عليه اللعنات..."

ظلّ والدي جامداً. لقد أصمّ أذنيه عن لعناتها. ومن مقعد السيّارة الخلفي أعجبت بموقفه. من قبل أحببته كما يُحبّ الأب الغائب،

أمّا الآن فأنا معجبة به. شرد نظره في البعيد وانتظر نهاية التمثيليّة. وعندما أدركت أنّه لن يتزعزع، أسرعت إلى غرفتها وأتت منها بقربة كاز وسكبتها على نفسها:

- سأموت وسيتعذب ضميرك بهذا الموت طول حياتك!

عراه الخوف لحظة. وفيما هي تصرخ وتشدّ شعرها كانت تراقب بطرف عينها ردّة فعل والدي. وحاولت أن تقدح عود ثقاب، لكنّ العلبة كانت مبلّلة. لم تتمكّن من إضرام النار في ثوبها. وفي هذه اللحظة بادر والدي إلى تصرّف شجاع ومجازف إذ أخذ من جيبه ولاعة وناولها إيّاها. رفضت أن تمسكها. فركب أبي في السيّارة، رجع بها قليلاً وانطلقنا.

بثوبها الممزّق وشعرها المنفوش ووجهها المعفّر بالتراب راحت تطرق رأسها بالأرض لاعنة البشريّة جمعاء. وفيما نحن نبتعد شاهدناها تتضاءل إلى أن أصبحت كومة صغيرة ضائعة بين الحجارة.

في السيّارة لذنا جميعاً بالصمت، فيما والدي يقود وهو يتصبّب عرقاً. فقد آلمه أن يتخلّى عن أخته حتى لو كانت أخته وحشاً. لم يكن له الخيار بعد أن اكتشف أنّها خطرة وأنّها تفقد صوابها.

– ٥ –

بلغَنا في ما بعد أنّها جُنّت. فبعد فترة من رحيلنا غادرت القرية سيراً ونزلت إلى المدينة حيث لجأت أولاً إلى أحد المساجد ثمّ إلى مقبرة المدينة. وكانت تكسب عيشها بتقديم خدماتها كساحرة زاعمة أن عندها مسحوق دماغ ضبع تبيعه بسعر غالٍ على أساس أنّه فعّال جدّاً في إلقاء السحر وتعقيد الفكاك منه.

عندما كانت تتسوّل عند باب الخروج من المسجد آوتها امرأة عرضت عليها أن تعمل عندها. كانت عائلة مهمّة في مدينة أغادير، الزوج تاجر مهمّ والأولاد يذهبون كلّهم إلى المدرسة والزوجة لا عمل لها فينتابها الضجر. وكان عندها خادمة لتدبير المنزل وأخرى للطبخ. أثار قدوم خدّوج، كما سمّت نفسها، غضب الزوج. وقال صراحة إنّه "في حضورها يشعر بالانزعاج" وتعابير وجهها لا توحي بالثقة. أثناء الجدال تمسكت وجمعت صرّة أمتعتها واعتذرت إليهم عن هذا التطفّل غير المقصود، وكلّمتهم بصوت ناعم:

– أنا آسفة وأشعر بالخجل لأنني تسبّبت بهذا الصخب في بيت ناس من أهل الخير. أنا أتيت من مكان بعيد واعلموا أنني امرأة

تخلّى عنها زوجها الذي هاجر إلى فرنسا حيث بنى حياة جديدة. ترك لي خمسة أولاد ولا يرسل لي فلساً واحداً. وقد اضطررت إلى ترك أولادي عند أمّي المسكينة وأسعى لكسب بعض المال فقط لأطعمهم. إنّها الحياة، تغدق الكثير على البعض وتسلب آخرين حتّى أولادهم. أقترح عليكم أن تجرّبوني لمدّة أسبوع وبعدها تتّخذون قراركم بكلّ حرّية. حماكم الله وزاد رزقكم...

بصوتها المتملّق ورأسها المنحني نجحت في إقناعهم بإبقائها.

ولم يمضِ الأسبوع حتى كانت تتآمر مع الزوجة على الزوج. إلا أنّ هذا الزوج الفطن والمحنّك عمل بحسب انطباعه الأول وصرفها من دون أيّ حرج حتى إنه لم يترك لزوجته فرصة الاعتراض أو الدفاع عنها. ومجدّداً عادت خدّوج إلى الشارع شاحبة الوجه حائرة في ما تفعل. وبدأت رغبتها في العيش على الشرّ تضعف وتتحطّم. باتت وحيدة لا أحد حولها لتسيء معاملته. فراحت تجوب الشوارع تتكلّم وحدها مُلوّحة بيديها موبّخة المارّة:

"أنتَ يا من تهرول في هذا الزقاق المسدود توقّف وأنصت إليّ. أنا المولودة الأخيرة في عائلة أولياء. أحد أجدادي خبّأ في الجبل كنزاً..." ثمّ تصمت فجأة، تفكّر قليلاً وتركض مسرعة إلى محطة الحافلات عند طرف المدينة حيث ينتظر أناس الحافلة وآخرون ينتظرون وصول مسافرين، وأخيراً أناس لا ينتظرون شيئاً ولا أحداً، يمكثون هناك طيلة النهار كأنهم شهود على الزمن ومعالم للشمس، مستعدون لكلّ عمل... يروحون ويجيئون ثمّ يجلسون على الأرض مسندين ظهورهم إلى الجدار وأياديهم فوق عيونهم

احتماءً من الشمس أو لتثبيت رؤوسهم التي توشك أن تقع. أناس لا ارتباطات لهم ولا مهنة محدّدة. يملأون الساحة ليضفوا عليها مظهراً حيويّاً وإنسانياً. كانوا مستعدّين لكلّ شيء يعرضون زنودهم لنقل أيّ شيء كان. بعضهم يحمل الموتى والبعض ينقلون المعوّقين على ظهورهم يقومون بجولة بهم في المدينة لأنهم يضجرون ولا يملكون سيّارات صغيرة. وآخرون منهم يبيعون هواءً. يجلسون وراء طاولات واطئة يلفّقون ذكريات لمن لا ذكريات لهم أو للذين نسوها، حتى إن أحدهم كتب على سبّورة طلاب معلقة على الحائط: "بيّاع ذكريات صحيحة، حديثة، حقيقيّة، يمكن التحقّق منها". لم يكن عنده الكثير من الزبائن. ليست الذكريات سلعة غذائية نادرة في هذا البلد لكن يجدر القول إن تجارة الذاكرة هذه في أغادير كانت على شيء من الازدهار. فبعد الزلزال فقد بعض الناجين ذاكرتهم، ثمّ هناك أولئك الذين لم يعيشوا تلك الليلة المروّعة وهم عند زيارتهم أغادير يطلبون أن تروى لهم بالتفاصيل وقائع هذا الحدث المأساوي على لسان باعة الهواء هؤلاء الذين يقدّمون أنفسهم على أنهم "متنوّرون عفت عنهم الجدران في سقوطها".

اقتحمت عمّتي هذه الساحة العامّة لا لتحيي ذكريات دفينة أو منسيّة، بل لتروي مغامرتها. فهي تتمتع بحسّ التلاعب والإخراج، تعرف أين تتموضع وكيف تسترعي اهتمام الجمهور. وعندما بدأت تحكي قصّتها الخرافية وغير المكتملة عن الكنز المخبّأ في الجبل أحاط بها جمهور غفير مشدود إلى القصّة وسخيّ. الحكايات من شأن الرجال، لذلك سارع الناس لسماع هذه المرأة التي خرجت من

العدم لتزرع الأحلام في نفوس الرجال والنساء الذين قبلوا الدخول في اللعبة:

"إنها قصّة الكنز المخبّأ في الجبل. ولا يكون اكتشاف المخبأ وفتحه بواسطة مفتاح معدني. لقد قرّر أجدادنا أن فتاة تأتي وفي يدها اليمنى القدرة على إيجاد المكان وعندما تلمس الأرض تنزاح الحجارة إلى أن ينكشف صندوق موصد بقفل من ذهب. وتكون هذه البنت طاهرة... ولطالما اعتقدت أنني أنا تلك الفتاة... (يعلو الضحك بين الحشد). تسخرون منّي لأنّني لم أعد شابة، لكن احترسوا من النساء اللواتي خدعتهنّ الحياة. ليست يدي مؤهّلة لإيجاد الكنز، لكنّي أتمتّع بموهبة القراءة في أعين الآخرين، يمكنني أن أقرأ الماضي وأحياناً المستقبل... لكن لهذه الخدمة يجب الحضور إلى حجرتي... هاكم... أنتَ المذهول هناك، زوجتك ممسوسة... هي تفقد دماً وأنتَ تفقد عقلك. تعال لرؤيتي أعطك ما يلزم ولا تدفع إلّا في ما بعد... قصّة الكنز هذه جنونية، وهي تستحوذ عليّ حتى وإن لم يعد أحد في أيّامنا هذه يصدّق حكايات هؤلاء الشيوخ الذين لا يعرفون ماذا يتدعون لكي يسكتوا الإذاعة!

أنا امرأة الصخر والطين، حياتي مسيرة كدّ طويلة، تعشق أقدامنا الدوس على الصيصان والعنب قبل نضوجه، لست عطوفاً لأنّ الحياة كذلك، كلّ تجعيدة فيّ ثلم سال فيه دم الآخرين. لست وحشاً بل مرآة، مرآتكم حيث لا تحبّون النظر إلى أنفسكم. أنا انعكاس مخاوفكم وريَبكم. كلّفني الموت بكل آلامكم. إن كنت جميلة فبفضلكم وإن كنت قبيحة فذلك لأنني قريبة جدّاً من أفكاركم... لأنّها فاسدة،

أفكاركم. تظنّون أنكم في منأى عن القمر بدراً وعن رياح الكثبان، لكنّكم مخطئون. هاكم، أنتَ هناك، أنتَ فتيٌّ وجميل وتحلم بالنوم ورأسك بين ثديَيْ أمّك... إنّها الحقيقة ولا يمكنك أن تنفيها... أنا لم يعد عندي ثديان، جَفّا، يبّسهما الانتظار، وبطني منفّس، فارغ لم تنشرِ فيه أيّ نسمة حياة. استغرقت وقتاً طويلاً لأستوعب ذلك ثمّ اخترت أن أكون الذراع الطويلة التي تمتدّ فوق الحقول وتحصد أولاداً لم يتجاوز طولهم علوّ سنابل القمح. أكره السكّر والعسل، لا أستطيب سوى البهارات وفلفل أفريقيا... لا أحبّ إلّا عضّة الحيّة وصهيل الخيل المجنون الحادّ.

يا أبناء اللاشيء! صدّقتم طويلاً أسطورة "الخير" الذي تكافأون عليه في الجنّة! لقد سخروا منكم! افعلوا الخير إن لاءمكم، لكن اعلموا أنّه أمر مبتذل، دبقٌ، لزج مثل العسل الذي يلتصق بأصابعكم ويمنعكم من سحق الدبور الذي يلسع لسانكم ويميتكم على الفور.

يا عديمي النفع! ماذا فعلتم في حياتكم؟ كدّستم الحجارة في حديقة تظنّونها سرّية، وعلّقتم الشموع على أغصان الشجر التي تستخفّ بعطاياكم، وأشبعت نساؤكم غرائزكم من دون أن تشكّوا قطّ في أيّ سوء نيّة.

انظروا إلى أنفسكم وتأمّلوا حولكم! أنتم مخنّثون ولا تحبّ النساء الأجساد المترهّلة. كم من المظالم تُرتكب يوميّاً أمام أعينكم ولا تفعلون شيئاً. أولادكم يمشون حفاة مجوّلين حول الفنادق مثل الشحّاذين وأنتم لا تدرون حتى بذلك.

لا تطلبوا منّي أن أساعدكم فأنا لا أؤمن بالخير. طاقتي وقوّتي وقناعتي هي كلّ ما أملك، واعلموا أنّ ما تسمّونه "شرّاً" يساعدني على العيش وعلى تحمّلكم... لن أحكي لكم قصّة الكنز المذهلة والغبيّة. لست هنا لكي أنوّمكم، والحياة لا تسامح. لقد تعبت من حمل كلّ بشاعاتكم على وجهي، ورأسي يتثاقل يوماً بعد يوم. هيّا اذهبوا واشتغلوا، أزيحوا الحجارة وإن لم تُوفّقوا بعمل اسلبوا وانتزعوا من الغير ما تحتاجون إليه... لكن لا تتسوّلوا ولا تدعوا أولادكم يمدّون أيديهم إلى الغريب..."

لم يعرف الحشد الكبير كيف يتفاعل معها. رأى البعض أنها محرّضة والبعض الآخر أنّها مجنونة فرّت من المصحّ. أمّا الشرطة التي لم تلبث أن اقتحمت هذا التجمّع غير العادي فقد اعتبرها مثيرة للفتنة الطائفيّة ويجب استنطاقها بكلّ جدّية.

كان هناك بالتأكيد مخبرون للشرطة مندسّون بين الجمهور، فنقلوا كلامها بشكل مشوّه غير مترابط. فوصفتهم بـ"الجواسيس الفاشلين" وعرضت على المحققين معها فلسفتها في الخير والشرّ، بمنتهى التبسيط. لم يأخذوها على محمل الجدّ وهو ما أخرجها عن طورها، فنهضت وصاحت بهم:

– بما أنّكم عديمو الكفاءة مثل مخبريكم أطالب بالتحدّث إلى رئيسكم، عندي أمور أشدّ خطورة أعترف بها له.

قدم مفوّض الشرطة وعلى وجهه ابتسامة خفيفة ساخرة. ثلاثينيّ، ليس ضخماً، مزروك قليلاً في بزّته الثلاثية القطع البنّية الداكنة. فراحت تعطيه ملاحظات على ثيابه:

– ربطة العنق السوداء هذه تزيدك كآبة... زوجتك لا تحسن الاهتمام بك.

ردّ عليها بصفعة فانفجرت ضاحكة:

– بالتأكيد تظنّ أنّك صفعت امرأة... أيّها التعيس... أنتَ اعتديت على من يقع البلاء عبرها. أنت لا تعرف أنّ الموت يستشيرني دائماً ويمكنني أن أوجّهه... لا أوفّق دائماً لكن تسير الأمور أحياناً. أنا من أصل منحطّ، أنا خطأ وما كان يجب أن أولد في هذا العالم. كان يجب أن أبقى حيث كنت، في درك بعيد الغور، أفعى بين الأفاعي، طير جارح بين الجوارح. أنا لست قبيحة، أنا شدق مفترس وحسب.

– حسناً بمَ تريدين أن تعترفي؟

– قلت لك إن بين الموت وبيني عهداً أقامته الظلمة. أنا... كيف أقول ذلك؟... لا أعني مجرمة بل جلّادة في خدمة الموت.

– هل سبق أن مات أناس على يدك؟

– نعم، حتّى إنني قضيت على ولدٍ بريء. لم يفعل لي شيئاً. لكن أردت إنزال الشقاء بمن يحبّونه. حدث هذا أخيراً. يمكنك التحقّق من ذلك، هو مدفون في مقبرة قريتي. كبكوبة من اللحم المفروم مع السمّ كانت كافية. وفي هذا الحالة أقرّ بأنّ الأمر كان من باب الثأر الشخصي. حساب أسوّيه مع شقيقي، ليست استشارة قدّمتها للموت. خطّطت لكلّ شيء وحدي، وهذا طبيعي، فأنا مهيّأة لذلك كما أنت مهيّأ لتلبس بذلات ضيّقة تظنّ أنها تعطي حياتك قيمة.

– على افتراض أنك تقولين الحقيقة، فلماذا اخترت ولداً لا حول له ولا قوة.

- يبدو أنّك لا تستحق أن تكون قائداً، أنت لا تفهم شيئاً عن الشرّ. اسمعني جيّداً: إذا ما أضرّ أحدهم بشيء عزيز على قلبك أو منعك بتصرّفه أو حضوره من تنفيذ مخطّط فهناك طريقتان لتنتقم منه. الأولى سهلة ورائجة لكنها ليست مفيدة جدّاً، وهي أن تقضي عليه. أمّا الطريقة الثانية فهي أشدّ مكراً، تلحق به الأذى لكن الأذى الفعلي عندما تهاجم شخصاً عزيزاً جدّاً عليه. وفي كلّ أسرة ليس هناك من هو أعزّ من الصبي الأوّل. الأمر بسيط، وبذلك أنا أتمتّع بانتقامي، أجد أنّه يفعل فعله. فأنا لست مدمّرة وحسب بل المستمتعة بتأمّل النتائج. وأنت، ما أنت؟

- أنا رجل السلطة تدفع لي الدولة لكي أعتقل من تسكنهم الرذيلة والشرّ وأعطّل أذاهم. ودوري أن أسلّمهم إلى العدالة لتقوم بما يلزم. لكن قبل ذلك سأعرضك على طبيب... أكاد أقول طبيب أرواح، لكن هل عندك روح أنت؟

- روحي بلون بذلتك القاتم. بالتأكيد عندي روح لكن من الأفضل عدم رؤيتها عن كثب... ليست جميلة... أفسدها محيطي... وهي في حالة حداد تحتاج إلى من يواسيها، لكن أنت ليس عندك ما تعطيه. في صغري كنت ألتقط عصافير الدوري وأدقّ أعناقها. كنت أتمتّع بذلك. وعندما أسير أسحق الأزهار والنباتات والحشرات، حتى إنني أعتقد أنني ولدت بسنّين في فمي، وكما تعرف هذا دليل شؤم. حكت لي أمّي أنها تناستني يوماً على حافة بئر على أمل مرير بأن تراني أسقط فيه. كلا، لم أسقط. لم تتجرّأ أمي المسكينة على التخلّص منّي فعلاً. كنت سبب معاناتها. أمّا أبي فلم يحسبني يوماً من أولاده.

كان يتجاهلني ولم أشعر بالتعاسة. أعطاني هذا النبذ قدرات وحرّرني. وتصرّف أخي البكر مثل أبي، لا وجود لي في نظره. وحاليّاً هو لا يعرف أنني موجودة وحسب، بل أنني أتصرّف أيضاً.

نعم سيّدي روحي هي منبع الظلمات. تعتزم أنت والشرطة والقضاء والديانة أن تسجنوا روحاً لم تشهد قطّ شيئاً آخر غير الجدران السود والرطبة في سجن أبدي. لا يرعبني هذا. أنا ألفت العزلة والوحدة والكراهية. إلّا إن حكمتم عليّ بما هو أشدّ...

- لا أعرف كيف ستبتّ عدالة البشر بمصيرك. لكن يمكنني أن أقول لك ما طبيعة السجن عندنا، خصوصاً لمجرمين مثلك. فإن كانت ولادتك خطأً كما قلتِ فهذا ما ستحقّقين منه فعلاً. زنازيننا ملؤها الرطوبة والقذارات، مبنيّة فوق المجارير، تغزوها ليلاً الجرذان والمناجذ، وعبثاً تصرخين فالجدران سميكة ولن يسمعك أحد. وحتى إن سمعوك فلا أحد مستعدّ لنجدتك!

وقف الرجل مشمئزّاً أشدّ الاشمئزاز، غسل يديه ونادى عنصرين.

فقدت عقلها حتى قبل محاكمتها. ونُقلت إلى مصحّ المجانين وماتت بعد عدّة أشهر مقيّدة بسلاسلها بعد أن هشّمت رأسها. هذا أقلّه ما رُوي لنا. وفي الواقع، إنّ جارتها في الغرفة هي التي ماتت بسلاسلها، أمّا هي فقد تمكنت من الفرار بالتواطؤ مع إحدى حارساتها وعادت للإقامة في القرية. وعلى مدى سنوات لم يُسمع شيء من أخبارها. عاشت في كوخ قديم تحوطه الكلاب، تبيع سرّاً منتجات لأعمال السحر.

-٦-

وصلنا إلى باريس مع الفجر. كانت السماء رماديّة والشوارع أيضاً كأنّها طُليت باللون الرماديّ، والناس يسيرون بخطى ثابتة وعيونهم إلى الأرض وثيابهم داكنة. والجدران منها الأسود ومنها الرمادي. الطقس بارد. رحت أفرك عينَيّ لأرى جيّداً وأسجّل كلّ شيء. لو كان أخي معنا لسأل بنبرته الطفولية: "هل هذه هي لافرانس؟". فكرت فيه وأنا أكتشف هذا البلد الذي سيصبح موطني الجديد. كنت أنظر إلى الجدران والوجوه وعليها كلها مسحة الكآبة نفسها. رحت أعدّ نوافذ البيوت العالية، وضعت في الحساب. هناك الكثير من النوافذ والكثير من البيوت بعضها فوق بعض. كانت شاهقة لدرجة أنّ نظري تاه في الغيوم، وأصبت بالدوار. وتدافعت عشرات الأسئلة في رأسي. أنساها وتعود محمّلة بالأسرار والتلهّف. لكن على من أطرحها. أعلى والدي المنهك الذي لا يمكنه أن يردّ على حشرية فتاة تكتشف ملء عينيها منذ مطلع الصباح عالماً لا تفهم منه شيئاً بكلّ معنى الكلمة؟

أثناء الرحلة لم يفُه أبي بكلمة. توقفنا مرّتين على حافة الطريق لتناول الطعام. أمّي لم تتكلم أيضاً. أحسست أن هذه الرحلة هي فرار. كان

والدي، الحذر عموماً، يقود بسرعة كأنّ هناك جيشاً خفيّاً بقيادة عمّتي يلحق بنا أو يطاردنا. وأنا تمتّعت بهذه السرعة. وما إن أغمض عينيّ حتّى يتراءى لي وجه إدريس مبتسماً أو باكياً كأنه يلومنا لأننا تركناه في القرية، فأبكي بصمت، وأعرف أن نفس التخيّلات تراود والديّ. أمّي لم تنم وقد تسمّرت عيناها على والدي وهو يشرق بدموعه.

أركض نحو أخي وهو يركض نحوي لكن لا نتمكن أبداً من اجتياز المسافة الفاصلة بيننا، وعبثاً كان تسريعنا الإيقاع، نجدنا لا نتقدّم، أصرخ، وليس من يسمعني. يجري ذلك في حقل مكشوف تحت شمس باهرة وضوء ساطع، لكن أقدامنا تبقى مسمّرة في الأرض وصراخنا مخنوقاً تبتلعه الشمس فلا يكاد يُسمع.

كان جميلاً معافًى وخصلة شعر سوداء تغطي عينيه. يركض ويركض ثمّ يقع خائر القوى. أطلق صرخة ويتوقّف كلّ شيء. يضغط والدي بسرعة على المكابح، يضمّني ويبكي معي. وعلى مدى أشهر ظلّ هذا الحلم يعاودني كلما ركبت السيّارة.

استقرّ بنا المقام بسرعة، ساعدتنا عائلات مغربية أخرى إضافة إلى السيدة سيمون التي أوفدتها دار البلدية لكي تسهّل الخطوات الإدارية.

كانت السيدة سيمون، الكبيرة القامة الممتلئة الجسم والدائمة الابتسام، ساحرتنا برقّتها وصديقتنا. في البداية حاولت كمساعدة اجتماعية أن تُفهمنا وظيفتها ودورها لكن بالنسبة إلينا كانت ملاكاً من الله أرسلها لتستقبلنا في هذه المدينة حيث كلّ الأمور صعبة. كانت تعرف بعض الكلمات العربية لأنها كما أخبرتنا عاشت وعملت في مدينة بني ملال.

أما أنا فلم أتجاوب، ولم أتكلم إلا مع والديّ. لغتي هي البربرية ولم أكن لأدرك أن هناك حكياً آخر للتواصل. ومثل كل الأولاد كنت أحسَب أن لغتي الأم عالمية. ظللت متمرّدة وعدائية حتى لأنّ الناس لا يجيبونني عندما أكلمهم. وكانت السيدة سيمون تخاطبني ببعض كلمات عربية بدت لي غريبة بمقدار تلك التي تنطق بها في لغتها، فأقول في نفسي إنها لا تحبّني لأنها لا تخاطبني باللغة البربرية. وعندها أبصق وأصرخ وأرمي الأشياء حولي.

لم أكن مدلّلة ولا صعبة المراس، لكن طالعتني فجأة أمور جديدة وأردت أن أفهم. وانتابني إحساس بأنني أصبحت بين يوم وآخر صمّاء خرساء، مهملة، تجاهلني أهلي في مدينة كل ناسها لا يعبأون بي، ولا أحد ينظر إليّ ولا يكلمني. ربما أصبحت شفافة وغير مرئية ولون بشرتي الأسمر جعلني أتماهى مع الشجر. أمضي ساعات بجانب شجرة ولا أرى أحداً يتوقف أمامي. صرت شجرة، أو قل شجيرة بسبب صغر قامتي وهزالي. أصلح أن أكون فزّاعة طيور. لكن ليس هناك حقول قمح ولا حتى عصافير، بل الكثير من طيور الحمام لكنها مترهّلة وبليدة لدرجة أنّ جنسها يخجل بها!

أحببت كثيراً مراقبة مرور السيّارات، فأتنشّق بقوة الغازات التي تنفثها محاولة التشبّع من عطر المدينة هذا الجديد والمسكر جداً بالنسبة إلى راعية نشأت في الهواء النقيّ. أمضي النهار وأنا أعدّ السيّارات وأغفو من التعب على المقعد. لم أعد أرعى البقرات لكنّي استمررت في القيام بنفس الحركات حتى وصل بي الأمر إلى اعتبار السيّارات بقراً مذعوراً يفرّ في كل الاتّجاهات. وعبثاً انتظرت ظهور فارسٍ يعزف الموسيقى

بجانبي. تحتجب المدينة أمام ناظري وتختلط عليّ كل الأمور. الوقت أولاً فلا أميّز بين النهار والليل، أنام في أيّ وقت وأفيق عندما يكون الآخرون غارقين في نومهم. افتقدت الصباحات ولم أتمكّن قطّ من استعادتها. كلما فتحت عينيّ أجد الليل أو آخر النهار. وأوضح لي والدي أنّ النهار في هذا البلد يقسَّم على ساعات بينما في القرية لا نعرف إلّا شروق الشمس وغروبها. وعلمني كيف أميّز الأوقات على ساعة يد:

- هنا تحضّر أمّك الفطائر، إنها الساعة السادسة، هنا أنت تخرجين الماشية، إنها الساعة السابعة، هنا تكون الشمس فوق الرؤوس، إنها الثانية عشرة ظهراً موعد الصلاة الثانية، هنا موعد الغداء تكون الساعة الواحدة، وهنا صلاة العصر إنها الساعة الرابعة، وهنا موعد العودة بالماشية ولحظة غياب الشمس، هنا ساعة العشاء وما بقي هو الليل...

وترك لي ساعته فأمضيت النهار أتعلّم معرفة الوقت. وحدّدت المواعيد بطريقتي بحسب مغادرة والدي للعمل وعودته. لكن الأمر تعقّد لأنه ظلّ على مدى أسبوع يغادر عندما تكون الشمس فوق رأسي ويعود متأخرّاً في الليل. في الأسبوع الماضي كان العكس، يغادر متأخراً في الليل ويعود عندما تكون الشمس فوق رأسي. ولم تكن الشمس مناسبة كرفيق، إذ نادراً ما تظهر. لكنني أحببت الغيوم كثيراً، كانت كثيفة وسوداء، بسماكة قلبي وبلون أحلامي. عندنا في القرية عندما تظهر الغيوم تكون على عجل، تسقط أمطارها أو تتبدّد بسرعة. ولا تهطل الأمطار في أيّ وقت كان. أما هنا فهي غالباً ما تأتي لتغسل الجدران والشوارع. تأتي بلا إنذار ولا أحد يحتفي بها.

في غضون أيام انكشفت لي كل أسرار الوقت، صرت أقول كم

الساعة لي وللآخرين. ويحدث لي أن أنبّه المارّة باللغة البربرية: "إنّها ساعة العودة بالماشية!". رأيتُني ساعة حائط مهووسة بالدقة. احتفظت بساعة والدي الضخمة وكلما انتقلَتْ من ساعة إلى أخرى أهتف: "ننتقل الآن من الثالثة إلى الرابعة".

بعد الوقت بات عليّ أن أنظّم الضوضاء الضاغطة عليّ من كلّ مكان ولا تتوقّف أبداً. كنت أعرف أنّ من المستحيل أن ننعم بالسكون والهدوء وصفاء الطبيعة العظيم، لكنني أصررت على أن أعرف مصدر هذه الأصوات وكان عليّ أن أحدّدها وأتآلف معها وإلّا انفجر رأسي. أقف عند الشباك وأصيخ بأذني فأميّز أصوات السيّارات والباصات والشاحنات. أحببت كثيراً صفّارات سيّارات الإسعاف. وفي المقابل كانت هناك أصوات آلات الحفر في الأرض التي لا تُحتمل ولم أستطع التآلف معها، فهي شاذّة رجراجة لا متناهية.

افتقدت بالطبع تغريد الطيور وصراخ الأولاد لدى خروجهم من المدرسة القرآنيّة، وإيقاع آلة الحصاد ونداءات المزارعات وأغاني الحنين...

أمّي تأكّلها الحزن وغرقت في كآبة دائمة وصامتة وضبابية. لم تشغل نفسها بالتكيّف وواصلت عملها داخل المنزل كالعادة من دون أن تضطرّ إلى مغادرته ولا إلى مواجهة العالم خارجه. حتى إنّها لا تقف على الشبّاك. تطهو وتغسل وترتّب وتنظّف وتأكل قليلاً، لا تطرح الأسئلة، وباللامبالاة نفسها تترك الأمور على مجراها والحياة الجديدة تكرّ نهاراتها ولياليها. وفي سائر الأوقات تصلّي سائلة الله أن يحمي زوجها وابنتها من العيون الشرّيرة ومن أهل السوء والحسّاد

والخبثاء. جميلة كانت بفستانها الأبيض، لباس الحداد. لا تضع مجوهرات ولا تتبرّج. لقد أمدّها موت إدريس بالمزيد من الصفاء والشجاعة، فلا يجوز الانتفاض على مشيئة الله، فالواجب هو أن نتقبّل ونبكي عند الضرورة.

كان يحلو لي أحياناً، كما في صغري من قبل أن ألقي رأسي على ركبتيها فتروح تداعب شعري كأنّها تنقّيه من القمل وتشدو بهدوء قصيدة حبّ:

قلبي انفطر
من نظرة عينيك جرحي
يدي أطبقت على مفتاح القدر
يا حياتي أنت
ليأخذني الله في حياتك
لكن الله أخذك من حياتي
أيا دمي الممزوج اليوم بالتراب
ويا عيني المنطفئة اليوم في البئر
قلبي انفطر
بلسمة يدك الصغيرة
يا فلذة كبدي
ويا قرّة عيني
تغتذي الأرض بك
وأنا أبكي فوق حجر
بين الكثبان والشمس...

تركت أمّي روحها كلّها في القرية. وما زال الوهن يصيب جسمها ويبقى نظرها دائماً مركّزاً على نقطة بعيدة توصل إلى قبر إدريس. أصبحت كالشبح في النسيان المستحيل الذي يتأكّلها. واستشعرتُ لحظة سقوطها وغرقها في نوم عميق وخطير. حاولت أن ألومها، أن أكلمها. انقلبت الأدوار، البنت تواسي الأم وتقصّ عليها الحكايات لكي تغفو، لتعلمها النسيان والعيش من دون إدريس. كلّ غايتي أن أكون الأمل والنجاح، شعلة الحماسة والضحكة:

"اسمعيني يا أمي! لقد تعلمت معرفة الوقت وتآلفت مع الضوضاء. بقي عليّ أن أتعلم الفرنسية وسترين، سأصبح طبيبة أو مهندسة، سأكون مصدر سعادتك وبهجتك وفخرك. بي رغبة في أن أعرف كلّ شيء. أنا أيضاً سأذهب إلى المدرسة، أتعلّم الحساب والكتابة، وأتعرّف إلى المدينة والآلات. في القرية لم يكن يحقّ لي أن أذهب إلى المدرسة القرآنية لأتعلم القراءة والكتابة، لأنّ البنات يُتركن للحقول والمزرعة. لم يعد هنا من حيوانات ولا حقول ولا مزرعة ولا مدرسة قرآنية. هنا يا أمّي البيوت بعضها فوق بعض والناس يركضون. أنا أيضاً سأبدأ بالركض، يجب أن أتعلم، يجب ان أبدأ المدرسة... ارتحنا من الفقية الكفيف بعصاه المروّسة للأذى. كنت أرميه بالحصى، لكن هنا لا حصى ولا غبار. إذا ذهبت إلى المدرسة فسأكون منضبطة وأريهم كيف ترقص الأزهار مع الهواء العليل..."

كنت أحبّ تأمّل تأرجح الأزهار، كانت كلها بريّة وناعمة، ولا أحد يقطفها.

-٧-

كنت في الحادية عشرة من عمري أو أكاد. أردت أن أكبر لكي أخوض غمار المدرسة وأتفوّق على معظم الأولاد. كان بينهم قاسم مشترك وهو أنهم تأخّروا في دخول المدرسة. أمّا أنا فلم أكن حتى متأخرة، بل نكرة وافدة من بعيد من جبل شاهق لم تُلفظ فيه يوماً كلمة فرنسية، وإلّا لكانت الحجارة حفظتها وأنا تعلمتها. في اليوم الأول رافقني والدي. التقينا السيدة سيمون الفاضلة عند المدخل حاملة ملفّاً تحت إبطها. عرّفتنا إلى المديرة التي استقبلتنا بابتسامة عريضة وأخذتني بيدي. وفي غضون دقائق انتقلت من عالم إلى آخر. وجدتني وحيدة وشعرت بالفخر. كانت غرفة صفّي في الطابق الأرضي، ولم تكن هناك طاولات بل مقاعد صغيرة حول كومة من المكعبات الخشبية أو البلاستيكية.

كنت الأكبر سنّاً بين الأولاد لكن لم أخجل بذلك. هنا بعكس المدرسة القرآنية يختلط الصبيان بالبنات والمعلم لا يحمل عصا. فتساءلت: "لكن بمَ يضربنا؟". ففي ذهني أن لا مدرسة بدون عصيّ. أضحكني المعلّم، يمشي على الأربع ليشرح لنا كيف نصفّ

المكعبات ونعدّها. تعلمنا الأرقام بالحروف. ووجدت الأمر سهلاً. أعدّ باللغة البربرية، فيطلق ضحكة ويواصل الكلام بالفرنسيّة.

في المساء جاء أبي ليأخذني، كنت منفعلة وحكيت له كلّ شيء. وعندما وصلنا إلى المنزل أخرجت من حقيبتي ثلاثة مكعّبات بألوان مختلفة وقدّمتها إلى أمي:

- هذه لتضعي فيها بهاراتك. تميّزين بسرعة بين الكمّون والزنجبيل...

انتهى يومي الأوّل في المدرسة بسرقة. في اليوم التالي أحسست بالخجل وأنا أعيد المكعّبات.

في اليوم الثاني عضضت ذراع تلميذة إسبانية لأنها أخذت سبورتي.

في اليوم الثالث كنت عابسة الوجه أراقب الآخرين يتعلمون وأنا لا آتي حراكاً.

في اليوم الرابع تعلمت قول الألوان بالفرنسية وفي المساء استعملت الكلمات الجديدة في محادثة أهلي.

بعد شهر صرت أعرف الأبجدية الفرنسية وأكتب اسمي. صار بي شره إلى القراءة. في الشارع لم أعد أنظر إلى الناس بل أحاول أن أقرأ ما كُتب على اللوحات الإعلانية والملصقات. أصبح هذا تمريناً تلقائياً لي. في أيّام الآحاد أطلب إلى أبي أن يصطحبني معه لأقرأ له أسماء المقاهي والفنادق والمحالّ. "كافيه دو لا ميري Café de la Mairie"، "أوتيل دو لا ترّاس Hôtel de la Terrasse"، "تاتي Tati"، "مونوبري Monoprix"، "بوشري هلال (حلال) Boucherie Halal"، "مولان

روج" (هنا كانت الكتابات معقّدة). أقرأ على مسمع والدي الذي يغتبط لاكتشافاتي.

سُرَّت بي السيدة سيمون. كنت أتقدّم وفي منتصف السنة انتقلت إلى الصف الأعلى حيث تركيب الجمل، وغيّرت حقيبتي. لكن جملي كانت جنونيّة، أبدأ بنسخ تلك المدوّنة على اللوح ثم أضيف إليها ما يخطر ببالي من كلمات، أو غيرها ممّا يعجبني وقعها. وتكوّن عندي انطباع بأنّني متأخّرة ومتقدّمة في الوقت نفسه. صمّمت على الإسراع، على "حرق المراحل" كما يقال، حتى وإن اختلط كلّ شيء في رأسي حيث تسيطر فوضى مقلقة، إذ تتزاحم فيه دوماً الكلمات التي أعطيها ألواناً والأرقام التي أرتّبها كيفما كان، وأحسّ دوماً أنّ الوقت يدهمني مثل طاهية تحضّر عدّة أنواع طاجن في آنٍ واحد. خفت أن أزيد من تأخّري، وكنت متعطّشة إلى التعلّم لأصبح ذات فائدة في البيت. وكنت أنتظرٍ بفارغ الصبر أن تحلّ اللحظة التي يعطيني فيها والدي رسالة فأتمكّن من قراءتها.

اشترى لي والدي قاموساً لمستوى الأولاد، وهو هديّتي الأولى. كتاب بصور كُتبت فيه الكلمات بخطّ عريض مشروحة ومزخرفة. حفظت الكلمات عن ظهر قلب من دون أن أفهم معانيها، وإذا ما ذهبت إلى الفرن لم أعد أشير بإصبعي إلى "باغيت" الخبز ولا أعرض المال ملء كفّي المفتوحة، بل أقول مثل كل الناس: "باغتّين اثنتين مخبوزتين جيداً" ثم أفتح محفظة نقودي وأدفع بالضبط المبلغ المطلوب.

صرت أنام والقاموس تحت وسادتي واثقة من أنّ الكلمات ستمرّ

ليلاً من خلالها لتنزل في خانات مهيّأة لترتيبها، فتخرج الكلمات من الصفحات لتأتي وتنطبع في رأسي، ومن أنّني سأصبح ضليعة يوم لا يبقى في الكتاب إلّا صفحات بيضاء. وفي الصباح أتحقّق من سير الأمور. الصفحة الأولى التي ابتلعت كلامها ابتلاعاً هي تلك المخصّصة لأنواع الحجارة. صرت أعرف أسماء كل الحجارة، كلها مسجّلة في رأسي فأتهلّل للنتيجة الرائعة التي بها حقّقت انتصاري الأوّل على التأخّر. كنت أسمّع الصفحات لأهلي وللسيّدة سيمون وأترجم بعض المقاطع منها إلى اللغة البربرية. كنت مهووسة بالحجارة والكلمات التي تصفها تفتنني.

في إحدى الليالي أزحت الوسادة وألقيت رأسي مباشرة على الكتاب الساحر فلم أغفُ في هذا الوضع غير المريح، وربّما بسبب قلة احترامي هذا الكتاب عشت كابوساً.

أنا في قرية جديدة جالسة تحت شجرة أرعى البقرات. وفجأة شاهدت كلمات ضخمة تتوجّه صوبي وكلّها مسلّحة برفوش. تمشي متهادية. تلك التي في أقدامها حروف الـ"l" تتقدم من دون معوّق لكن تلك التي تنتهي بحرف "s" أو "y" تجد صعوبة في مجاراة وتيرة الهجوم. وقام سطران مخطوطان على الأرجح بحرف "i" مائل بربطي إلى الشجرة. قيّداني وعقدا عقدة بعدة حروف "œ"، وأبقى حرف "Y" كبير فمي مفتوحاً فيما بقيت عيناي مفتّحتين بواسطة حرف "I" كبير. وهاجم جيش من الكلمات رأسي بمعدّات التنظيف وأفرغاه من كلّ ما راكمه في خلال سنة. وشهدت عيناي العاجزتان المفتوحتان واسعاً عملية النقل الجماعي. ولملم فعل

"أخذ" (prendre) كل ما تعلمته عن "الحجر". وحضرت حروف الـ"r" كما الـ"e" والـ"p"، وبقيت حروف الـ"n" والـ"d" التي كُلفت حمل الكيس الذي ألقيت فيه سائر كلمات الصفحة الشهيرة. ووقعت معركة صغيرة محدودة لكن ناجحة بين الكلمات الفرنسية والأخرى البربرية، وحظيت فيها بدفاع حازم وشجاع. فالكلمات البربرية لم تستسلم وشكّلت خطّ دفاع في وجه المهاجمين، ونشبت معركة شرسة، هذا ما أدركته من الصداع الشديد الذي أصابني بعدها. سقط بعض الجرحى خصوصاً في صفوف الكلمات المركّبة، كلمة "rez-de-chaussée" مطروحة عند المخرج و"arc-bouté" تشلّعت أربع قطع وكلمة "foie" بُتر منها حرف "e" فراحت تدور على نفسها لأنها أصبحت فجأة مؤنثة، و"bijoux-genoux-cailloux" أخذت الـ"s" مكان الـ"x". وشاركت الكلمات العربية القليلة التي أعرفها في المعركة مدعّمة خطّ الدفاع.

استيقظت بصعوبة، ورحت أبكي كالمجنونة، وأحسست الألم في رأسي وعينيّ. وفيما أنا أتثاءب تجمّد حنكي فارتعبت. سمعت أمّي بكائي فجاءت تواسيني ولم أجرؤ على إخبارها بحلمي، بل كان الأهمّ هو التحقّق ممّا إن وقعت الأضرار فعلاً. فتحت القاموس ووجدت كلّ شيء في مكانه والكلمات سليمة وادعة. لم تحد أيّ منها من مكانها. ورحت أسمّع صفحة "الحجر" وإذا كلّ ما اكتسبته موجود، فابتسمت. إنه مجرّد كابوس، حيلة نفّذتها الوسادة التي أهملتها. في الليلة التالية نمت والقاموس بين يديّ.

استلحقت السنتين الأوليين بسنة واحدة. في الصيف بقينا في

باريس، للمرة الأولى لم يعد والدي إلى القرية. لم يعد عنده شيء هناك ثمّ إن والدتي كانت حبلى. أمضيت عطلة صيف طويلة حافلة بالنشاطات. أساعد أمّي في أعمال المنزل وبعد الظهر أذهب عند جيراننا المغاربة لأشاهد التلفزيون. لم تخلبني كثيراً هذه الصندوقة التي تمرّ عبرها الصور بالأسود والأبيض. لكن كنت أحبّ تغيير المنزل والاجتماع بأولاد الحاج إبراهيم الذين أعلّمهم اللغة البربرية.

كان الحاج إبراهيم تاجراً يعتبر نفسه صديق والدي. في أحد الأيّام عرض أن يأخذنا إلى حديقة الحيوانات، وهو يسمّيها "الحديقة العامّة". في السيّارة أجلسني بقربه وجلس أولاده الثلاثة في المقعد الخلفي. ولاحظت أنّه عندما يكلمني يضع يده على ركبتي. كان ضخماً ويتعرّق كثيراً، وعندما يميل صوبي أختنق برائحة عرقه. لم أقل شيئاً، هو صديق والدي وليس صديقي.

وصلنا إلى الحديقة فأرسل أولاده ليشتروا غزل البنات وأخذني من يدي ليريني شيئاً ما، وإذا نحن وحدنا في زاوية يغمرها الظلّ. قدّم لي علبتين من حبّ الكاراميل وشدّني إليه كأنّه يريد أن يسرّ لي بشيء في أذني أو أن يقبّلني. ثمّ وقف وشدّني إليه بمزيد من القوّة، ورأسي على مستوى فتحة سرواله، حيث أحسست شيئاً قاسياً. تملّصت منه بركله على عظمة ساقه، فصرخ، وأفلتّ منه راكضة محمرّة من الخجل، أرتجف من الغضب لأنني وثقت بهذا القذر الكبير. وبالتأكيد لن أعود معهم إلى المنزل، فخرجت من الحديقة من دون أن ألتفت ورائي وإذا أنا وحدي في المدينة، ولم ينتبني الخوف فوراً. وقفت على الجسر أتأمّل جريان نهر السين ذي اللون الغريب. عندنا

المياه صافية أمّا هنا فهي كثيفة ورماديّة. ولم أستطع تحديد وجهة جريان الماء فيه. لم أرَ في كلّ حياتي نهراً بهذا القدر من الوساخة. على كلّ لم يكن هناك نسوة يغسلن الثياب. كان نهر السين رمادياً مثل الجدران والوجوه، مثل السماء ومثل يدي أبي. فهل فيه سرّ على الأقل؟ هذا ما أملته كثيراً وإلّا فما الفائدة منه؟ أن يعرض باريس على السيّاح.

في ذلك اليوم كانت السماء مشرقة بالأنوار وذات ألوان فاتنة. مشيت رافعة رأسي مبهورة بالتغيّر الرائع في الأصوات وفي الغيوم الرقيقة الموشّحة بالأزرق والليلكي والأحمر والأصفر.

أنستني هذه النزهة فصل الحاج إبراهيم. كنت أسير متابعة ألوان السماء من دون أن أتساءل كيف أعود إلى البيت ومن دون أن أعبأ بخوفي ولا بقلق أهلي عليّ. وعندما بدأت ألوان السماء تخفّ فكّرت في مشكلة الرجوع. توقفت أمام مبنى أمامه الكثير من السيّاح. وكان الأفضل أن أبدأ بالاستعلام، فاقتربت من أحد رجال الشرطة الذي بدا ساهياً وراء أفكار بعيدة، ناديته فلم يسمعني، فشددته من طرف كمّه:

– سيّدي، سيّدي ما هو هذا المنزل الكبير؟

– ليس هذا بيتاً، إنها كاتدرائية، "نوتر دام دو باري"... ماذا تريدين؟

– كيف أعود إلى منزلي؟

– وأين يقع منزلك؟

– هناك... كلا ليس هناك، بل في الجهة الأخرى... بالقرب منا هناك "بوشري حلال" (الملحمة الحلال).

- من أين أنتِ؟
- من إيملتانو!
- هل هذا اسم حيّ؟
- لا، إنه اسم قريتنا... لا شيء في قريتنا... هي في المغرب... أعرف القراءة والكتابة... بالقرب منّا هناك محالّ "تاتي".

كانت هذه الكلمة السحرية. وأنا ما أزال أدين لـ"تاتي" بإنقاذي... استنتج الشرطي أنني أسكن في حيّ العرب شمال المدينة، وقال لي:

- تسكنين في حيّ "باريس"، "لا غوت دور"؟
- كلا، بل أقيم في الحي رقم ١٨.
- نعم هذا هو. إذا أوصلتك فهل تعرفين الشارع؟
- بالتأكيد، قلت لك إنني أعرف القراءة والكتابة... أنا متقدّمة على التأخّر.

أخذني بيدي وسألني إن كنت أريد قنينة كوكا، فعراني خوف، بعد الكاراميل الكوكا... هذا كثير ليوم واحد. صرت مرتابة إلا أن هذا الشرطي كان نظيفاً، لا رائحة عرق له ويبدو لطيفاً. اصطحبني إلى مكتبه وأجرى اتّصالاً هاتفياً ووقّع بعض الأوراق ثم ذهبنا بسيّارة يقودها شرطي آخر.

أضاءت المدينة أنوارها، وظننت من دون أن أصدق كثيراً أن هذا من أجلي. باريس تحتفل بعودتي إلى البيت. وراحت عيناي تراكمان الصور بسرعة قصوى. كلّ شيء يمرّ بسرعة البولفارات والنصب التذكارية والسماء والنجوم والمارّة... أحسست بالغبطة، وقلت في نفسي: "على أمل أن تطول المسافة!". كانت هذه النزهة أجمل ما

حدث لي منذ إقامتنا في فرنسا. وعندما رأيت من بعيد حرف "T" الأول من "تاتي" مضاءً أحسست بانقباضة في قلبي، لقد انتهت الجولة، وعرفت الشوارع من دون أيّ صعوبة. وعند مرور سيّارة الشرطة جاءت ردّات فعل الناس متباينة في حيّ المهاجرين هذا. بعضهم راح يركض وآخرون اختبأوا، لقد خاف الناس، وتساءلت عن سبب هذا الذعر. عندما وصلت رأيت أمّي على النافذة وهي تبكي، وبنزولي من السيّارة طمأنتها. كان والدي قد ذهب إلى الحاج إبراهيم المحرج بالتأكيد، فماذا يخبره، لا بدّ أنّه حمّلني كلّ المسؤولية.

دعوت الشرطيّين لشرب الشاي في انتظار والدي، رفضا الدعوة لكنّني ألححت، فمسحت أمّي دموعها وأعدّت لنا الشاي والحلوى، بدوَا منزعجين، أمّا أنا فكنت فرحة. عاد أبي وبدا منسحقاً. يشعر بالخجل لأنّ الحيّ كله اضطرب. شكر الشرطيين ورافقهما إلى الباب، وعندها أدركت مدى الأذى الذي ألحقته بوالديّ. لكنّها غلطة الحاج إبراهيم، ولم يكن بإمكاني أن أقول شيئاً. أويت باكراً إلى فراشي وأمضيت مستعيدة استعراض نهر السين وباريس وأضوائها إلى أن بدأت الصور تتراكب وتتقاطع. بدا السين يجري في قريتنا والمدرسة القرآنية تستقرّ في كاتدرائية "نوتر دام دو باري" والشرطيّان يجوبان "البلد" بشاحنة التوابل الصغيرة. وأنا أنتقل من بلد إلى آخر في لمحة بصر. أشاهد عمّتي في مياه نهر السين العكرة، فيستنتج الشرطيان أنّ هذا حادث، وأخي يركب الدرّاجة على البولفارات الواسعة. مُدِّدت الكهرباء في كلّ القرية ورُكبت مصابيح ليلية عند مدخلها ومخرجها. الحاج إبراهيم حُبس في الحمّام لدواعي النظافة

ولا يحقّ له أن يأكل إلّا حبوب كاراميل فقدت طعمها...

في اليوم التالي حكيت مغامرتي لكل المدرسة، وأنا أشعر بالفخر. أحسست بأنني اغتنيت وأنني أكثر تقدّماً على الآخرين. لم أكفّ عن الاكتشاف والتعلّم. وكنت في صلواتي الصامتة أشكر الله ووالديّ وفرنسا. وتلاشت صورة البلدة شيئاً فشيئاً من أفكاري. وحده وجه إدريس يبرز لي من وقت إلى آخر فينغّص قلبي. ولم تلبث أمي أن ولدت لي أخاً، وُلد في المستشفى حيث كلّ شيء أبيض ونظيف. في غياب أمّي اهتممت بأعمال المنزل، أغسل وأرتّب، أما في الطبخ فكنت أفسد كل ما أبدأ به. وهالت الأضرار والدي فقرّر أن يأخذني كلّ مساء إلى المطعم، حيث حقّقت اكتشافاً كبيراً، "الماكدونالد". كان موعداً تاريخياً جحظت فيه عينا الراعية أمام تلك الشرائح المدوّرة من اللحم والخبز والجبن. أولعت بها وراح والدي يراقبني آكل منها بنهم. هو لم يحبّ قطّ هذا النوع من الطعام. في إحدى الليالي دعانا الحاج إبراهيم إلى العشاء في بيته. رفضت الذهاب منبّهة والدي إلى أنه العشاء الأخير لنا نحن الاثنين وحدنا قبل عودة أمّي. وبعد أن أكلت حتى التخمة عند السيد ماكدونالد عدت إلى المنزل وسمحت لوالدي بالذهاب عند صديقه.

-٨-

جاءتني دورتي الشهرية لأوّل مرّة يوم عودة أمّي من المستشفى. كنت نائمة وأحسست سائلاً حاراً يتسرّب بين فخذيّ. حقيقة لم أكن مهيّأة لذلك لكنّي أعرف أنّه هكذا تصبح الفتاة امرأة بالغة. وارتأيت أنّني لست بحاجة إلى هذا الإنذار لكي أصبح امرأة، فأنا بالغة أساساً بكلّ ما تعلّمت وعرفت وأحببت.

بعد أن خضعت لامتحان في المدرسة أرسلت إلى معهد مع أولاد بعمري، ووجدت صعوبة في مجاراة الصفّ حيث كلّ شيء يجري بسرعة. كنت أفهم نصف الجمل والنصف الآخر يبقى من دون إجابة. فبِمَ أملأ تلك الفراغات، وأيّ كلمات أضع فيها لكي أفهمها؟ وعبثاً حاولت الاستعانة بما اختزنت في رأسي، وظللت أراوح في مكاني. وأحسست بالتعاسة أنا التي ظننت أنني متقدّمة، فإذا بي باقية في حظيرة التأخر البائسة هذه. بالطبع لم أكن وحدي في الانتظار بل أقف في الصفّ مثل الآخرين، لكن من وقت إلى آخر كنت أرى برتغالياً أو سنغالياً يصعد في القطار ويرحل ليتركنا وحدنا نلعب بالمكعّبات أو نرسم على سبّورة.

استولت عليّ فكرة كوني متأخّرة عن أيّ أحد وفي أيّ شيء. فبالنسبة إلى دورتي الشهرية سبقت حفيظة البنت البكر للحاج إبراهيم لكني تأخرت عن ماريا الجميلة الإسبانية التي تشاركنا الصف الخاص. وقد أحببتها لأننا نرتكب نفس الأخطاء، هي لا تنجح في لفظ حرف الـ"u" وأنا لم أستطع أن أكرج في حرف الـ"r". وعندما سماعنا كيف نتكلم نحن الاثنتين كنّا نثير موجة من الضحك أحياناً أو غضب المعلم أحياناً أخرى.

صبيحة أحد الأيّام جاءتني ماريا وقت الفرصة وهمست في أذني:

- تعالي سأريك شيئاً.

تبعتها إلى المراحيض فرفعت تنّورتها وأنزلت سروالها التحتي مبقّعاً بالدم. خفت للحظة فقالت لي:

- حدث هذا صباح اليوم، وأنتِ أليس عندك ما ترينني إيّاه؟

هززت رأسي بالإيجاب. كانت تصغرني بسنة واحدة. أنا أكبرها إذاً، وقد برز نهداي أمّا هي فلا. ففككت أزرار قميصي وأريتها صدري البارز فسألتني:

- هل يمكنني أن ألمس؟

- المسي لكن لا تدلّكي لأنّه قاسٍ ولكن حسّاس.

وراحت بطرف إصبعها تدور على الكرتين الصغيرتين. ثم رتبنا ثيابنا مجدّداً وباحت لي مقهقهة بأنّ عندها خطيباً:

- نحن متساويتان الآن...

كان عندنا نفس الصعوبات المدرسية وجسدانا ينموان بطريقة مختلفة لكن بالوتيرة نفسها. أنا أيضاً كان عندي خطيب اسمه دافيد

وقد أتى من البرتغال. عيناه بجمال عيني شابٌ بربريّ إلا أنّهما ليستا سوداوين بل زرقاوان. وللمرة الأولى كنت أرى عينين زرقاوين عن هذا القرب.

كان دافيد من الحالمين، يمضي ساعات في مراقبة الأشجار ورسمها وإطلاق الأسماء عليها. لكن في المدرسة كانت الأشجار بالأحرى هزيلة كئيبة. قال لي يوماً:

– ما من شجرة هنا تستحقّ أن تحمل اسماً.

صدمتني فكرته هذه إلا أنّ النبرة التي حدّثني بها أعجبتني جداً. وقد سمّاني "زهرة اللوز"، وبذلك طمأنني. لست شجرة بل زهرة.

– تعالي، اليوم لن نحضر درس ما بعد الظهر، سأصحبك إلى لوكسمبورغ لأعرفك بأصدقائي...

لم أكن أعرف أنها حديقة وأن أصدقاءه هم أشجار ضخمة.

ركبنا الباص وكان الطقس جميلاً، وباريس مشعّة بالألوان والشمس والمزاج الرائق.

كان يعرف هذه الحديقة الواسعة كأنّها ملك له، جال بي فيها وهو ممسك بيدي:

– هذه شجرة حور لا بدّ من أن عمرها نصف قرن. سمّيتها لشبونة لأنها تتراءى لي كلّما حلمت ببلدي. وهذه شجرة زان، ظلّها مريح جدّاً، سمّيتها "جاسينتو" على اسم جدّي، فكلما دنوت منها تميل عليّ وتداعب شعري. وهذه الأخرى شجرة سرو، هي في رأيي "الجنرال" لأنّها منتصبة وأنيقة وأحياناً صارمة. أمّا هذه الشجرة فلست واثقاً من أصولها، سمّيتها "طوني" على اسم حارس السيّارات

الذي يدّعي أنه إيطالي فيما هو غجريّ. وتلك هي شجرة الصبر، عندما أكون عكر المزاج أو أتشاجر مع أهلي وأحتاج إلى الهدوء آتي لأجلس تحتها فتمدّني بالكمّية اللازمة من الصبر.

هناك أيضاً شجرة الأمل، هي صغيرة، ضئيلة تقريباً، لكنني أعرف أنّ لها القدرة على زرع الأمل فيّ كلما احتجت إليه لكي أتابع دراستي وأفكّر في مستقبلي. لا أريد مطلقاً أن أصبح عامل بناء مثل أبي. ولذلك أذهب يومياً إلى المدرسة.

والآن ستتبعينني من دون أن تطرحي أسئلة. آخذك إلى ظلّ شجرة الحبّ. عندما نجلس هنا على هذا المقعد في الظلّ الوارف لأعرق شجرة في هذه الحديقة يغمرنا "الحبّ" وتتلاقى قلوبنا وترتعش أجسادنا.

تبعت دافيد منقادة له، ويدي مجموعة في يده، فأغمضت عيني وانتظرت الارتعاشات. لم يحدث شيء. ومن وقت إلى آخر أفتح عيني فأرى الناس يتنزّهون والكلاب تركض وراء كرة وأنا لا أحسّ شيئاً مميّزاً. وعندما لاحظ دافيد أنني مشتّتة الذهن نهض مغتاظاً قليلاً وقال لي:

– أنت لا تؤمنين بأشجاري!

– بلى، أحبّ كثيراً أن أكون برفقتك في هذه الحديقة، لكن ظننت أنّك ستريني شجرة الأرغان، "لوز البربر"، حتى وإن كانت هذه الشجرة لا تنبت إلّا في قريتي... ظننت أنّك ساحر...

– لوز البربر؟

– نعم، إنّها شجرة صغيرة تعطي ثمرة بحجم حبّة الزيتون. يأكل

الماعز هذه الثمرة ثمّ يخرجها من مؤخّرته، فتُجمع نواها وتُطحن على الحجر ويُستخرج منها زيت شهيّ.

– أليست هذه شجرة الزيتون؟

– كلا، الزيتون ليس بحاجة للمرور بالماعز لكي يعطي الزيت!

أعجب دافيد بشروحي، وأخبرته أنّ هذه الشجرة بالنسبة إلينا نحن البربر هي شجرة الأجداد، وهي لا تنبت في أيّ مكان آخر. وهي ليست جميلة وهذا هو سرّها.

– أنتِ زهرة عالمة... تعرفين الكثير من الأمور!

ووصلني الإطراء.

عدنا بالباص ووصلنا متأخرين إلى المدرسة، ووجدت والدي يروح ويجيء. رآني أنزل من الباص ويدي تلامس يد دافيد فلم يقل شيئاً، وعندما وصلت إليه وقرّبت خدّي ليقبّله صفعني صفعة دوّختني للحظة طويلة. أحسست كلّ شيء حولي يدور فلا أميّز الناس عن الأشياء. ولم أعرف إن كان ما دوّخني هو قوّة الصفعة أو المفاجأة أو الخجل.

الخجل! هذا الإحساس الغريب. إن له وقع السقطة والتدحرج الفعلي. نسقط أرضاً ونحسّ بالتفاهة بسبب الإذلال والاستضعاف والعودة إلى عصر آخر. إنّه أيضاً الخيبة، تلك التي تسبّب التصدّع.

في ذلك اليوم عرفت معنى الخجل. لم يسبق لأبي قطّ أن رفع يده عليّ. لكن يجب التذكير بأنّني لم أكن أراه إلّا شهراً واحداً في السنة، وليس هذا وقتاً كافياً ليتنابه الغضب، فحتى وإن ارتكبت بعض الحماقات ما كان يعاقبني. كان غائباً ويعتبر أن تربيتي من شأن أمّي وجدّتي.

هذه الصفعة التي أرتني نجوم الظهر أمرضتني. لم أعد أريد

الذهاب إلى المدرسة، حيث سأكون أضحوكة الجميع حتى وإن لم يحضر معظم التلاميذ المشهد. أعادتني هذه الصفعة إلى زمن كانت فيه عمّتي تنقضّ عليّ وتضربني. لم يعد والدي يعرف كيف يراضيني. وفي الليل كلّم أمي في الموضوع وسمعت كلّ الحديث تقريباً:

– أنا آسف لكن كان هذا أقوى منّي. لم أضرب شخصاً من قبل وأوّل ضربة منّي تتلقاها ابنتي. لكن لماذا تغيّبت عن المدرسة وخصوصاً لماذا ذهبت مع غريب؟ نحن مسلمون، وهنا لا أخلاق للبنات. نحن لسنا مسيحيّين، وإذا راحت ابنتنا ترافق الصبيان فهذا خرابنا وانكسارنا. يجب أن تكلّميها. هنا كما في بلدنا. فرنسا ليست موطننا. نحن هنا لنكسب عيشنا لا لنخسر بناتنا.

تخيّلتهما هما الاثنين مطرقين مهمومين لأن ابنتهما الصغيرة تكبر بأسرع ممّا كانا يتوقّعان.

لو عرف والدي الكتابة لوجّه إليّ رسالة طويلة وكشف لي عمّا في قلبه. هذه الرسالة تمنّيتها وتخيّلتها وانتظرتها.

ابنتي الصغيرة،

أكتب لك هذا المساء من عمق وجعي. لوددت أن أكلّمك وجهاً لوجه، لكن منذ أن لاحظت أنّك لا تخفضين عينيك وأنت تتكلمين معي أو مع أمّك فضّلت أن أتفادى مواجهة لم نعهدها بيننا، لا أنتِ ولا أنا.

ما أريد قوله لك هذا المساء هو أنني أحبّك حتى لو شاءت الظروف ألّا نتعارف كثيراً. آسف فعلاً لأنني لم أرَك تكبرين. تركت فتاة صغيرة ووجدت بعد إحدى عشرة

سنة فتاة صغيرة أخرى تعبس في وجهي في الأيام الأولى من عودتي. وفي كلّ مرّة كان عليّ أن أستعيد مودّتك. كنت ترمين الهدايا التي أحملها إليك وتنزوين وحدك. فكيف كان لي أن أشرح لك آنذاك أن غيابي لم يكن أبداً إرادياً ولا متعة. من حقّك أن تنقمي عليّ لأنّ للولد متطلباته وأنت عندك الكثير منها. كان الوقت يمرّ بسرعة. تمضي الأيام الثلاثون كأنها ليلة سعيدة ملؤها الأحلام والألوان والضحك، فأغادر تحديداً في الوقت الذي نصبح فيه صديقين مشغوفين لا يفترقان. كنت أصطحبك على ظهر الحصان إلى العيد الشعبي في المدينة، فتمرحين وتبارين وتغنّين وأنا مفعم بالغبطة سعيد بأن أراكما، أنت وأخاك، تعيشان أمام عينيّ، العينين نفسيهما اللتين كانتا تبكيان بصمت في طريق السفر مجدّداً وسط الظلام، وما كان بإمكاني إيقاظكما ولا تحمّل رؤيتكما تبكيان. أرحل صوب الشمال حيث البرد والعمل والوحدة. تزوّدني أمّك بقديد اللحم والعسل وزيت الأرغان وغطاء من صوف وحذاء سميك. تضع كلّ ذلك في صندوق السيّارة من دون أن تقول شيئاً. كانت هذه طريقتها في التفكير بي ورغبتها في حمايتي من العيون الشرّيرة والبرد والعوز. كنت أستعجل الوصول إلى فرنسا لأنسى نفسي بين العمل والحياة الرتيبة. كانت الطريق طويلة وأنا لا أكاد أتوقف، لكأنّني أهرب ووجوهكم تلاحقني

وتستولي على مخيّلتي ليل نهار. أصل عشيّة استئناف عملي فأرتمي في السرير كأنّما في قبر. أنام وألتقيكم مجدّداً. واللافت أنّني عندما كنت أفكّر فيك أراك دوماً مبتسمة فلا أخشى عليك. لكن عندما أفكّر في إدريس أشعر كلّ مرّة بانقباضة قلبي. كنت أعرف أنّ هذا الصبي ضعيف، وأنّ مجيئه إلى هذا العالم كان ويلاً على شقيقتي سليمة التي يتأكّلها مرض أقوى وأعنف من كلّ أمراض الجسد. وكنت أعرف أنّ لعنتها ستنزل بك بين يوم وآخر. ويجب أن أعترف لك بأنّ سليمة ليست أختي، هي بنت رحّالة تركوها على عتبة بابنا، وتبنّتها أمي، أعني ضمّتها إلى عائلتنا، إذ ليس في الإسلام تبنٍّ. يمكن إيواء ولد لكن من دون الحقّ في منحه اسم العائلة. وهذا ما عانت منه سليمة في صغرها. قيل إنّها ولدت من مطر سيّئ وإنّها ثمرة العاصفة. والأولاد مشاكسون فاضطرّت باكراً إلى المقاومة، وكان العنف هو طريقتها في الكلام والعيش. أنا لم أعتبرها قطّ أختاً لي ولذلك نقمت عليّ. عندما مات والدي، في زمن استشراء التيفوئيد، ذهب كلّ منّا في طريق. أنا إلى فرنسا وشقيقاي الآخران إلى أغادير وشقيقتاي مع زوجيهما. وبذلك هُجرت سليمة، فزوجها هاجر قبلي بكثير للعمل في فرنسا، بقيت وحدها مع متّسع من الوقت لتعدّ العدّة لانتقامها. لكن ممَّ تنتقم؟ من الحياة ومنّا ومن الآخرين ومن كلّ شيء. بنيّتي، اليوم

أصبح كلّ هذا من الماضي. لم نعد نعيش في القرية، وهنا ليس عندنا ذكريات، ولا يمكننا الاستمرار في العيش كأننا ما نزال في القرية. لقد سجّلتك في المدرسة، ويوم فعلت ذلك شعرت بالفخر. لكن أعترف لك بأنني لم أنم في تلك الليلة، فبالنسبة إليّ كانت هذه ثورة. كنت خائفاً وفي الوقت نفسه لا يجوز لي أن أحرمك المدرسة. ولا أريد أن أمضي ليالي أخرى لا أنام فيها شاغلاً فكري بك وأنت تشغلين بالنا وتنطلقين بأسرع ممّا نقدر على تحمّله. أنت مستعجلة جداً وأنا أعرف أن باريس مدينة حتّى الكبار يضيعون فيها.

اعلمي أنّ أخلاقنا وديانتنا مختلفة عن أخلاق وديانة زملائك في الصف. ونحن لن نمضي كلّ حياتنا في هذا البلد ونحن غرباء فيه.

هذه الرسالة أمضيت الليل وأنا أسمعها وأقرأها مرّة تلو الأخرى. كل ما فيها كان مكتوباً في عيني أبي الصادقتين وعلى جبينه العريض وفي راحة يديه. كنت أراقبه وأقرأ ألمه واضطرابه في كلّ من حركاته.

بهذه الرسالة أحسستني قريبة من قلقه، لكنّي فهمت أيضاً أن الصعوبات ليست إلا في بداياتها، وأنا أكره الماضي وكلّ ما يمتّ بصلة إلى القرية، السبب الرئيسي لكلّ تخلفاتنا.

إن كانت أرضنا لم تعرف كيف تحافظ علينا فربما بسبب يدٍ مشؤومة رمت فيها يوماً بذار الخلاف والتخلّف.

- ٩ -

هو البحر، مرسوماً بالقلم الأسود يعبره خطّ أحمر مقطّع بممحاة "سبيـا"، منسيّاً في كتاب صور يطغى عليها الأزرق. هو البحر الشخصية الغريبة في أحلامي. أحياناً ملاءة واسعة شاسعة مبسوطة ما بين السماء والأرض ينفخ فيها الهواء، وأحياناً صخب الأمواج المتخيَّلة التي يقشعرّ لها البدن. هو البحر الموعود لإغراق القرية في هيجانه مع ماشيتها ووجوهها الجامدة المهدودة. صورة السماء انحدرت إلى الأرض تحت غيومها لتلوّن بالأزرق كلمتي "سهول" و"طرقات".

مياه في أمواج متلاحقة يدفعها الهواء، متغيّرة الألوان بحسب الأوقات، قاتمة في آخر النهار، سوداء ليلاً مع بعض الانعكاسات الرمادية، صافية شفّافة نهاراً يخترقها نور الشمس، تعلو وتهبط إلى أن تتحطّم على الصخور الحمراء.

هو البحر هوسي منذ قدومي إلى فرنسا. لم أكن آتي على ذكره، لكن أعرف أنني سأكتشفه يوماً ما. أنتظر ذلك بفارغ الصبر وأخشى في الوقت نفسه أن أتوقف عن الحلم به إن أنا رأيته.

دوّامة من الضوء والماء حملتني في دوار، ما بين الصخب والخرير، ثمّ وجدتني وحدي في قارب صيّاد ينيره ضوء البدر. البحر كان فكرة أكثر منه صورة، فسحة منقشعة من السماء ومرآة تحفظ وجهي فيما أنا معلّقة في بئر أقيس عمقها وأنظّف جدرانها. حقل هو ذو أبواب عالية مغلقة على أجفاني. عرتني رعشة، لا من الهواء، بل من الرغبة في الانزلاق على هذه الأمواج لتحملني إلى جزيرة وضعت كنعمة بين يدي رجل عجوز جدّاً ربما يكون والد جدّي، ذاك الذي دفن الكنز في الجبل. لا يمكن أن يكون للبحر إلّا ذاك الوجه اللطيف والجميل المعمّر قروناً وقروناً، الصادق في عهده والفخور بجذوره وإيمانه وأرضه. وهو كصاحب رؤيا كان يعرف أن أبناء ذرّيته وسائر الأجيال التي ستتعاقب لم تكن جديرة بسرّه وبطيبته. كان البحر هناك إذاً، في راحة هذه اليد اليمنى، مرسوماً مائجاً، يقود عبر الأعماق المتلوّية إلى موقع الكنز. منذ أن بلّغتني جدّتي المحتضرة السرّ هامسة في أذني كلاماً مبهماً عرفت أني في يوم من الأيام سأهتدي إلى الطريق في جوّ من الصمت والتأمّل. وعرفتُ أنّ هذا الضوء سيبهرني ويأسرني. يكفيني، تماماً قبل تلك النشوة الداخلية، وتماماً قبل الغبطة العظيمة المترجمة بالدمع والإجهاش، أن أمدّ يدي اليمنى وأبسط راحة هذه اليد المنذورة وأرى فيها البحر على الوجه المفعم بالنعمة والطيبة، وجه سلفي الذي لا يقوى الزمن عليه. وبعينيه اللطيفتين الطافحتين بالذكريات ينظر صوب المكان أو الجزيرة أو كهف تحت البحر فأسير بخفة البهلوانيّ على الطرقات التي يرسمها نظره إلى أن تطأ قدماي صخرة حارقة، ربما تكون مركز بركان منطفئ أو جثة بحّار

نسيه طاقمه مسمرّة البشرة تحت الشمس والنور.

يجب أن يكون الكنز ها هنا، في يدي. وسأنتظر اليوم والساعة والفصل والقمر لكي أفتح قبضتي على مياه صافية حركاتها وحدها تشكِّل إيقاع نَفَسي ونبضي.

لهذا السبب، يوم قرّر والدي أن يأخذني لرؤية البحر، كنت شاحبة قلقة، منزعجة وشبه منوّمة. سلكنا الطريق وحدنا نحن الاثنين، في أحد أيّام شهر شباط. كانت الشوارع مقفرة والسماء كالحة. وأنا بذاتي لم أرد أن أشاهد أحداً في الشوارع، وأنا من ألقى وشاحاً من الكآبة علي السماء. ففي أعماقي خفت أن أرتكب ما لا يمكن إصلاحه وأن أعكّر الجمال الذي يغلّف سرّي فأخاطر بكشفه أو بفقدانه، وأراه يتحطّم مثل موجة عاتية تتكسّر على صخرة. كان البحر مقيماً فيّ، عميقاً ومحميّاً وشريكاً، فما كان يحقّ لي أن أذهب إليه يوم أحد في زيارة سخيفة من دون استعداد، من دون تأمّل. وانتابني القلق من أن أخسر كلّ شيء.

لم يكن أزرق ولا أسود رمادياً بل بنّي. لم يكن قريباً منّا، انحسر بعيداً عن أنظارنا، وكان هناك الكثير من الرمل، لكن لا بحر. كانت رزقة السماء غريبة، شربت السماء البحر ولم يلحظ أحد ذلك. أما أنا فقد ارتحت فيما أصيب أبي بالخيبة، وتمتم بعض كلمات الاعتذار، وأدركت أنّه هو أيضاً لم يسبق له أن رأى البحر. ومنذ ذلك اليوم قرّرت أن أبذل ما في وسعي لكي أريه إيّاه وأشركه في حلمي. لكن يجب خصوصاً عدم استعجال الأمور، وعليّ أن أترك الوقت ينجز ما بدأت.

تعويضاً عن النزهة على طول الشاطئ أخذني إلى السينما. كانت الصالات قليلة في حيّنا لكن الأفلام التي تُعرض فيها هي نفسها على مدار السنة، أفلام عنف ومذابح ومجازر ورعب. ربّما لم يكن هذا الحيّ يستحقّ أفلام حبّ. أنظر إلى الملصقات ولا أفهم لماذا يقدّمون إلينا كلّ هذه القساوة.

اختار والدي فيلم كاراتيه. نحن الآن بعيدان عن البحر. شاهدت أجساداً رشيقة تتحرّك في الظلمة وكلّ ضربة توجَّه يرافقها صفير. من جهة الصالحون ومن الأخرى الأشرار. وكان هناك امرأة ليّنة الجسم مثل الحيّة قفزت وخنقت خصمها بساقيها. وبالنسبة إليّ لم تكن هذه صوراً، بل ظننت أن كلّ شيء يجري وراء الشاشة البيضاء الممدودة في عمق الصالة، ولم أعرف سحر السينما إلّا بعد زمن طويل.

في المساء كنت متعبة منهكة لكن سعيدة لأنني نجحت في الاحتفاظ بسرّين فالبحر مِلكٌ لي، حتى إنّي لم أجرؤ على فتح يدي اليمنى. احتفظت بكلّ شيء مدفوناً في أعماقي. فالبحر كان تلك الحديقة حيث يمكنني يوماً ما أن أختلي بنفسي بعيداً من الصخب. ومع ذلك كان ينمو فيّ شغف المدينة، ويحدث لي أن أمضي ساعات جالسة عند النافذة أراقب الحركة الكبيرة على طول البولفار. وكان الفرنسيّون قد غادروا حيّنا تباعاً، وبات العرب هم الذين يديرون المتاجر، فتحوّل الأرصفة من الصباح إلى المساء سوقاً أفريقية. السنغاليون يغنّون ويرقصون لكي يبيعوا سلعهم، وإذ أراهم بهذا المرح والضحك أتساءل إن كانوا هم أيضاً يحتفظون بسرٍّ ما في أعماق نفوسهم بكلام موروث وبوجه ألهمه الزمان وبشجرة باسقة

تحميهم وتمدّهم بالطاقة ليعيشوا ويتحمّلوا المنفى.

في أحد الأيّام، وفي الصباح الباكر، والناس ما زالوا نياماً، أقفل الشارع كما في الأفلام، واجتاحت سيّارات الشرطة الشوارع. وفي غضون دقائق طوّقنا جيش من الشرطة برشاشاتهم. دخلوا الشقق السكنية وفتشوا في كلّ مكان، قلبوا الطاولات ورموا الأغراض من النوافذ. واستُثنيت بنايتنا من هذه الفوضى وهذا الذعر. النساء يصرخن ورجال الشرطة يطلقون الشتائم بأصوات عالية. الأولاد يركضون في كلّ اتجاه، وعلى الرصيف انتشرت الكراسي المحطمة والأرائك والحقائب والأكياس الملأى بثياب الغسيل وعلب الكرتون وإطارات الصور والمقالي والصحون... رموا كلّ ذلك بشراسة حتى ظننّا أننا في خضمّ حرب. ربما كانت هذه هي الحرب. أسقط في أيدينا أمام جنون هذا الجيش من الشرطة الذي انقضّ على كلّ أغراض حياتنا اليومية. جاؤوا ليحطّموا كلّ شيء. وبدا أنّنا نتعرّض لعقاب من دون أن ندري بذلك. لكن ما الذي أتيناه لنُستهدف مع الصباح الباكر بكلّ هذا العنف؟ وفجأة خرج رجل بالبيجاما من المبنى المواجه وهو يصرخ مستشيطاً غضباً. كان رجال الشرطة قد رموا للتوّ من النافذة القرآن بعد أن داسوه بأقدامهم. جُنّ الرجل وراح يرتجف من الغضب، نزع طربوشه وراح يمزّقه بيديه وأسنانه، ويدور على نفسه ويكرّر نفس الكلمات: "تدنيس المقدّسات! تدنيس المقدسات!" ثمّ توجّه إلى الحشد:

"يا أيّها المسلمون! رأيتم تدنيس المقدّسات، وأنتم على ذلك شهود. تجرّأوا على المسّ بالكتاب المقدّس! أولاد الكفّار

المسيحيون أعداء الإسلام، يكرهوننا ويستخفّون بدياناتنا، لقد جُنّوا والله يأخذ حقنا. يوقظوننا بالبنادق ويحطمون أبوابنا ويرون نساءنا وبناتنا ويدوسون على كلام الله. آه يا إلهي ما هذا الانحطاط! يظنّون أنهم ما زالوا في الجزائر أيّام الاستعمار. لكن بالله ماذا نفعل في هذه البلاد، على هذه الأرض العدوّة؟ لماذا هاجرنا؟ هذا عقاب الله لنا، نحن لم نعرف كيف نحبّه لا كيف نعبده. اليوم دخل المسيحيّون مسلحين بالبنادق والكراهية منازلنا ورموا أغراضنا ودنّسوا دياناتنا. الحقّ! الحقّ!".

عرفت الحاج، جزائري زار والدي طالباً منه أن يتبرّع مع غيره من المسلمين لبناء مسجد في الحيّ يكون هو إماماً له. وقد أسهم أبي المؤمن في العملية. لكن الرخصة لم تُعطَ وطوال فصل الشتاء شغلت هذه القصّة الناس الذين استمرّوا في إقامة الصلاة في قاعة كانت في ما مضى خمّارة أو مقصفاً ليليّاً، حُفرت على الحائط فوق مدخلها عبارة "ذوّاقة الخمر الفاخر". وعبثاً حاول الحاج أن يحفر ويعيد الطلاء، ظلّت "ذوّاقة الخمر الفاخر" محفورة هناك. كانوا يسهرون، وقد فرشت الأرض في الداخل بالحصر والسجّاد وعلّقت على الجدار صورة مكّة المكرّمة واسما الله والنبي محمّد بخطوط مزخرفة. وفي أماسي أيّام الجمعة كانوا يحرقون بخور الجنّة، ومع كل ذلك ظلّت رائحة الخمر تفوح في المكان. اختزنت الجدران والحجارة ذكرى "الخمر الفاخر".

هذ الوضع بدا منافياً للشرع فرفض بعض المسلمين مثل والدي الصلاة في "موضع الرذيلة" هذا، إذ رأى البعض أن الحظيرة كانت

مسكونة بأرواح الكفّار والبعض الآخر أنها مكان كلّ التجاوزات. ولم يوفّق الحاج إلى إيجاد موضع آخر. ولذلك وجد في عملية الشرطة فرصة للتنديد بالظلم الذي تتعرّض له طائفته. أمّا أنا فلم أبالِ بقصّة الجامع هذه لكن في المقابل أحسست للمرة الأولى في ذلك الصباح أننا لسنا في بلدنا وأنّ باريس ليست مدينتي وأن فرنسا لن تكون أبداً وطني بشكل كامل.

رحل رجال الشرطة كما وصلوا تاركين أغراض الناس في الشارع. فتّشوا عن مخدّرات ولم يعثروا إلّا على رجل بائس بدأ يفقد صوابه. لمّ الحاج المصحف وقبّله عدّة مرات ثمّ قبع في زاوية بين محلّ بقالة ومقهى وجعل يقرأ من القرآن بصوت عالٍ كأنّه في مقبرة. لم يعد يسمع أحداً. يتلو الآيات زائغ العينين متمايلاً. بدا مخطوفاً إلى مكان آخر، بعيداً من حيّ "غوت دور"، إلى جبال الأوراس أو إلى مسقط رأسه تيزي أوزو، تماماً مثل صوفيّ فقد كلّ إحساس، فلم يعد يؤثّر فيه أيّ شيء سوى الكتاب المقدّس.

أنا وارثة شغف الاكتشاف. كبرت واكتسبت مشاعري صفة الاعتدال. في الصف كنت أتقدّم كما قال المعلم للسيدة سيمون. لم أعد متأخرة كليّاً. صحيح أنني ظللت في الكتابة أرتكب بعض الأغلاط الإملائية لكن كنت أقرأ بشكل سليم. أمّا عائقي الأساسي فكان استعمال الزمان، كأني على زعل مع التوفيق بين الأزمنة، أخلط بين مختلف مراحل الماضين ولا أتوصّل إلى معرفة واستعمال كلّ هذه التفاصيل الخاصّة بلغة أحبّها لكنّها لا تحبّني. أعلق في الماضي غير المكتمل وأكسّر رأسي بالماضي البسيط، وهي بساطة موهومة،

وأجمد أمام الماضي المركب. وتبسيطاً كنت أختزل الكل بالحاضر وهذا غير معقول.

إذاك كنت أعود إلى التفكير في القرية، إلى النهارات المتشابهة التي لا يحدث فيها شيء. تلك النهارات السخيفة والفارغة كانت تمدّد مثل حبل بين شجرتين. والزمن كان هذا الخطّ المستقيم المشدود المعلّم في أوّله ومنتصفه وفي طرفه الآخر بثلاث عُقد، ثلاثة مواقيت يحدث فيها شيء ما، إنها الحالات التي تمرّ بها الشمس. كانت الحياة إذاً في هذه المواقيت الثلاثة حين يجب إخراج الماشية والأكل عندما تكون الشمس فوق الرؤوس والعودة بالقطيع عندما تغيب.

حقيقة كان ماضيّ بسيطاً وجلياً مؤلف من تكرارات بلا مفاجآت ولا مآثر. كنت أستغرق في هذا الوقت من دون أن أتحرّك كثيراً. وبقدومي إلى فرنسا اكتشفت أن الحبل الشهير كناية عن سلسلة من العُقد المزروكة بعضها ببعض، وأن قلّة من الناس تجد الوقت للوقوف تحت الشجرة.

أبي لم تغادره القرية قطّ. ظلّ فكره متجذّراً هناك تماماً. والزمن بالنسبة إليه هو وسيلة لاحتساب ساعات العمل في المصنع، لكن في داخله هو زمن القرية الذي استمرّ جارياً بهدوء من دون كثير استفزاز ومن دون أن يتسبّب له بالمشاكل المحرجة مثل تلك التي كنت أصادفها غالباً.

حفظت عن ظهر قلب تصريف فعلي "كان être" و"ملك avoir" لكن كنت أضيع دوماً عندما يكون عليّ استعمالهما في جملة طويلة.

وأدركت أنه كان عليّ أن أنفصل كلّياً عن بلدي الأصلي. وكيف لي ذلك من دون أن أزعج والديّ، من دون أن أتنكّر لهما؟ لم يكن بإمكاني رسم خطٍّ والحضور بكل جوارحي في تلافيف زمن آخر، يمسكني عن ذلك شيء ما إلا أنني كنت صلبة الإرداة وقرّرت ألا أخطئ مجدّداً في تصريف الأفعال. لكن القرية ظلّت ماثلة لي، تطوّقني وترود حولي وتشاكسني، تصلني منها روائح الأعشاب والحيوانات. وقاومت، وتنكّرت لوجودها، ودخلت يوماً كنيسة كيلا أبقى أشمّ روائح القرية. وتخفّيت ولكن عبثاً، كأنّ يداً سحرية تعيدني إلى القرية وأرى نفس الحبل بالعقد الثلاث يتأرجح تحت النسيم. الأشجار دوماً هناك محافظة على المشهد والحجارة أبداً في الحالة نفسها. وأرى نفسي جالسة مجدّداً تحت الشجرة مترقّبة ومركّزة نظري على شجرة آملة أن أراها تنقل من مكانها وترحل بعيداً... وإذا ما رحلت أتعلّق بأحد أغصانها وأطير معه. لكن الشجرة لا تتحرك، فتغيظني بجمودها. كانت جذورها عميقة ومعمّرة جداً. وكان بإمكاني أن أمضي حياتي كلها في مواجهة هذه الشجرة لكنها لن تتحرّك. تلك هي طبيعتها، ووظيفتها أيضاً. فهي تثبّت التربة ولو أن البشر كانوا شجراً لما أقفرت القرية في هذا الوقت القليل. يظنّ البشر أن التربة يجب أن تثبتهم وتمنعهم من الهجرة إلى الخارج، والحال أن الأرض لا تمسك بأحدٍ. ومن قلب هذه الكنيسة المُظلمة تتهادى إليّ ابتهالات أولاد المدرسة القرآنية ويتراءى لي بين حين وآخر رأس الفقيه الذي يتظاهر بمتابعة تلاوة السورة، فيما هو غافٍ في الحقيقة. حتى الأعمى بحاجة إلى إغماض عينيه لكي يغفو. كان

النوم يخيّم على وجهه ويسيل عبر فمه المفتوح نصف انفتاحة خيط من اللعاب الشفاف.

أرتعش لهذه الصورة التي تأتيني من البعيد البعيد، كانت كضربة سوط أحتاج إليها لكي أكفّ عن تأبيد حضور القرية الضاغط، وأجد من السخافة أن أختبئ في كنيسة مهجورة أُشعِلت فيها بضع شمعات.

في الخارج أستمرّ أكثر في الارتياح إلى صخب المدينة ورائحة البنزين وضجيج المترو وإلى كل ما يمحو فيّ ذكرى القرية.

ومن هذا المنطلق بذلت كل جهدٍ لكي أتقن التوفيق بين الأزمنة، وقمت ببعض التمارين ولم أعد أستعمل الحاضر. وقد أمتعني ذلك لأنني كنت أعلم أنني يوم أتوقف عن الخلط بين الأزمنة أكون قد غادرت القرية فعلاً.

- ١٠ -

صعب على السيّدة سيمون إقناع والدي بالسماح لي بالذهاب إلى "صفّ الثلج"، فهو لم يفهم قصّة المدرسة هذه خارج المدرسة، وشكّ في أنّها خطة لهجر العائلة. واستعلمت أمّي من الجيران الذين يشارك أولادهم أيضاً في صفّ الثلج. ولم يطمئنّ والداي كلّياً لكن وافقا على مضض.

أصبحت ملحاحة جداً وعصبية وقليلة الصبر. أردت أن أتعلّم كلّ شيء وأجرّب كلّ شيء من دون خسارة الوقت. وكان الثلج بالنسبة إليّ صورة في كتاب القراءة، وأنا أريد أن أراه وألمسه. هو لم ينزل قطّ في القرية، كنّا نراه على رؤوس الجبال الشاهقة لكنّه لم يصل قطّ إلى أقدامنا.

انفرد والدي بالسيدة سيمون وسألها إن كان هناك صبيان في الرحلة.

- البنات في شاليه والصبيان في شاليه أخرى وأنا هناك لكي أمنعهم من الاختلاط.

كذبَت كذبة بيضاء، صحيح أننا لا ننام مع الصبيان لكن نبقى معاً

معظم الأوقات.

عزّزت هذه الحادثة عندي الشعور بأنني منقسمة إلى نصفين. نصفي الأول ما يزال معلّقاً بشجرة القرية والنصف الثاني يتلعثم باللغة الفرنسية وفي حراك دائم في مدينة لم أعرف قطّ حدوداً لها ولا نهاية. وعزوت حالتي العصبية إلى التشاجر الحاصل بين نصفيّ، وأنا لم أكن حياديّة بل في كلّ جهة من الجهتين، وهذا وضع مرهق يوتّرني عندما يدوم طويلاً. وفي رحلة صفّ الثلج تذكّرت مجدّداً أخي وألعابنا في القرية. وبعد العودة إلى المنزل صار عندي حنين إلى هذه الرحلة إلى الجبل وإلى نيران المدافئ والأغاني والفكاهات والألعاب مع المعلّمين...

وفي تلك الفترة حلّ شهر رمضان. وللمرّة الأولى كان عليّ أن أصومه، فأنا لم أعد صغيرة. انفردت بي أمّي وقالت لي:

- لم تعودي طفلة. يجب أن تصومي مثلنا، وفي خلال دورتك الشهري يحقّ لك أن تفطري، كما عليك أن تقيمي الصلوات وإلّا فلا قيمة لصيامك.

كنت أنصت إليها مفكّرة في هذا الانقلاب الذي سيحدثه ذلك. كانت قناعاتي الدينية قد تلاشت. أؤمن بالله لكن ليس على طريقة أهلي، أكلّمه ليلاً بالبربرية قليلاً وبالفرنسية حيناً. أحببت الله وفي كلّ مرّة أسأله أن يمنع نصفيّ من التشاجر. كنت بحاجة إلى السلام. ووافقت على أن أرضي أهلي وصرت أستيقظ في منتصف الليل لوجبة السحور، ثمّ أحفّ أسناني ولا أنام بعدها. تزعجني الحرقة في معدتي وأحسّ نفسي ثقيلة وأصل إلى المدرسة شبه نائمة. وفي اليوم الثالث قطعت الصيام وصرت آكل سرّاً، من دون أن يدري والدي بذلك،

فلا ينبغي أن أصدمه وأغيظه. كان يعمل بكدّ وهو يتضوّر جوعاً ويعود خائر القوى. الإيمان عنده ثابت لا يتزعزع. وفي هذا الصمود ما يفرض الإعجاب. وأكثر ما أحبته في هذا الشهر هو تلك الأماسي التي يتحوّل فيها حيّنا، "غوت دور"، إلى مدينة مُنارة.

كان الناس بحاجة إلى العودة إلى المنطقة التي هجروها في بلادهم. وفيما أنا أفعل كلّ شيء لأنسى القرية كان آخرون يحوكونها بخيوط رفيعة. ظلّ بعضهم يعيش كأنه لم يغادر قطّ موطنه الأصلي، فللأسف كانت فرنسا تذكّرهم، أينما ذهبوا، بأنهم ليسوا في بلادهم.

أمّا أنا فأرى فرنسا في المدرسة والقاموس والكهرباء وأضواء المدينة ولون الجدران الرمادي وأحياناً في الوجوه والمستقبل والحرّية والثلج والسيدة سيمون، وفي أول كتاب قرأته وفيه الصور متلاصقة بعضها ببعض...

في أحد الأيّام وفيما أنا في سريري أعدّد كلّ هذه الأمور قاطعني فجأة صوت انفجار تبعته صرخة امرأة طويلة ومتألمة. كانت صرخة أمّ قُتل للتوّ ابنها، جلالي، البالغ من العمر خمس عشرة سنة وبضعة أشهر، جميل الطلعة بعينيه الخضراوين وشعره الأسود الأجعد.

كانت الساعة التاسعة وعشر دقائق من ذاك الأحد الواقع فيه ٢٧ تشرين الأول عام ١٩٧١ عندما اخترقت رصاصة قلب هذا الولد وهو يلعب الفلير في أحد مقاهي "غودت دور".

لم أعرفه عن قرب. كنت أراه في شارعنا مبتسماً ويطلق الفكاهات عند مرور البنات ويدندن بآخر الأغاني الدارجة، يتكلّم الفرنسية بلكنة جنوب فرنسا، فهو من مواليد مارينيان. كان مرحاً نشيطاً

ومتفائلاً. كان جسده منطرحاً على الرصيف وعلى وجهه ابتسامة حائرة وقبضته اليمنى مغلقة على قطع نقدية، هامداً وهادئاً وعيناه إلى السماء كأنّما قوة حيّة فيه تسائل الغيوم الكثيفة التي تعبرها لامبالية ومتعالية.

استمرّ جسده الضخم على ابن خمس عشرة سنة، ينزف الدم فيختلط بمياه القناة الصغيرة على طرف الرصيف. وهذا الدم الأحمر القاني لا ينضب، يسيل بغزارة كأنّ جلالي أصبح ينبوعاً، يحوّل مصيبة موته أعجوبة من الآلهة جاعلاً من هذه المأساة نعمة نهارٍ تجاهلته الشمس، والضحكة السعيدة التي لم يقطعها مزقٌ في صميم قلبه. وحول جلالي برزت أسئلة كثيرة كأنّها تلقى على غشاوة لا تكاد تُرى، حجاب اختُزل فيه القلق إلى صمت لا يُحتمل، صمت ثقيل جدّاً يمنع التصرّف وموجع جداً يعطّل الفهم.

استمرّ الدم يسيل، ورفرفت فراشات فوق الجثّة ثمّ توقف عصفور دوري رمادي مارٌّ من هناك وشرب قطرة من هذا الدم وحلّق مزقزقاً. وحضر أولاد من كلّ أرجاء المدينة وتحلقوا حول الجثّة وداروا حولها عدّة دورات طالبين من جلالي أن ينهض ويرحل معهم إلى بلد لا يُقتل فيه الأولاد. هم على الأرجح ملائكة هرعوا إلى المكان لنقل روحه إلى الجنّة. هناك سيكمل جولته في لعبة الفليبر ثم يذهب للسباحة في مياه الكوثر حيث تحيطه بعض الصبايا بأياديهنّ وضحكهنّ، فيصبح أميرهنّ وشغفهنّ ويكون له متّسع من الوقت لكي يُسبّح ويحبّ ويعيش حياة أبدية.

عندما وصل رجال الإسعاف والشرطة والإطفاء لم يجدوا جثّة

جلالي، بل مجرّد بقعة دم وذباب. وعلى بعد أمتار من المكان لمّوا فراغة الرصاصة التي اخترقت جسد هذا الولد.

ما كان الحداد الذي عمّ الحيّ كله ليعيد الولد إلى عائلته ولا ليجعل العدالة أكثر عدلاً ولا ليمنع تكرار إطلاق رصاص البنادق. لكن الحداد كان طريقتنا الخاصّة لمخاطبة بلد سهل عليه قتل الأغراب. كان الدفن كناية عن تظاهرة ضخمة صامتة ارتفعت فيها زنود بعض الفرنسيين حاملة صورة جلالي ولافتات تندّد بالعنصريّة.

في ذلك اليوم بلغت بسحر ساحرٍ عمراً آخر، شخت عدّة سنوات، ولم أعد البنت الصغيرة المبهورة بكلّ ما تكتشفه، بل صرت البنت الصغيرة المنفطرة القلب لموت صبيّ كان من الممكن أن يكون شقيقها. تجاوزت دفعة واحدة عدّة سنوات وحطّمت التخيّلات التي جعلتني أحلم. فكّرت بالتأكيد في أخي إدريس. لكن ابتداءً من صبيحة يوم الأحد ذاك أصبح طعم الحياة مرّاً. فهمت معنى كلمة "عنصريّة". كنت في المدرسة، عندما كنت أعلم أن شخصاً ما لا يحبّني، أعزو ذلك إلى تأخّري لا إلى لون عينيّ أو بشرتي. لم يلمني أحدٌ على تكلمي البربريّة وعلى شعري الأسود المجعّد. ولم أكن لأدرك معنى ذلك. أمّا مقتل جلالي فقد أدخلني عالماً أكثر تعقيداً وقساوة.

قال البعض: "قُتِل لأنّه مسلم" وآخرون: "قتلوه لأنه جزائريّ وبالنسبة إلى البعض حرب الجزائر لم تنتهِ كلّياً بعد".

إدريس سمّمته امرأة أرادت أن تلحق الأذى بنا. كان ذلك في القرية. وهنا يُقتل جلالي انتقاماً ممّن؟ من المقصود بهذا الشقاء؟

عائلته؟ صديقته صوفي؟ الجماعة؟

لم تكن كلّ هذه الأسئلة مطروحة عند والدي، بل هو قرّر الرحيل في أسرع ما يمكن. كان يعرف أنّ جلالي قُتل من دون أيّ سبب. فهو عربيّ فتيّ، جميل وجريء، حيويّ وفاتن. ثمّ إن القتلة ليسوا بحاجة إلى أسباب.

خيّم الرعب على الحيّ، فالـ"غوت دور" كان حقل صيد مثالياً لأولئك الذين لا يريدوننا في هذه البلاد.

حضرت السيدة سيمون لرؤيتنا وقد آلمتها جدّاً هذه المأساة. قالت إنّها تشعر بالعار لأن البعض في هذا البلد دأبوا على كره الناس الذين لا يشبهونهم وليسوا من دينهم. بكت وهي تروي لنا معاناتها: "كنت في العشرين من عمري إبان الحرب. كان والدي طبيباً، وقد وشى به أحد زملائه على أنّه يهودي. اعتقلته الشرطة المتعاملة مع الألمان ولم نرَه بعدها. اقتيد إلى معسكرات الموت مع عشرات الآلاف غيره من اليهود".

وشرحت لي عن جنون البشر والكراهية وانفطار القلوب والتشبّث بالشرّ.

عندما انتهت قلت لها:

– أفهم الآن أن عمّتي عنصريّة!

– كلا، هي مجنونة.

– نعم، العنصري مجنون حكماً.

بعد أيّام أتت لاصطحابي لتريني فيلماً. قلت لها:

– آمل ألا يكون فيلم كاراتيه!

- لا، وللأسف هو فيلم حقيقي. ما رأيته في المرّة الأولى هو مجرّد لعب. الممثلون يؤدّون الأدوار مقلّدين الواقع. ما سنشاهده اليوم هو فيلم وثائقيّ فظيع يكشف لنا ماذا فعلت العنصريّة في الحرب العالمية الثانية.

الصالة التي دخلناها لم تكن سينما، وكان فيها الكثير من الطلاب الذين تراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة. وألقت السيدة سيمون كلمة نبّهتنا فيها إلى ما في هذا الفيلم من عنف وأننا بحاجة إلى الشجاعة لكي نشاهده حتى النهاية. ومن لا يتحمّل ذلك يمكنه أن يخرج.

عُتّمت الصالة حيث ساد صمت ثقيل ومزعج.

أسلاك شائكة كرّت أمامنا على أرض بيضاء بسبب الثلج أو الأضواء. السماء رصاصية بلون مقطورات القطار التي تتدفّق منها أجساد بشريّة واسعة العيون، عيون مغرورقة بدموع محبوسة جمّدها الهلع المطلق. نساء عاريات، جلد على عظم، تحاول ستر نقطة في أجسادهنّ. ورجال لا تكاد تحملهم أرجلهم يتقدّمون نحو فتحة لن يخرجوا منها أبداً. أولاد لم تبق منهم إلّا العيون يسيرون رافعي الأيدي. رجال ونساء لم يبقَ منهم سوى العظام يُكدَّسون في حظائر النقطة الوحيدة المضاءة فيها هي باب الفرن. وتكرّ الأسلاك الشائكة مجدّداً. جبل من الشعور الرمادية والسوداء والبيضاء. مقطورات أخرى تنتظر دورها لإفراغ حمولاتها. جنود مثل دمًى آليّة يزعقون بالأوامر. وفوق المعسكر علمٌ يرفرف. بدا متّسخاً بما علق عليه من سواد الدخان. على قطعة القماش هذه رماد، رماد إنسان أحرق بسبب عِرقه. لا يرفرف العلم كما يجب، مثقل هو

بالنفس المحترقة لرجل أو امرأة. أسلاك شائكة في الظلام ودوماً الضوء الوحيد هو ضوء اللهب. حفرة مشتركة ملأى بأحياء وراقدين. بدت السماء غير مبالية، وتشتّت الغيوم، ومع ذلك ظلّت هناك نجمة أو اثنتان تلتمعان، والبدر في ليلته الأولى لاذ بالصمت مثل البشر. وتساقطت أعيُن، وأياد هزيلة تتمسّك بعشبة أو بحجر. ونشط الجنود، حركة وصول كثيفة. ويتوقّف آخرون لإلقام الموت الفاغر الفم مبتلعاً كلّ شيء. رجال ببيجاما مقلمة يقفون في الصفّ للحصول على مغرفة من حساء أسود. فهل كانوا يعرفون أنهم سيموتون، يُحرقون أحياءً في فرن أو في غرفة غاز؟

حتى الشمس ظهرت بقرصها. رفع ولد رأسه نحو السماء كأنه لا يفهم ماذا جاءت الشمس تفعل في هذا الجحيم، في أيّام الهلاك هذه التي بدت فيها جذوة الكراهية بركاناً ثائراً لا تطفئه أيّ سماء. وحتى العظام، في صبر أيّوب، تتماهى وتتجمّع وتسقط رماداً خفيفاً على أرض سوّدتها اللعنة الساهرة على المعسكر والجنون. وامّحق السَّحَر والفجر والغسق. وحده الليل بسط ذراعيه الململمتين محمّلاً الأجساد المنسيّة لخنقها في حفرة الموت التي يتأكّلها الجوع وبعض الكلام السماوي. ليل بفرائس لا ضرورة لها يخترق النظرات المذعورة. وظهر ولد تائه، تآلف مع الموت، رفع يديه كما في ألعاب المدرسة. حدّق فينا. حدّق فيّ. خفضت عينيّ، والتمعت دموعي. انطبع وجه هذا الولد هناك، في دموعي. وتجمّدت الصورة. في الصالة خيّم الصمت والعتمة. لم ينبس أحد بكلمة. ظلام وضباب.

في ذلك اليوم لم يعد عمري ثلاث عشرة، بل ألف سنة.

-١١-

رحلنا عن باريس، وتحديداً أكثر الـ"غوت دور"، لأن باريس ليست الـ"غوت دور"، لنقيم في بلدة إيفلين التي رأيت فيها آخر العالم ومزيداً من البعد عن القرية وأكثر غرابة من الجبل. كان أبي قد وفّق إلى الحصول على مسكن شعبي في منطقة تُعدّ ريفية في الأساس. تنتشر فيها الأشجار والمروج الخضراء ولا ينقصها سوى العقارب والمدرسة القرآنية. كانت هادئة، هادئة جدّاً بالنسبة إليّ. كان القلق من الرصاصة الطائشة قد زال قليلاً، لم نعد نفكّر فيها كما من قبل لكن كان يتناهى إلينا أن عرباً آخرين قُتلوا.

كان صيفاً ضاغطاً بحرارة خانقة. والسماء ملبّدة بأدخنة سود. إنه صيف عام ١٩٧٣، تعلّمت فيه عبارات "مطاردة الرجال" و"ملاحقة العرب" و"غارة" و"زنجي"... ورحت أدوّن كلّ شيء في مفكّرة صغيرة ناسخة عن الصحيفة:

عبد الوهاب هماهم، ٢١ سنة، قُتل على يد شابّ فرنسي في مرفأ مرسيليا القديم.
سعيد عون الله، ٣٧ سنة، ثماني طلقات في رأسه وصدره.

حمّو مباركي، جمجمة محطّمة.
لونس الحج، ثلاث رصاصات في ظهره.
سعيد غيلاس، جمجمة محطّمة.
بنساها مكرنيف، جمجمة محطّمة، قتل في ٢ أيلول.
مزالي رباح، ٣٠ سنة، قُتل بالرصاص.
أحمد رزقي، ٢٨ سنة، رصاصة في صدره. قُتل فجر ٢٩ آب.
مهند بن بورك، رُبط بحجر وزنه سبعة كيلوغرامات، أضلاع مكسّرة وكبد ممزوق.

دشّنت بهذا أول يوميّاتي الخاصّة، بأسماء أشخاص لا أعرفهم نزلت أسماؤهم في مدوّناتي كما في مقبرة. ورحت أردّد أسماءهم بصوت منخفض وأتخيّل الحياة التي عاشوها. حياة قصيرة قطعت مثل عشبة اجتُثّت بقوة ولا أحد يهتمّ لها. أتخيّلهم بوجوه مبتسمة وشامة على الخدّ ونُقرة في الذقن. عيونهم سود أحياناً وزرقاء أحياناً أخرى. ينبعثون من أعماق الأرض الضحلة ويتقدّمون نحو نبع ماء صافٍ، تتبعهم أشجار محمّلة الأغصان ببعض الأشياء. تدلّهم بعض الفراشات على الطريق. وأولادهم الذين لم تراودهم أيّ شكوك ينتظرونهم عند الخروج من المدرسة. وإذا بيد تلبس كفّاً بيضاء تحصدهم بحركة واحدة واسعة جامعة. ميتات مجّانيّة، عواصف صيفية. ميتات لا طائل تحتها تجعل هذا البلد فاحشاً. ميتات للاشيء أو ربما لتؤمن لقسم من هذا المجتمع البشاعة التي يحتاج إليها.

كنت أحاول أن أفهم، فتحت القاموس ولم أستفد شيئاً. ظلّت الأسماء المدوّنة في يومياتي تتردّد في رأسي بالحاح. في الليل

تجد هذه الوجوه التي كنت أرسمها نفسها تائهة مع هبوط الظلام والضباب. تكرّ مثل الأسلاك الشائكة وتحوّم فوق جثث أخرى. يكشطها مشط زراعي ويرميها في حفرة مشتركة. لا تقاوم بل تنساق إلى الذوبان في أجساد أخرى مخلّعة. أسمع صوت السيدة سيمون تطلب إليّ أن أنقدها. فكيف لهذه الأجساد التي قُتلت صيفاً وخارج الحرب أن تختلط بأجساد أخرى؟ لقد انضمّت إلى ضحايا متشابهة الملامح، ذاكرات متصدّعة. وفي ذهني تنقّل الزمن أسرع ما بين الحاضر والماضي ماحياً الحدود والتواريخ وكلّ منطق.

في ما خصّ "الشرّ" كنت منذ البداية قد اتّخذت عمّتي مصدراً معياريّاً له، أمّا الآن فبات عليّ أن ألحق بها أولئك الذين أحرقوا اليهود والغجر، ثمّ قتلة جلالي وبنساها ورزقي ومهند وسعيد وأحمد ومونس وحمّو وصلاح ومحمد وديار ودهيلي وقبلي وشواش وعلي وعمر وعبد الله ونور الدين...

بسنواتي الثلاث عشرة والنصف وبصفحات قاموسي وفراراتي وتمرّداتي رحت أتساءل عمّا إن لم أكن أنا أيضاً معياراً ومصدراً لـ"الشرّ". ولم يكن والداي راضيَيْن عن سلوكي. فأنا في نظرهم الأمل ومفتاح العالم الخارجي. أقرأ لهم الرسائل وأملأ الاستمارات وأشرح لهم ما يرد في الصحيفة وأترجم لهم، لم يعد لهم غنى عنّي، لا أرتبط إلّا بهم، لكن هم أيضاً مرتبطون بي. ولو كانت جدّتي هنا لقالت: "إنه العالم بالمقلوب". وليس هذا منافياً للحقيقة. بدأت مشاعري تجاههم تتغيّر. لكن كان لي من الطاقة ومن التمرّد ما يمنعني من الحقد على أبي الذي يتلقّى صروف الحياة ويعمل مثل البهائم مضحّياً بشبابه. وفي

الليل أشعر بالندم لأنّني أنساق لمثل هذه الأحاسيس.

كنت أحاول أن أتفهّم لكن في اليوم التالي أكلّمه بالفرنسية وهو ما كان يوتّره ويغيظه جدّاً، وتلك كانت طريقتي في إفهامه أنني أتبرّأ منه. وقد أحسّ أن أكثر ما يخشاه يتحقّق، فهو يخسرني شيئاً فشيئاً. صرت أبتعد عن والديّ وأتقوقع على نفسي، فلا أتكلّم وعندما أنطق أحدثهم بلغة أجنبية. وأحسّا أن أمّاً معادية تسلبهما ابنتهما.

كانت عملية الخطف في الطريق إلى النجاح. فأنا لا أني أتقدّم في المدرسة. أتابع دوماً صفوفاً خاصّة حارقة المراحل ومتفوّقة على الآخرين، خائضة حرباً ضدّ ماضيّ ومواجِهةً بلدي الأصلي ببلدي الآخر، ذاك الذي أبتنيه في نفسي يوماً بعد يوم.

كانت أمّي قد حملت معها من القرية نوعاً من التوابل قويّ الرائحة لدرجة أنّه يعيدني بكلّ كياني إلى حياتي السابقة. وقد تغلّبت على كلّ شيء تقريباً، لكن وحده كبش القرنفل كان أقوى من إرادتي وأعنف من طاقتي. يفوح منه طيبٌ عنبريّ حادّ لا يزول أثره. وكانت أمّي تستعمله كمتبّل في الطاجن وكعطر لها. تدسّ في فساتينها بعض حبّاته ويعبق البيت بالرائحة الكريهة. وعبثاً أسدّ أنفي إذ تجتاحني الرائحة وتصيب رأسي بالدوار ما يسبّب لي حالات من الغثيان وبعض الظواهر الغريبة أحياناً، إذ تنتقل غرفتي في إيفلين لتستقرّ في وسط القرية، وأنا سجينة فيها حيث لا يفتح أيّ باب أو نافذة، وحولي يحرق بخور مخلوط بكبش القرنفل. ليس هو برائحة الموت ولا برائحة نتنة في جسم مريض. يضفي الكبش قرنفل نكهة طيّبة على بعض أطباق الطعام. لكن ليس هذا بل إن لقرفي منه أسباباً أبعد كان

لهذا البهار أثر حاسم فيها بسبب رائحته.

وهذا ما يرجعني اليوم إلى البعيد البعيد، إلى السنوات الأولى من طفولتي. وكان عليّ أن أنبش كثيراً في ماضيّ لأتوصّل إلى أسباب هذا النفور.

في مرحلة ما لم يعد بإمكان عمّتي أن تنام وحدها، وذلك في الفترة التي تركها فيها زوجها وسافر للعمل في فرنسا. فصرنا، أنا وأخي، نتناوب على النوم معها، ولم يكن هناك سوى سرير واحد فنضطرّ إلى الالتصاق بها. كانت تضمّني بين ذراعيها وتضع رأسي بين ثدييها، وهي تلبس في عنقها عقداً من كبش القرنقل، فتنغرز رائحة البهار في أنفي، فلا أغفو إلّا متأخرة. وتحملني هذه الروائح إلى الغابة حيث أواجه وحوشاً فيما أنا بين يدي غولة لم تفغر فاها بعد لتمزّقنا وتفترس كبدنا. وهي ترى في هذا العقد فأل خير يردّ العيون الشرّيرة والسحر الذي يلقيه عليها العدوّ. لكن أيّ قوة يجب أن تتوفّر في العين لكي تتمكن من اقتحام الصخر وإنزال الشقاء به.

لكن حالات نفوري أصبحت جليّة أكثر. فبعد البهار هناك الأسنان الذهبية، ويقال في القرية إنّ المرء يحمل ثروته في فمه. وكم من امرأة حسناء شوّهت فتنتها بسمة! فتلك الأسنان الذهب الملتمعة في الشمس تذهب بالحياء والجمال.

لم تتوفّر لوالديّ الإمكانيات لينعما بأسنان ذهب. كانت النساء يقصدن في المدينة "ميكانيكياً–طبيب أسنان"، قالع الأسنان، كثير الكارات، يؤلمهنّ، لكن يبدو أنه كان يفتنهنّ بعينين كعيني أمير في الصحراء، مشهور بجماله أكثر منه بمجازره. وفي أحد الأيام اختفى

مع ابنة الباشا ولم يُعثر عليهما بعدها. وفي الحقيقة إنّ هذا الدجّال كان فنّاناً وشاعراً صعلوكاً غاوياً هجر عمله وعائلته ليرحل للعيش سرّاً بحبٍّ محرّم. وهذا ما جعله ظريفاً في نظري وقد علمت أن نساءً كثيرات كنّ يحلمن بأن يخطفهنّ يوماً ما هذا الرجل ذو العينين المتّقدتين.

تُوفّيت الوشّامة، والداية في الوقت نفسه، فجأة، في اليوم المحدّد لمجيئها كي ترسم على جبيني مشبكاً محيطاً بعين مفتوحة إضافة إلى سمكة على ذقني. اغتمّت أمّي كثيراً وأنا لم أبالِ. وبعد زمن طويل صرت أستهجن هذه الرسوم على الوجوه. حين كنّا في بلادنا، في ما بيننا، لم يكن لي موقف من هذه العادات. هكذا كانت توسم النساء، فتُعرف قبلتهنّ وقريتهنّ وأحياناً عائلتهنّ. ومنذ أن أفلتّ من هذا الوسم ولم يعد بالإمكان التعرّف إلى وجهي حيثما مررت، لم أعد أنفر منه بمقدار نفوري من كبش القرنفل والأسنان الذهبية.

وقد اجتمعت في عمّتي كل هذه الأمور المنفّرة، وهو ما جعلني أسمّيها "وجه الخراب". لم أعد أميّز ما إن كانت هذه الأوشام هي المرسومة بشكل سيّئ أم إن كانت تكشيراتها ورعشات وجهها واشمئزازها من الآخرين هي التي شوّهت هذه الرسوم. خطوط تتقاطع دونما جدوى ونقاط يتغيّر مكانها دوماً. كان وجهها مضطرباً والأذى الذي تتسبّب به يجعله أكثر تقلّباً. حتى وهي نائمة يتحرك جبينها وذقنها. وتحت الجلد حرب ناشبة وهي وحدها من يعرف ذلك. أما نحن فكنا نتحاشى التحديق فيها كيلا نفسح المجال لأن تطالنا صلواتها وسهامها. وأنا كنت أنظر إليها بعينين منخفضتين خوفاً

أكثر منه حياءً واحتراماً.

طلبت إليّ يوماً بلطف أن أفتح لها كفّي اليمنى لكي تقرأ طالعي، فمددت لها اليسرى مبقية الأخرى وراء ظهري. أنبأني حدس قويّ بأنّها تسعى إلى تشويش خطوط يدي اليمنى كيلا أتمكّن من اكتشاف الكنز. وما إن جذبت يدي إليها حتى أحسست بحرق في راحتي. كانت نظرتها الجامدة تشعّ بالنار. أرادت إذاً أن تحرق راحة يدي اليمنى لكي تمحو نهائياً السبل التي تقود إلى الكنز الذي دفنه والد جدّي في الجبل قبل مجيء الفرنسيين إلى المغرب بزمن طويل.

أفلتّ منها ولذت بالفرار. كان ذلك في الفترة التي لم تُعلن فيها الحرب بعد. وكانت تقول إنها أسيرة قدر شرس وتحدّثنا عن رجل يدعى خليل، أخ لها بالرضاعة تنتظر زيارته منذ سنوات. لم يكن أبي على علم بوجوده لكن بدا هذا معقولاً، ففي بلدنا لا ترضع الأمّ سوى أبنائها. وكان لا بدّ من أن يأتي خليل، فهو الرجل المنتظر لكن لا أحد يعرف له وجهاً. وفي أحد الأيام، في عزّ الشتاء، وصل رجل ملثّم أنهكه السير والجوع والبرد وطلب الضيافة. لم يكن في المزرعة سوى النساء والأولاد، فلم تجرؤ أمّي ولا جدّتي على استقبال هذا المجهول. وخرجت "وجه الخراب" من كوخها وقالت لنا بنبرة استرضائية:

– أياً يكن فلن ندع في الخارج رجلاً لا أسرة له. هذا هو خليل، أخي بالرضاعة.

أعطته غرفتها وانتقلت للنوم عندنا. كان الرجل صافي العينين قليل الكلام، ولا بدّ من أنه، بحسب لهجته، من شمال البلاد. بدا متضايقاً

من نفسه يكرّر الاعتذارات على إزعاجنا. أمّا "وجه الخراب" فكانت راضية، وفي ابتسامتها ما ينمّ عن إحساس بالانتصار. في تلك الليلة قرّرت ألا أنام، تظاهرت بذلك ورحت أترقّب أدنى حركة لأفتح عيني وأتابع المشهد. فإحساسي لا يخدعني وكنت أعرف أنّ عمّتي ستقوم بعمل ما في تلك الليلة.

ما كان يُفترض بهذا الرجل أن ينام عندنا. فكونه لم ينفِ قصّة الأخ بالرضاعة جعل شكوكي في مكانها. وعند منتصف الليل أصبت بالذعر. ماذا لو كان هذا الرجل مسلحاً بخنجر؟ وماذا إن لم يكن إلّا مغامراً يلاحق النساء اللواتي ليس لهنّ من يحميهنّ وماذا إن كان أحد العملاء الذين يسرقون الأولاد ليبيعوهم؟

لعنت عمتي لأنها أدخلته بيتنا ليلاً ونقمت على أمي لأنها لم تكن أكثر تشدّداً في ردّ فعلها. كان الجميع نياماً، وعمّتي تشخر. الليل هادئ، هادئ جدّاً. ما من صوت واحد، حتى الحيوانات صمتت. تعاظم خوفي وأحدق بي ولفّني. بات ضاغطاً عليّ. استشعرت أن أمراً ما سيقع. ولم يحدث شيء. في الصباح كانت عيناي محمرّتين ومتورّمتين، أسير مترنّحة. وكان المجهول قد رحل مع الفجر تاركاً على فراش القشّ تميمة مربوطة بطرف خيط. لم نعرف كيف نفسّر هذه الإشارة. فبحسب عمتي سيعود، وقالت جدتي: "في المرة المقبلة ينام في مكان آخر". ولم تقل أمي شيئاً خوفاً من أن تثير تهكّمات "وجه الخراب". أمّا أنا فقلت في نصف إغفاءة:

- مرّ بنا رجل. رجل ملثّم. هو مجهول. لا بدّ من أنّه يحمل سرّاً ما، ويجب ألّا نثق بالناس الصموتين. أقترح أن نرمي هذه التميمة في

النهر، فإن طفت على وجه الماء يعني أنها مفيدة، وإن غارت فهذا يعني أنّها مثقلة بالشؤم.

إنها المرّة الوحيدة التي أنصتت فيها عمّتي لما أقول. ثم أخذت التميمة وخرجت، فتبعتها. وصلت إلى نبع الماء واختبأت وراء شجيرة. تسلّقت شجرة من دون أن تراني. وانتظرت، وأنا مثلها. الرجل الذي ظهر لم يكن ملثّماً، صفع صفعة قوية "وجه الخراب" التي ارتمت على قدميه تقبّلهما. وواصل ضربها وهو يشتمها:

– لست جديرة بأن تكوني حتّى أفعى. أنت نكرة. ما زال الصبي هنا وبصحّة جيّدة، يبتسم لي كأنه يسخر منّي. فماذا تفعلين الآن؟

ظلّت عمّتي جاثية على ركبتيها ووجهها ملتصق بفخذَي الرجل، تقوم بحركات غريبة حول وسطه. قبلات ومداعبات. والرجل صامت منقاد لها. كانت الشجيرة كثيفة الأغصان فلم أتمكن من مشاهدة كلّ ما يجري. ثمّ أطلق الرجل صرخة ارتياح ورحل تاركاً "وجه الخراب" مطروحة على الأرض وجسمها يرتجف في انتفاضات متتالية.

وحلا لي أن أفاجئها مطروحة على الأرض مهملة خائرة القوى مبعثرة الشعر دامعة العينين. كانت تشعر بالعار. عندما رأتني انقلبت على نفسها وحاولت النهوض فوقعت ثم نهضت بعد جهد وهي تزبد غضباً:

– ماذا تفعلين هنا أيتها العقرب السوداء؟

– لا شيء، جئت آخذ التميمة لأرميها في الماء.

– وماذا شاهدت؟

- لا شيء، لم أشاهد شيئاً. تبعتك وضللت الطريق، هذا كلّ شيء.
- رأيته؟ أليس كذلك؟
- من؟
- أخي، أميري، رجلي وأملي...
- كلا لم أشاهد أحداً.
- كان والدي في حياته يمنعني من رؤية خليل. هو عالم وخبير كبير في النباتات. يعالج المرضى ويمنح الأمل لمن لا أمل لهم في الشفاء. ولذلك كنت ألقاه في الخفاء. هو لا يحبّ أن يراني. يعيش في الجنوب في أحد مزارات الأولياء ويقصده الناس من كلّ البلدان. هو موهوب، سترين هو وليّ.

لِمَ أخبرتني بكلّ ذلك؟ عرفَتْ أنّني رأيتهما. أعطتني التميمة وفتّشنا عن مجرى ماء صافٍ إلى حدٍّ ما. هناك رميت التميمة. طفت بضع دقائق وخرج منها لون أسود ممزوجاً بخطوط حمراء، ولم تلبث أن غارت في الماء. فقلت:
- إنّها إشارة سيّئة.

هزّت رأسها موافقة:
- معك حقّ. سيئة بالتأكيد، لكن لمن؟
- للذي أو التي كُتبت له.
- وفي رأيك ألا يمكن أن يكون هذا السواد الذي صدر منها هو سواد نفسك؟ ألا تحسّين أنّك تفقدين شيئاً من نفسك؟ ألا تشعرين بأنك تفرغين من الداخل؟ أجيبي.

استفزّتني وقرّرت أن أجاريها قوةً فأجبتها مقلّدة نبرتها:

- وهذا الخطّ الأحمر الذي يقلّم السواد، أليس هو القليل من دمك؟ هل أنت واثقة من أنك في هذه اللحظة لا تنزفين دمكِ؟ انظري جيداً إلى يديك وساقيك وأنفك. شاهدي نفسك على صفحة الماء تَرَيْ كم أنتِ شاحبة. والمياه تتحرّك ووجهك يتشوّه ويشوّه هذه المياه النقيّة. وإذا بقيت منحنية طويلاً تتأمّلين وجهك فستتلوّث المياه بصورتك. ولن أتكلّم على روحك، فهي تسكن وجهك وتغلّفه حيث لا شيء بقي في مكانه.

استولى عليها السخط والذهول، وعليّ أنا أكثر. لم أعد فتاة صغيرة، لكن أحسست صوتاً يتكلّم من داخل جسدي، صوتاً آتياً من بعيد. صوت شيخ عاقل، شخصيّة عاشت منذ زمن بعيد واستمرّ في الكلام من عمق قبره. وأنا من دون علمي ألتقط كلامه وأنقله، مقاومةً تلك المرأة الخطيرة. وأنا الوحيدة في العائلة القادرة على ذلك. كانت هذه نعمة تحلّ عليّ من حين إلى آخر، فيتغيّر كلّ شيء فيّ. وتحت أنظاري كانت "وجه الخراب" تتفكّك. وبالرغم من شراستها وسخطها كانت في أعماق ذاتها تكنّ لي بعض الاعتبار، فأنا خصم ندّ لها. وفي المساء كنت أرتجف في سريري وأنا أفكّر في كلّ ما أقوله لها. وعلى كلّ، لم يكن في نيّتي أن أوضح لها أنّني لست سوى رسولة، صوت لصوت آخر، قرن من الزمن مضغوط في عشر سنوات. يسيطر الارتعاش على جسدي وأفتّش في مخيّلتي عن مرجة أنام فيها وأحلم. أحلّق فوق حقل من زهر شقائق النعمان، ثمّ فوق آخر من دوّار الشمس المتفتّح ثم فوق حقل من القمح الأخضر، وأحطّ مثل عصفور على أغصان شجرة مثقلة بالثمار. فيولّي خوفي

بعيداً ويستقرّ عند خطّ الأفق، ما يمنحني الوقت لأجعل الشجرة والنباتات تغنّي. ولم تكن تلك المشاهد تساعدني على النوم، بل بالعكس كانت تنبّهني وتصيبني بالدوار. ثمّ أفتح عينيّ على هذا السواد حيث لا نجمة تلتمع. وتذكّرني الظلمة بسواد التميمة في الماء. الليل متواطئ مع "وجه الخراب"، يقسو عليّ ويرهقني ويرميني في السواد إلى أن أدخل في كابوس بما أن مرجتي تفقد ألوانها وأزهارها وخضرتها وتصبح وهماً وصخرة رمادية مكسوّة بالطحالب الميتة والعفونة. وإذ أضع قدمي على ما ظننته بساطاً من شقائق النعمان، أنزلق محمولة بهبّة هواء عنيفة وأفقد توازني وأعود إلى نقطة البداية، كأنّني مدفوعة بيد معدنيّة فأكرّر مناورتي إلى ما لا نهاية.

ربما بسبب هذه التخيّلات التي ملأت لياليّ في القرية أصبت لبعض الوقت بحساسية على النوم، فما إن أغمض عينيّ حتى يتحرّك كلّ هذا العالم الكالح ويجعلني أعيش حالات الرعب التي توجّهها عن فراشها القشّ محاطةً بالعقارب الساقطة في آنية ماء وأفاعٍ تروّضها وتدعها معروضة حالياً في حوض سمك عتيق اشترته من سوق البرغوث في المدينة تماماً بعد الزلزال بدليل الكسور في زجاجه، التي ألصقتها بنوع من عجين رمادي. وهذا هو الخوف بحدّ ذاته، أي وجود شيء ذي مجسّات، غير مرئيّ ويضرب بشكل عشوائي من دون سبب ولا إمهال. وهذا الشيء كان يؤرّقني وأنا موعودة بنوم عميق، فإذا هو يغرقني فيه ثمّ ينتشلني منه إلى أن أدوخ ولا أعود أميّز النهار من الليل. وكان هذا الشيء الذي سمّيته كلب البحر أو ذئب الوادي أو

ثعلب الأراضي الجرداء يركض في الظلمات تتبعه هبّة ريح باردة تثير فيّ ارتعاشات الخوف.

لم نرَ الرجل الملثّم بعدها، وبعد شهر مات إدريس.

-١٢-

كنت في الخامسة عشرة، وتنتابني مخاوف كثيرة عندما عدنا إلى القرية. وجدنا في انتظارنا جدّتي وأقاربنا وجيراننا، وقد رأى بعضهم أنّ من الواجب أن يتقدّم منّا بعبارة أو اثنتين مطعّمتين بكلام عن القضاء والقدر والصفح، عن قصّة عمّتي التي ظنّ البعض أنها اختفت، والبعض الآخر أنها ماتت غرقاً في بئر ماء، وقد استعادها إبليس الذي أرسلها إلى هذه القرية لتبذر فيها الفوضى وتُلحق الأذى. لم يقل والدي شيئاً، كان يسلّم على الناس ويشرب الشاي شاخصاً إلى الأفق وإلى جدار صغير يسوّر المدافن. وكانت والدتي تبكي بين أيدي النساء. أمّا أنا فكنت أراقب كل ذلك كغريبة ولم أذرف دمعة واحدة. أراقب الشباب محاولة العثور على عينين تأخذانني إلى عالم الأحلام. يومها أدركت كيف تكون اللامبالاة. كأني لم أكن في القرية ولا أسمع أيّ صوت. كأنّني معلقة في الفضاء أو بالأحرى جالسة على بساط محلّق فوق هذه الرؤوس الجوفاء الجرداء بمقدار الوادي. فحتى إنه ليس في هذه الرؤوس ذكريات تتمتّع بها في ليالي الشتاء.

وأدركت أنّ اللامبالاة هي نوع من الذكاء والقدرة على اكتناه

المحجوب ونور داخليّ بسيط يقيني في منأى عن هذه الثرثرات والحركات العبثية التي يمليها الخبث أكثر منه الرغبة الفعلية في قول شيء ما صحيح وصادق.

ألاحظ والديّ عالقين في مأزق التمام الشمل هذا حيث كلّ واحد من أبناء القرية يحاول أن يتّخذ موقعاً يجعله يحظى بالاعتبار في نظر هؤلاء العائدين من الخارج الذين هاجروا ليجمعوا ثروة وعادوا محمّلين بالحقائب والرزم وبأغراض من كلّ الأنواع.

أشفقت عليهما، ثمّ تلاشت الشفقة ولم يبقَ سوى العدم. ولا حتى الرغبة في مصارحتهما بتمرّدي وإبلاغهما بما أشعر به من اشمئزاز وغربة. وعندما يكلمني أحدهم أتظاهر بعدم الفهم وألبث خرساء أو أردّ أحياناً بابتسامة فتاة تسخر من كلّ شيء وتحسّ قلبها بعيداً عن هذا التراب الرمادي وعن هذه الوجوه الكالحة والجامدة. وإذا ألحّوا عليّ أتفوّه بأيّ كلام بالفرنسيّة. كنت بعيدة، وأكثر من ذلك أردتهم بعيدين عنّي.

في الليلة الأولى رفضت أن أنام على فراش القشّ القاسي العابق بروائح البول والعرق وكبش القرنفل. خرجت ملتحفة بغطاء حملته معي من فرنسا ونمت في الهواء الطلق كأنّني في مخيّم مع رفاقي في مدرسة الثلج.

بقيت كل صلة بيني وبينهم مقطوعة. هم دائماً في المكان نفسه، جالسون على حجر أو على مقعد صغير ينظرون إلى الأفق فوق التلال الزرقاء، يقيمون الصلاة بدقة في مواقيتها، يزدردون الوقت بلقم صغيرة لا طعم لها، لا حلوة ولا مُرّة. لكنّ الوقت يسحقهم

بدوره، كلّ يوم يدفنهم أكثر قليلاً في هذه الأرض التي تتهاوى وتهبط بهم إلى مهاوٍ لا قعر لها. هم هناك متمسّكون بالأيّام، مصرّون على الانتظار. لكن ما الذي يتوقّعونه من هذه الجبال الصخريّة التي فقدت كلّ حياة؟ لا بدّ من أنّ صخور الانتظار والنسيان هذه تفتنهم. ومنها تنبعث حيوات أخرى ومصائر أخرى مسلحة بالحجارة وبرزمات العشب اليابس، بالغضب والجنون. والجبال تحرسهم، تراقبهم ليل نهار، مصطبرة، لا يفوتها شيء من شدّتهم المكتومة. هي أيضاً تنتظر.

هجرت آخر الطيور الجائعة هذه الأعالي حاملة بقوائمها شيئاً من هذه الكتلة الصخرية البيضاء التي تخلّت عنها الحياة. هاجرت إلى أماكن أخرى حيث لا يجلس الرجال على أكياس الشعير مستطلعين قبّة الفلك، وحيث النساء يعملن ويغنّين ويضحكن.

هنا أذني صوت يعد بالحياة، حفيف ورقة ورنين جرس صغير ومواء هرّة في موسم التزاوج الذي يبدو كبكاء مولود جديد، والرعد، وفرقعة الجمر وزفير النار...

لم يتغيّر شيء ومع ذلك بدا لي كلّ شيء قديماً جدّاً وجديداً جدّاً. لم تعد عيناي على ما كانتا عليه بعدما رأتا أموراً جديدة وانطبعت فيهما صور أخرى وتشرّبتا وجوهاً مختلفة. بتّ أحمل في ذاتي الكثير من الأمور الجديدة حتى باتت نظرتي حكماً بلا رحمة.

كانت هذه العودة تجربة مؤلمة، عرفت معها الملل والعزلة. فقد انكفأت إلى عالم لا أحد يصل إليه وقبعت أنا أيضاً أنتظر. أنتظر انتهاء العطلة للمغادرة والرحيل من دون التفات إلى الوراء وأبداً من دون عودة.

كانت ذات عينين لوزيّتَيْن وبشرة ناعمة باهتة اللون، وتعيش بعيدة منذ أصبحت خرساء على أثر إصابتها بحمّى قويّة. فقدت القدرة على الكلام وفقط عيناها تُبقيان فيها شعاع حياة. تنظر إلى العالم ولا تحبّه.

كنّا بعمر واحد تقريباً لكن ليس بيننا معرفة تقريباً. عندما وصلت رأيتها في زاوية وحيدة مع أحلامها، فرمتني بنظرة تواطؤ. لم أعرها اهتماماً ولم يكن لي جلد على أن أقرأ في عينيها كلّ ما ترغب في قوله. ومع ذلك فكّرت فيها، فأنا لم أشملها بثورتي على أولئك القابعين يتأمّلون الأفق. ولم أستغرب حين اقتربت تجلس بجانبي وتدسّ ساقيها تحت غطائي. نظرت إليّ وابتسمت لها فضحكت، ثمّ لاذت بي بقوّة كأنها تطلب حمايتي. أحسست جسدها الضئيل يرتعش من البرد. وبقينا لحظة طويلة مشدودتين الواحدة إلى الأخرى مثل شقيقتين، مثل يتيمتين مهملتين. لم أقل شيئاً، رأيت عينيها تغمضان ثمّ أغفت. يخيّم على وجهها حزن هائل. لبثت أضمّها كأنّها طفل ضائع أحسّ نفسه في أيدٍ أمينة. بعد قليل استيقظت أقلّ حزناً وحدّقت بي طويلاً، واحمرّ وجهها كلّه وتشنّج بسبب الجهد الذي تبذله. أرادت أن تكلّمني وحاولت أن تلفظ كلمة. وبعد دقائق انطلقت عبارتها الأولى:

- لست خرساء! اسمي صفيّة.

كرّرتها عدّة مرات وراحت تبكي، فحاولت تهدئتها:

- رائع، لقد شُفيت واستعدت النطق...

- كلا، لم أفقده قطّ!

كانت تتأتئ وتخلط بين الكلام وتوتّر:

- لا. أنا مريضة؟ نعم مريضة. الحمّى، صحيح، لكن بعد الحمّى قرّرت ألّا أكلّمهم.

- لماذا؟

- لا شيء أقوله. كنت أكلّم نفسي في الحقول، وحدي، ربّما كيلا أنسى الكلمات. أنت أوّل شخص أحببت أن أكلّمه.

وأمسكت قبضة يدي تتأمّل بإعجاب الساعة التي أضعها.

- جميلة! هنا لا أحد يحمل ساعة مثل ساعتك. لا حاجة إليها. حدّثيني، احكي لي عن فرنسا... منذ أن رحلتم وأنا أفكّر فيكم كلّ يوم. يا للحظّ السعيد! أنتِ تعلّمت القراءة والكتابة، وتعرفين الكثير.

أخبرتها عن سفرتنا ووصولنا والإقامة هناك، وهي تنصت إليّ مبهورة. وحكيت لها عن العنصريّة وعن موت جلالي. لم تفهم شيئاً. وبعد لحظة صمت لاذت بي وسألتني:

- هل تأخذينني معك؟ أحلم بترك هذا المكان ومفارقة كلّ هؤلاء الناس.

- الناس أم البلد؟

- لا، الناس فقط.

- أنتِ تعرفين أنّ هذا غير ممكن. تحتاجين إلى جواز سفر وإذن من أهلك...

- لا، أرحل معك، لكن مختبئة.

- مستحيل.

ما إن تلمح أحدهم يمرّ بعيداً حتى تلوذ بالصمت. الامتناع عن الكلام هو الوسيلة الفضلى التي وجدتها لكي تهرب من عائلتها، ويا

لها من عائلة! ذاع صيتها حتى بلغ المدينة، وفيها ما يجعل فتاة صغيرة تصاب بالخرس وحسب بل بالصمم والجنون. الوالد مزارع ورث التركة تلو الأخرى، له ثلاث زوجات وسبعة وعشرون ولداً (فضلاً عن نحو عشرة ماتوا صغاراً). وكلّ هؤلاء يعيشون في نفس المزرعة. وقد حجّ الوالد ثلاث سنوات متالية إلى مكة المكرّمة وأسهل عليه أن يعرف بقراته من أن يتعرّف إلى أولاده.

كانت المزرعة كناية عن فسحة واسعة، فسحة الأعاجيب، تحيطها المساكن. وما عقّد كلّ الأمور هو أن اثنتين من زوجاته الثلاث هما شقيقتان، فصار الأولاد أشقاء وأقارب. وفي النهار تصبح المزرعة مسرحاً لا ينقصه سوى الجمهور. لكن كانت هناك مشاهدة واحدة، صفيّة الصغيرة، تمضي وقتها وهي تشاهد، بخرسها وعجزها، مجرى الفوضى الوحشيّة والجنونيّة. صبيان قذرون بملابس سيّئة ينتزعون طربوش أحد الزوّار ويلعبون به كأنه كرة. وبنات بالقذارة نفسها يتقاذفن القطط الصغيرة كأنها دمًى فيما الهرّة تموء إلى أقصى درجات الغيظ. نساء يتضاربن حتى يدمي بعضهن بعضاً بسبب مقلاة أو دلو ماء إلى أن يعود ربّ البيت فيسحب حزامه ويبدأ بالضرب كيفما كان. ومراهقون يلاحقون شقيقاتهم من غير أمّهاتهم إلى مخزن التبن ويرغمونهنّ على الكشف عن نهودهنّ لهم. وأمّهات يضربن أولادهنّ بغضب. وعندما لا يتضارب الأولاد يتلاعبون بإحدى الجدّات، خصوصاً بتلك العجوز التي فقدت بصرها فيوقعونها في حفرة مليئة بالوحل، حتّى إنّها تُجرح أحياناً. لقد انعدم السلام كليّاً في هذا المنزل المسكون بكلّ أنواع الجنون.

كلّ هذا جعل صفيّة الصغيرة تلوذ بالصمت المطبق في انتظار أوّل فرصة سانحة لكي تهرب من هذا الجحيم. وقد أفلت زمام الأمور من يد الأب فتغاضى عن كلّ ذلك ولم يتدخّل إلّا إن كان هو نفسه معنياً.

كانت عمّتي على علاقة بإحدى الزوجات الثلاث تجود عليها بالنصائح وحتى ببعض الأعشاب التي تعطّل تيقّظ الزوجتين الأخريين. وكانت والدتي على علم بكلّ ذلك وقد حظرت علينا التردّد إلى "مزرعة الجنون" هذه كما كانت تسمّيها، والتي لحسن الحظّ كانت تقع في الجانب الآخر من التلّة.

رجتني صفيّة وهي ملتصقة بي أن أساعدها. لم يكن عندها من تكلّمه أو تكشف له عن مكنوناتها. وحدها جدّتها العمياء كانت تحبّها لكنّها بدأت تفقد ذاكرتها وتظنّها حفيدة أخرى. وكانت تهمس في أذنها أنّها فقدت صوتها لكن ليس معها.

في خلال إقامتنا سكنت صفيّة عندنا. لم يقلق غيابها أحداً. ومرّ الوقت ثقيلاً أكثر من ذي قبل. وأهديت ساعتي لصفيّة فبكت من الفرح. أمضي فترة ما بعد الظهر وأنا أعلمها معرفة الساعة، وفي آخر النهار راحت تنبئني بالوقت كلّ ربع ساعة. وفي المساء ذهبت لزيارة جدّتي التي تأكل وحدها. ما زالت ذاكرتها سليمة تماماً، وكان عندها الكثير تخبرني به:

– بعد رحيلك، البقرة التي كانت تدرّ لنا الحليب كلّما احتجنا، تذكرينها، تلك التي كانت تتعرّف إليك ولا تسمح بأن يحلبها أحد غيرك، هذه البقرة أصيبت بالهزال ولم تعد تدرّ حليباً. ما إن نقترب منها حتّى تركلنا. كانت صديقتك وأنت حاميتها. لم تتحمّل هجرك

إيّاها. وقد اضطررنا إلى التخلّص منها. أمرٌ آخر، قصّة عمّتك آذتنا كثيراً. أعتقد أنّها انتهت بطريقة سيّئة وأنّ نهايتها كانت مؤلمة. أعتقد أنها كانت تستهدفك أنت نفسك، ولم تظنّ أن إدريس سيأكل ذلك المساء. عاقبها الله على الأرض ولنا عدله في العالم الآخر.

يا صغيرتي، أنت كبرت وتغيّرت. وحيثما ذهبت تبقين بنت والديك وبنت هذه القرية. لكِ أن تعرفي اللغات والبلاد، لكن مسقط رأسك والأرض التي احتضنتك، والسقف الذي آواكِ والناس الذين أحبّوك والأيدي التي حملتك لترضعك والنسيم الذي غمرك ببعض البرودة صيفاً والشجرة التي ظلّلتك، كلّ هؤلاء حيثما كنتِ لن ينسوك أبداً. هذا هو بلدك وهذا هو وجهه. لا تظنّي أنك ستتخلّصين منه بمجرّد أن تتعلّمي. جذورك ما تزال هنا تنظرك وهي التي تشهد لك في يوم الدينونة.

ما لكِ وللمظاهر والتخيّلات والصور المنعكسة في المياه. كلّ هذا زائل، وحدها الأرض التي أبصرت فيها النور تبقى في زاوية من قلبك. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. حسناً والله هو أيضاً الأرض، ونحن لهذه الأرض ولتلالها وجبالها وإليها نعود. هيّا يا ابنتي، عيشي حياتك وادرسي واقرئي وخذي علوم الحساب والبحار، وتعلّمي حركة الكواكب، ابحثي عن المعرفة حتى وإن كانت في المقلب الآخر من هذه القارة، لكن لا تنسي أبداً من أين أتيت ولا تذكري أبداً مسقط رأسك بالسوء. أحبّيه وأكرميه مثل أهلك. عبثاً تحاولين، ولو وصلت إلى آخر العالم، أن تحرّكي هذا المكان أو تجعليه أكثر جمالاً ورأفة ممّا هو عليه. كما تعلمين، لا أنا تعلّمت القراءة والكتابة،

ولا أمّك. أنت أوّل فتاة في القبيلة تذهب إلى المدرسة، وليس أيّ مدرسة، إنّها مدرسة المسيحيّين. لكن لا أنا ولا أمّك فارغتا الرأس. نحن نعرف أموراً أخرى لا يعلّمونك إيّاها في المدرسة. أيدينا مثلاً مثقّفة أكثر من رأسينا، وأقدامنا تعرف أماكن لم يصفها أيّ كتاب. وجلدنا اختزن الكثير من الشمس والمطر، وتكفينا حواسّنا لنميّز الحديث من القديم. مدرستنا هي الطبيعة، هي ما أورثنا إيّاه أسلافنا طوال إقامتهم هنا، على هذه الأرض، في هذه القرية المحشورة بين جبلين. وفي النهاية إليكِ نصيحتي الأخيرة: لا تثقي بالنساء اللواتي يعرضن عليك قراءة خطوط كفّك. اذهبي ولا تلتفتي إلى الوراء، بكلّ اطمئنان. عليك رضاي!

كنت خافضة العينين وأنا أنصت إليها. قبّلت يديها من دون أن أقول شيئاً ونمت ملتصقة بها. ليلاً فكّرت مجدّداً في صفيّة الصغيرة وأنا لا أعرف كيف أمدّها بالشجاعة لكي تصمد هنا من دون أن تغرق في المرض والموت البطيء.

بعد أيّام فتّشت عنها لكي أوضح لها أنّني سأغادر من دونها. كانت قد اختفت. لم يحسّ أحد بغيابها. وراح خمسة عشر من إخوتها من أمّها وخالاتها يفتّشون عنها. توجّه بعضهم إلى الجبل، والبعض الآخر إلى الوادي، أمّا أنا فتبعت حدسي. شعرت بانقباض في قلبي. عرفت أن هذا الفرار لم يكن مجرّد نزهة تاهت فيها وحسب. آلمني جسمي كله. وفي الليل رأيتها في منامي سعيدة على مركب يبحر بها مثل محراث صوب اليابسة، كانت تضحك، وفي ضحكتها هذه ما يغيظ. توجّهت إلى البئر وناديت باسمها. وحده صدى صوتي

أجابني. فكّرت أن أستطلع ناحية المدافن. وجدتها هناك جالسة عند قبر إدريس. لم تُفاجأ لرؤيتي وظلت تنظر إلى الأفق صامتة. دنوت منها وأمسكت وجهها بين يديّ محاولة أن أقرأ في عينيها. كانتا فارغتين مثل بيت مهجور. ويداها باردتان. كلّمتها فلم تتفاعل. ليس فقط أنّها عادت خرساء بل أصبحت صمّاء أيضاً. أخبرتها بكلّ ما قالته لي جدّتي في العشيّة. لم يتحرّك وجهها. لا شيء يؤثّر فيها. كانت الحياة تفارقها ببطء وهي تنتظر النهاية على قبر ولد كان يمكن أن يصبح صديقها ويتفهّمها ويرحل بها بعيداً، بعيداً جدّاً عن هذه القرية.

-١٣-

جوادٌ أعور بأجنحة ورقيّة يعدو دائراً حول ساحة قصر من رمل. تارة يمتطيه ولد، وطوراً صقرٌ عملاق، ومن وقت إلى آخر ينتصب واقفاً على قائمتيه الخلفيّتين ليحيّي أميراً مجهولاً لجأ إلى مبنى لا يحدث فيه شيء، حيث ينتظر بعض الجنود الإسبان منذ مئة سنة وستين من يوضح لهم أسباب سجنهم وراء هذه الجدران، يرفعون العلم كلّ صباح ويتناوبون على الحراسة هناك، في مواجهة الرمال، في مواجهة البحر، في مواجهة الجبال الجرداء حيث لا عشبة تنبت، وحيث الحجارة وحدها تتراكم لتؤلف صخرة لا تلبث أن تتفتّت مع الأمطار المقبلة شرط أن تشكّل سيولاً عارمة، وهي الفرصة الوحيدة لهؤلاء الجنود المنسيّين لكي يحسّوا بنفعهم، فيخرجون المجارف ويرفعون الركام من المبنى الذي تحوّل ليوم واحد مكاناً توقّف الزمان فيه، وقد وضعت التقارير وأرسل بعشر نسخ إلى القيادة العليا في الأندلس التي تتذكّر أن لها كتيبة على الشاطئ الآخر من البحر المتوسّط حيث تؤمن لها وجوداً وهميّاً. لكن أياً من الضباط لم يتوقّع أن يعمد هؤلاء الرجال إلى صناعة أجنحة وإلصاقها بجواد مسكين أعور نصف مجنون.

جنود ما عادوا يطيقون حراسة البحر، فقدوا رشدهم الواحد تلو الآخر.

اجتمعت في شبه الجزيرة هذه أقصى حالات الضجر والجمال، هي جزيرة قميرة (باديس) الواقعة شمال شرق المغرب. وقريتي هي في الجنوب الغربي منها. ومع ذلك أنا أدمجهما اليوم في صورة واحدة، ذكرى منسوجة بخيوط متنوّعة الألوان، لكنها تولّد نفس الانطباع، إحساس الذات بعدم جدواها، لا روابط بها سوى تلك التي تنغرز في الأرض وتغور فيها حتى تضيع.

كنت الحصان المجنون والولد الذي يمتطيه. الجزيرة والسور، الملل والفراغ، جمال المساء وخلود الصخور. أدور في القرية كالمجنونة في تلك الليلة الأخيرة قبل الرحيل. فقدت كلّ يقين. أروح وأجيء، أحتفظ بالقرية، أذرع طرقاتها وأحصي الموتى في المدافن وأسِمُ الأشجار بعلامات، أذهب من بيت إلى آخر، مسائلة السماء ومحاولة أن أستدلّ، لا على كوكبي، بل على كوكب الرجل الذي سيأتي ليحرّرني.

كنت أسيرة جسدي، حيث الرغبة، تلك الحرارة الغريبة التي ترعش، تتولّد وتتحرّك فيّ ثم تزول. أبقى ساعات في انتظارها. وهذا يتطلّب الحلم، الابتعاد عن هذا المكان العقيم حيث لا رجل واحداً كفيل بأن يطفئ هذا اللهيب في الأحشاء والرأس. أحلم وأستعيد صورة الغريب الذي أهدى إليّ مزماراً. أتفرّس في وجهه مارّة بيدي على لحيته، لكن عندما أنظر إليه عن كثب تتغيّر ملامح وجهه. فلا يعود وجه شابّ، بل وجه أحدهم، جارٍ أصبح جَدّاً.

أدركت أنّ هذه الحرارة لا يثيرها وجود رجل، بل الطبيعة التي تصبح ليلاً عذبة جدّاً وأكثر غموضاً. فالليل هو الذي كان يولّد فيّ هذا التشوّش وهذا الانفعال غير المكتمل. الليل والنسيم وحفيف الأشجار وصمت التلال.

ما من رجل سيأتي ليضمّني ويداعب وجهي تحت الشجرة في هذا الليل الطويل واللطيف. ما من يد يمكن أن تهدّئ هذا التوق إلى إنسان يجعلني أنسى نفسي وأغفو مطمئنّة سعيدة بين ذراعيه.

استولت عليّ صورة الحصان الأعور. غرز أحدهم العلم الإسباني في قذاله وأطلقه في الساحة. كبا ثمّ نهض وواصل جريه. سقط مجدّداً ولم ينهض هذه المرّة. أُرهق الجواد وأنا لم أعرف ماذا أفعل بصورة الحيوان البائس الملقى على جانبه يسيل رواله ويبكي بعين واحدة. وتراءت لي الصغيرة صفيّة، لم أعرف كيف أزاحت هذه الستارة وتسلّلت داخل قصر الرمل هذا. اقتربت من الحصان وداعبت جبهته، وبيد قوية سحبت السهم المزروع في قذاله. حاول النهوض فلم يقوَ على ذلك. لامسته مجدّداً وهمست شيئاً ما في أذنه، وإذا هو بقفزة واحدة يقف على قوائمه. وصعدت صفيّة إلى كومة حجارة وامتطته. قام بدورة وتوقّف ثمّ غاب في ضباب الفجر.

أراحني ذلك. فقد وُفِّقت صفيّة إلى رفيق وبلد وحلم. ولم يعد الجواد ألعوبة لزمرة من المخبولين المعزولين في مبنى لا شيء يحدث فيه.

بات بإمكاني الرحيل ومغادرة القرية من دون أن أفكّر إلّا في المنزل الذي أبصرت فيه النور وفي المكان الذي تغرز فيه جذوري

والتي ستعطي يوماً زهرة أو نبتة تشفي من هذه الكآبة.

استعدت ما قالته جدّتي لكن لم أعرف كيف أتمسّك بقطعة من أرض هذه القرية وأحتفظ بها كملاذ أو كواجب تجاه القبيلة. ماذا يفعل الآخرون لكي يفضّلوا بلدهم على كلّ مكان آخر؟ لماذا ظلّ والداي حتى ذاك اليوم متعلّقَيْن بهذه الأرض؟ كنت مثل صفيّة متحرّقة للرحيل إلى أيّ مكان.

الآن تغيّرت توهّماتي. ولم تعد عودتي إلى فرنسا من أجل تعلّم العيش، بل لتعلّم المحبّة.

أمل والداي كثيراً أن يرياني أتغيّر بعد هذه العودة إلى بلدنا. كانا في قلقهما المكتوم يتوجّسان من اللحظة التي تطرأ فيها التغيّرات في حياتي كفتاة صبيّة. فقد سبق أن فُقدت فتيات كثيرات بعد فرارهنّ، وأخريات انتحرن لأنّ الوالد قرّر في يوم ما أن يرسلهنّ إلى بلادهنّ لتزويجهنّ.

وقائع الأحداث في جماعتنا مليئة بهذا النوع من العنف. كنت أعرف ذلك كما أعرف أن والديّ لن يعاملاني بهذه القساوة. ولم أعد أعمل على استفزازهما، بل تركت للقدر والصدفة أن يفعلا ذلك. كانت تغريني الأوضاع الصعبة لكن لم أسعَ وراءها.

في الخامسة عشرة من العمر لا نفكّر في الحياة، نحبّ أن نحلم ونبني صروحاً بأنسجة حريريّة أو قطنيّة، ثمّ نحرق كلّ شيء لنستأنف ذلك في اليوم التالي.

كان لا بدّ من أن يقبل عليّ وجه الحبّ ويحملني بعيداً عن هذه المدينة التي باتت أشبه بمخزن كبير مقفل بسبب الإفلاس وتدخله

القطط عبر ألواح الزجاج المحطّمة لكي تتزاوج بكلّ اطمئنان. أرض شاسعة مهجورة أو قفر مزروع بالصفائح والخزانات. بالتأكيد لن يأتي الحبّ من هناك أبداً. لن يمرّ حتّى بهذه الطرقات الترابية حيث تنطفئ الأنوار لجعل الأشياء تنام كما في السجون.

قد يتّخذ الحبّ وجهاً مثل الزمن أو الكآبة أو الخوف. ومع هذا الوجه الذي ما زال فارغاً كنت أعيش مرسّخة في نفسي يقيناً واحداً وهو أنني يوم أقع في الحبّ سيكون ذلك بشغف قد يصل بهذا الحبّ إلى حدود الموت، ويبذر الفوضى والجنون. كنت مهووسة بهذه الفكرة الثابتة، بهذه النكبة التي لم تصدمني بقوّتها.

كان هذا الحبّ الطاهر، المجرّد، ينتظر في عمق إحدى جوارحي. وأنا أجيد الانتظار، تكفيني فكرة أن أحبّ يوماً ما وتغبطني وترافقني حيثما ذهبت. إنه الحبّ المتفتّح.

وقد حدث لي وأنا مشغولة برسم بعض سمات هذا الوجه أن أراقب والديّ في حياتهما، هل كان بينهما حبّ؟ أما يزالان متحابّين؟ هل شغف واحدهما بالآخر؟ وهل عاشا هذا الحبّ في الخفاء قبل الزواج؟ وهل يتبادلان الكلام على تعلّق أحدهما بالآخر؟

بهذه التساؤلات كنت أرى نفسي سخيفة متضايقة من هذه الوقاحة هذه الحشرية غير المعهودة عندنا. ليست هذه أسئلة تُطرح حتى ذهنياً على النفس. ففي هذه العلاقة أمرٌ بديهي وهو أنّ هذين الرجل والمرأة المنحدرين من نفس القبيلة والمتكلمين بلغة واحدة ويطبّقان العادات نفسها متحابّان إلى أقصى الحدود. فقط إن حبّهما طبيعي، جليّ مثل طلوع ضوء النهار الذي يوقظ ولداً نائماً، بسيط كما

الخبز الذي تعدّه أمي في القرية وناعم مثل نسمة الصباح على الزنود العارية، وهو مثل التنفّس ضروريّ ومهمّ وتلقائي. وهو حبّ فريد، لا يباح به ولا يوصف، قائم وباقٍ خارج الكلمات. يعيش بأبديته، بخلوده. كلّ نظرة تلقى عليه وتحاول أن تستنطقه هي نظرة متطفّلة، نظرة زائدة لأنّها مكسوّة باللاحشمة والعار.

كان من الممكن أن يكون أبي وأمي نسيبين، لكنّهما قبل الزواج كانا مجرّد جارين. تنتمي عائلتاهما إلى العشيرة نفسها. وفي هذه القبيلة ليست كلمة "حبّ" متداولة، بل تترك لمن يفشل، رجلاً أو امرأة. "وقعت في رجل"، فالمقصود إذاً السقوط والحرمان. ليس الحبّ استعراضاً مشهديّاً، لا يسير الحبيبان يداً بيد. يحيّي الرجل زوجته مصافحاً. القبلة على الجبهة أو على الخدّ لا تعطى أمام الآخرين ولا حتى أمام الأولاد. لا أذكر أنّي رأيت أبي يوماً يطبع قبلة على وجه أمّي. ومع ذلك فإنّ حبّهما متين تكمن قوّته في هذا الجمال الداخليّ السرّي الذي لم يُعطَ اسماً قطّ. يتمثّل بأكمله في حركة واحدة، العينين المنكسرتين.

حكماً كان الحبّ الذي أتوقّعه مختلفاً. لا هو متين ولا أبديّ بل خاطف. ارتسم الوجه بسرعة وغمرني بكلّ جوارحي، وشغل أيّامي ولياليّ لكنّي لم أرَه قطّ. كيف استقرّت هذه الصورة فيّ لدرجة جعلتني أؤمن بقوّة بأن وراءها جسماً واسماً وحكاية جميلة؟ ما الذي قمت به لكي أصاب بصاعقة نور ساطع يدلني على طرق الحبّ؟ كنت أفتّش حولي محاولة أن أكتشف هذا الوجه الذي أنسى سماته أحياناً. لم أعد أعرف إن كانت عيناه زرقاوين أو خضراوين،

إن كان جبينه عريضاً أو ضيّقاً، إن كان فيه غمّازة على كلّ خدّ أو فقط في الذقن، إن كان شعره أشقر أو كستنائياً... إنّها صورة متغيّرة ووجه محيّر لكن النظرة نفسها، رائقة هادئة فيها عمق بعيدة وشعلة متأججة. لم يكن لهذا الرجل، هذا المجهول الجميل، وجود. بل إنّ توهّماتي ومخيّلتي تساعدني على الابتعاد خارج جدران الباطون في بنايتنا. كنت في نهاية المطاف ضحيّة راضية سعيدة بهذه اللحظات الحارقة وتعيسة لاضطراري إلى العودة إلى غرفتي الضيّقة حيث تتشكّل وجوه شهواتي العابرة ثم تختفي.

أحببت كثيراً هذه اللعبة إلى اليوم الذي اكتشفت فيه أن وجه الحبّ هو قناع من شمع، أسهو عنه في إحدى انخطافاتي إلى القرية، فيذوب بحزن تحت حرارة شمس البلاد. ليس هذا الوجه مهيّأً للعيش في مسقط رأسي. وربما فقد شيئاً فشيئاً قسماته حتى يصبح مسطّحاً لا شيء مميّزاً فيه. فقط العينان تحافظان على ألقهما. فلا يبقى لي إلّا التخلّي عن هذه اللعبة لكي أتعلّم مجدّداً كيف أنظر إلى الناس من دون السعي إلى معرفة ما إن كانوا يلائمون الصورة التي أحتفظ بها في أعماق قلبي.

بات رأسي مرهقاً، وصارت تنتابني حالات من الغثيان. فقرّرت أن أنصرف كليّاً إلى الدراسة خصوصاً أنّني كنت ما أزل في القسم الخاصّ، متأخرة، مع الانطباع بأنني لن أخرج أبداً منه.

أقول في نفسي فيما ألعب لعبة الحجلة: "الحبّ لعبة مسلّية، حبيبات بلّورية مزروعة في راحة اليد، دبّوس من البلّور يجري في الجسد، نافذة مفتوحة على نبات السرجس وعلى بيانو، شمس وعين

في جين وبحر متألّق وليل يـدّده عدد لامتناه من النجوم، واليأس ملفوفاً بصحيفة قديمة..." استمرّ الحبّ يذرّ رأسه بين الدروس وبيني، بين أهلي وبيني.

راودني على الدوام إحساس بأنني سأجد شيئاً أضعته، وبأنني ألملم الأشياء من آخر موسم وأرحل مجدّداً إلى بلاد وراء كلّ البلاد حيث يبدل الشقاء بالذهب وحيث يجري التفاوض على الموت وأخيراً حيث يمتلئ وجه الحبّ ويفرض نفسه ويتحقّق جميلاً وقاسياً، نبع ماء وحياة. وجه من رمل تكفي نسمة لتبديد ملامحه والقليل من الماء لكي ينتعش وتتجمّع لياليّ في هذه الوحدة لكي تلفّ هذا الجسد الفارغ إلى أن أجد نفسي مجدّداً فتاة صغيرة في قطعة من مرآة محطمة تهتزّ فيها كلّ صورة، مفعمة بالحياة ومرنّمة الكلمات التي أعطتني الحياة وجعلتني أكبر. كلمات تطوّقني وتطوف حولي في دائرة مرسومة بريشة شاعر نزل في القرن الماضي في هذا البلد قبل أن يترك على الحجر بصمة من شفتيه ويغيب نهائياً في كتاب عظيم قلّة من الناس قرأته.

هذه المرّة وقع القاموس في فخّ طائر بعثر صفحاته في مختلف أرجاء الجزيرة، وامتطت بعض المقاطع اللفظيّة الأحرف وطارت ثمّ حطّت على كومة من الجمر. وتبدّد كلّ شيء دخاناً ثمّ وقع الرماد في يديّ اللتين راحتا تكتبان بطريقة مسعورة لكي تتخلّصا من هذا السخام الرماديّ. انطبع على جلدي ما يمكنني أن أنظم به ديواناً من الشعر، لكنّ الفوضى والريح أصابتاني بالدوار. بكلّ هذه الألفاظ نجح الطائر في تهكّماته. كان بإمكاني أن أجعل منها مكتوب حبّ،

رسالة طويلة كُتبت في القرن الماضي حملها طائر مهاجر مهيض الجناح، لكن كان من حقّي أن أنتظر وأتسلّم رسالة الحبّ الطويلة هذه، غير المستكمَلة، من مجهول، من رجل ما في الآفاق، رجل من عمق أعماق غفوتي، ذاك الذي سيأخذني بيدي ويهمس الكلام لفمي:

يا نور الأنوار
وحلم حلمي
ونبع الماء والألفاظ
والصمت الذي يُطلع الضوء
ادفع هذا الباب في الشجرة
هناك مسكننا
هناك تتهاوى تغضّنات السماء
وتشعّ أنت بالضوء

-١٤-

"كنيزة، كنيزة، كنيزة... أذرع المنزل الكبير قبالة البحر وأتأمّل السماء المزرورقة مكرّراً هذا الاسم. ألفظه بأشكال مختلفة وأنتظر على أمل رؤية وجهك ينبجس من هذا الضوء الذي يجتاح الجدران ويدور حول قصّتنا على وجه الرمال.

كنيزة! سأدعوك بهذا الاسم. ليس لأنّه يذكّر بالكنز الذي خبّأه جدّ الأجداد في الجبال، بل لأن هذا الاسم، حين أرسمه أو أسمع صداه في العتمة، يشبه نظراتك عندما تعجزين عن فهم كلمة أو حركة وعندما ترفّ عيناك بهدوء بهذا التهكّم الساعي إلى التواطؤ. أحبّ هذا الاسم كما هذا المشبك الذي تبقينه في شعرك شاهداً على الطفولة، في هذا اليوم الذي تبلغين فيه سنواتك العشرين وتحاولين أن تضفي على وجهك مسحة جدّ لا تخلو من اليأس. هنا تجلسين مغفية على تلك الأريكة القديمة، رجلاك مطويّتان بين يديك منوّرتان بشعاع من نور الشمس. وسط حلاوة الأشياء والمكان هذه أنظر إليك من دون أن أدنو منك كثيراً خشية بلبلة أفكارك المتدافعة لتتحوّل صور حلم ما يزال في بداياته، وحتى من دون أن أصيخ لأسمع أصوات ذاك الذي

يجعلك تبتسمين. أنظر إليك لأعلمك وأتروّى قليلاً في رسم هذا الجسد المتكوّم على ذاته. أحاول أن أفاجئ الروح المطمئنة في هذا الجسد الذي يتخبّط وسط دوامة من آخر الذكريات الكثيرة التي رطّبتها بحفنة مياه صافية على ضفة ذاك النهر حيث تغسل النساء أثوابهن وهنّ يغنّين جالسات على حجر الغسيل، وسراويلهنّ المبلّلة الملتصقة بمؤخّراتهنّ تثير رغبة جامحة، بريئة، ليس عند الرجل المارّ بالمكان، فما من رجل يمرّ هناك، بل عند من يتصوّر منظرهنّ عندما تتناهى إليه شذرات من غنائهنّ المرح أحياناً والحزين أحياناً أخرى.

أراقبك إلى أن أضيّع وجهك في المشهد المهتزّ وأجد نفسي وحيداً في ذلك اليوم الذي دخلت فيه محترفي، عن طريق الخطأ أو الصدفة. دفعت الباب، وما يزال مفتوحاً، ودخلت على رأس أصابعك تتطلّعين يمنة ويسرة بحثاً عن شيء غير محدّد، ربّما عن لا شيء، وربّما عن كلّ شيء، ثمّ وجدت نفسك أمامي، بالكاد استغربت وبالكاد فوجئتِ. بمنظرك هذا يتولّد انطباع بأنّك عدت إلى مكان تألفينه زرعت فيه بعض الذكريات وضربت فيه موعداً للقاء طالما حلمت به وترقّبته بصبر، لم يُحدّد قطّ.

يصحبك ضوء خافت، هو الإشارة على أن النهار سيكون مميزاً، وربما مهمّاً ومؤثراً. أنت لا تعلمين كلّ ذلك، ومع ذلك تتوالى الأسئلة عبر عينيك بما فيهما من نعمة تكاد لا تخفى، النعمة نفسها التي غالباً ما تكون في أساس الأعمال العظيمة أو الأحداث المصيرية.

منذ ستة أشهر توقفت عن الرسم، أو تحديداً بتّ عاجزاً عنه. كلّ صباح أجلس إلى طاولتي كما دأبي منذ عشرين سنة وأحاول وضع

مخططات أو رسوم أوّلية وألبث ساعات متأمّلاً الورقة البيضاء إلى أن تتراءى لي عليها صور مهتزّة ومتفلّتة، فأحاول إيقافها وتثبيتها، لا لرسمها بل لأعرف حدودها وتشكّلها، بدافع الفضول، وعلى أمل التخفيف من قلقي.

ستّ ساعات من الأرق والخربشة والانتظار. لا يسعني أن أقول لكِ اليوم إنني كنت أنتظركِ. سترمين في وجهي وعاءً من الطلاء السائل أو كوباً من تلك المياه الوسخة التي تُغمس فيها ريش الرسم. ومع ذلك إنّها الحقيقة. عندما وصلت مدفوعة بنور شمس دافئة، لم أفاجأ. وأنت لن تصدّقي ذلك وما كنتِ لتعلمي به.

كنت وأنا ولد أراقب طويلاً نجوم السماء، وبي اقتناع بأنّ لكلّ إنسان نجمته الخاصّة. فأرصد نجمتي وأتتّبعها طوال الليل حتى بزوغ الفجر. وبعد سنوات طويلة ما يزال هذا الاعتقاد يلاحقني، ولذلك أعزو النعمةِ والنور المحيطين بك إلى النجمة التي تحملينها في ذاتك.

ومع الوقت انتهى بك الأمر إلى معرفة ذلك، ولا تقولين شيئاً. عندما تكلّمينني تخفضين عينيك كأنّك تخفين إحساساً ما، وأنا أحاول التقاط ما في نظرتك والاحتفاظ به أطول فترة ممكنة...»

لن يلتقط هذا الرجل شيئاً. يظنّ أنّني شيء صغير وديع يمكن تكويره بين اليدين والاحتفاظ به إلى ما شاء. هو ليس مخطئاً وحسب، بل هو رسّام سيّئ. وكلّ هذا غلطتي، كان عليّ التوقف في مكان آخر. ظننت أنّ الفنّان مؤهّل أكثر من غيره لتفهّمي. لكنّ الفنّانين أنانيّون، لا يرون الآخرين، أو إن رأوهم فذلك دوماً وفق حاجاتهم.

ضربت صفحاً عن هذا الفنّان، لكن لم يمنعه ذلك عن الاستمرار في مراسلتي والاعتقاد بأنّني نجمة في سمائه.

ما كان لبشاعة مدينتنا ووحشتها أن يوحيا لي بمستقبل ما أو يزرعا في نفسي الطموح. ولم أعد أفكّر، إذ لم أعد أجد ذلك مجدياً. لكن ازدادت أكثر فأكثر قدرتي على الحلم.

كانت مدينتي أشبه بمصنع مجرّد من الألوان. لا مقهى فيها ولا سينما. لكن كان هناك كشك لبيع الصحف، هو في الوقت نفسه مركز لبيع التبغ والخمر. فقصدته بحثاً عن كتاب، أيّ كتاب. قالت لي السيدة إنّه يجب أن نطلبه وننتظر عملية التسليم التالية. ثمّ سألتني:

– أيَّ كتاب تريدين؟

– أنا حائرة، وما همّ العنوان! ما أريده هو كتاب، أعني رزمة صفحات فيها شخصيّات متمرّدة ومكائد ومشاعر وشمس...

– كلّ هذا لا يوحي لي بعنوان الكتاب.

– **نظرة الأصمّ**... هذا هو... إنّها قصة رائعة.

– هل سبق أن قرأتها؟

– تقريباً...

دوّنت السيدة عنوان الكتاب وطلبت منّي دفع عربون وكرّرت مستغربة ومشكّكة... "**نظرة الأصم**! تُرى ما الذي سيأتونني به!..." وغادرتُ فرحة مرحة. كان هذا العنوان يحاصرني، يطالعني على الجدران الرماديّة، وعلى الوجوه المكفهرّة، على اللوحات الإعلانية حيث الدعاية المبتذلة لمزيل الرائحة تمّحي لتخلي المكان للأصمّ ونظرته، فأشاهد عليها شخصيات تتدافع وتتكلم وتومئ بأيديها.

ستتحوّل المدينة أخيراً إلى ديكور لحبكة روائية آتية من البعيد، ولا يُفترض بشخصيّاتي أن تغادر فيها النطاق الذي سأرسمه لها.

"كانت الحياة مثل النوم!" يعاودني بيت الشاعر هذا وأنا في مواجهة هذا الجدار العريض والمرتفع الذي يستند إليه مبنى تعيش فيه حوالى مئتي عائلة.

تبدأ قصتي من هذا المكان، وأنا الوحيدة التي أعرفها وأخبرها، وكان هذا الجدار أفقي ومرجي والصخرة التي ترتطم بها تصوّراتي.

وحتى اليوم لو لم يُهدم المبنى لأمكن رؤية شريط كلّ تصوراتي إذا ما حُكت الصخرة.

ولا شيء في هذه القصة هو تماماً كما نتخيّله، وهو أمرٌ مفروغ منه لأن الجدار المواجه لشبّاكي لا يولّد سوى قصص غير معقولة.

كان فيكتور مربوع القامة، إذا ما أمسك بيدنا مسلّماً كاد يسحقها. يُقال إنه طاعن في السنّ لكنّ جلد جسمه لا يتغضّن. يبدو أن هذا نوع من الأمراض. تراه جالساً ينتظر على كرسيّ ينطوي، ينتظر منذ زمن طويل. تبقى عيناه مفتوحتين بواسطة شبكة من الخيوط الشفافة، ممتلئتين احمراراً. لا يفوه بأيّ كلمة، يدخّن سجائر من النوع الرديء ويبصق في الأرض من حين إلى آخر، وبسرعة يغطّي الذباب بصاقه المائل إلى الاصفرار، فيموت بعضها على الفور، فيما يروح البعض الآخر يتخبّط في هذا الرغوة الجرثومية. ولا يترك فيكتور من السجائر أعقاباً. يدخن سجائره إلى آخر أنملة. شفته السفلى محروقة، زال احمرارها وصارت باهتة مرقطة بنقط سوداء.

لا أعرف من أين أتى. في أحد الأيّام، فيما كنت أفكّر في هذه

القصّة، وصل حاملاً كرسيّه الذي ينطوي وجلس من دون أن يدعوه أحد. فرض نفسه حتى من دون استئذان أو كلام. ومنذ ذلك الحين لم أعد قادرة على التخلّص منه. سمّيته فيكتور بسبب حجمه وحزنه. ومن حظّ شخصيّاتي الآخرى أنها لا تراه، فيما هو لا يراها وحسب، بل يعرفها، إلا أنه قادر على منعها من التهرّب أو الإفلات من قصّتي. وفي الواقع كان فيكتور حارساً، ويساعدني على تنظيم أفكاري. فمنذ أيّام قطع طريق الخروج على ريبيكا التي كانت تنوي الهروب. هي سمّت نفسها ريبيكا لكن اسمها الحقيقي هو رابعة، وهي فتاة فاسقة عمرها فقط ثلاثة عشر عاماً ومع ذلك تشرب البيرة وتدخّن السجائر الأميركية وتواعد الفتيان في مرأب مهجور. طموحها أن تصبح ممثلة وتؤدّي دور النساء المشؤومات وتموت في أوج عزّها مثل ماريلين. وهي قادرة على تحقيق هذا الحلم، لكنّها حالياً تتخبّط متلهّفة مغضبة. تقول إن هذه القصّة ليست لها وإن عندها ما تقوم به غير المشاركة في سيناريو رديء. ولكي أهدّئها قليلاً أعرتها درّاجتي فراحت تدور في مكانها مبدّدة طاقتها. وهي تسعى إلى خطف رشيد، وهو فتى جميل في العشرين من العمر سمّى نفسه ريشار والسفر معه إلى أميركا، لكن فيكتور يرفض ذلك. أمّا أنا فأستخفّ بذلك. تثير هذه الفتاة أعصابي ولا أعرف كيف أتخلّص منها. وجدتها في هذه النواحي، وكانت تستفزّني في البداية فتكسّر الصحون والأكواب. ثم تركتها مهملة في إحدى الزوايا، وفيكتور هو الذي يهتمّ بها.

في الجانب الآخر من الجدار، يعيش ياسين الذي أطلق على نفسه إسم ياك، وسط أحلامه. ينكفئ على نفسه ويلاحق ظلّ الجدار في

كلّ مكان. لا يذهب بعيداً في أحلامه. كل ما يريده هو أن يكون ثريّاً، يتنقّل بسيّارة ليموزين مع سائق خاص، ويملك ملاهي ليلية يدخلها من الباب الخلفي لكي يفلت من كلّ أولئك النسوة الجميلات اللواتي يأتين لعرض مفاتنهنّ عليه مقابل الحصول على وظيفة صغيرة كفتيات حانة، ولا يخرج إلّا ليلاً بلباس أسود ويوزّع الأوامر بمجرّد نظرة أو على الأكثر بطقّة من أصابعه. سيقوم بسفرات رائعة ويشتري شارعاً في ميامي، ويتغيّر اسم الشارع ليصبح "شارع ياك"... هو يكره عرقه وقبيلته وعشيرته. ويكرّر دوماً: "فليفنوا جميعاً! لماذا ولدت هنا، بين بلاطين من الباطون، في ظلّ هذا الجدار اللامتناهي الذي ينتصب أمامي كجبل فيمنعني من العيش ومن أن أصبح رجلاً ثريّاً ونافذاً؟ لماذا لم يختر أبي التيس أميركا؟ جاء يدفن نفسه في هذه المقبرة الجماعية حيث يبقى المرء مغموراً ويغور فيها أكثر فأكثر. ومهما يكن فهم لن يتمكنوا منّي. اللعنة على مدارسهم ومصانعهم وكلابهم. لي خطّتي، خطة متينة. وفي كلّ الأحوال هناك خطأ. ليس مكاني ها هنا. فليعيدوني إلى مكاني، حيث تنتفي حاجتي إلى الحلم والانتظار." طقّ بإصبعيه في اتّجاه شبح شخص مرسوم بالفحم على الجدار، وانتظر أن تسرع إليه يد تشعل سيجارته.

فيكتور يراقبه، يبتسم، ويبصق مرّة أخرى على الأرض.

"موه" لا أحلام عنده ولا أفكار. منذ زمن طويل سلّم حياته وقدره لله. أطلق لحيته واشترى سجّادة صغيرة من الأكريليك. يمضي وقته في الصلاة. هذا كلّ ما يتقنه. وهو يأسف لأنّه ليس هناك سوى خمس صلوات في النهار. وليس فقط أنه لا يفوّت أيّ واحدة منها، بل يؤدّيها

مراراً وتكراراً طوال النهار.

هو يخاف دخول قصّتي. يخشى أن يكون المكان مدنّساً غير صالح للصلاة. هاجسه التوضّؤ وتحديد وجهة مكّة المكرّمة ليوجّه صلاته إليها.

الغريب في الأمر أن فيكتور يحبّه فعلاً على ما يبدو، ولا يعتبره مزعجاً. حتى إنّه خدوم، يساعد في إزاحة طرد أو حتّى إعادته إلى المرسِل.

هذا المُرسِل الذي لم يعد يتكلم. ولم يُعرَف هل فقد القدرة على الكلام أم هو قرّر السكوت نهائياً. استغرق في شرب الكحول والصمت. لا أحد يوجّه إليه الكلام. قد ينام أحياناً في الممرّ بعد عودته ثملاً في آخر الليل. ولا يحتجّ، يطرق الباب مرّتين أو ثلاثاً ثمّ يرتمي على الأرض ويغفو. وفي الصباح تجرّه إحدى بناته، وغالباً ما تكون ملِكة، إلى غرفته وتضعه في سريره. وأثناء جرّه يقع عن رأسه شعره المستعار الرماديّ الباهت. وغالباً ما يضيّع شعره المستعار هذا، هو لم يعتد عليه. وبعد أن يكثر من الشرب ينزعه كأنّه قلنسوة. إحدى المومسات في باريس هي التي أقنعه بوضعه لإخفاء صلعته غير الجميلة فعلاً إذ تنتثر فيها هنا وهناك خصل شعر صغيرة حتى ليُظَنّ أن ذلك نتيجة حريق أصاب رأسه. لم يكترث من قبل لفقدانه شعره بهذه الطريقة الفوضوية، على أساس أنّه جزء من تهالك جسمه عموماً. كان يعمل في شركة نقل. يحبّ كثيراً دخول الشقق للاطلاع على حميمية الآخرين. وغالباً ما نقل بيانوهات، وقد سحرته هذه الآلة، وفي كلّ مرّة يقول في نفسه إنّ "الفرنسيين ناس متمدّنون"، هو الذي أمضى

طفولته ثم حياته كلها بلا موسيقى. وما كان ليتصوّر نفسه طفلاً نظيفاً أنيق الملبس جالساً على مقعد صغير يتعلّم العزف على البيانو.

يقول في نفسه:

"للقيام بذلك يجب ألّا يكون المرء في حالة جوع... للقيام بذلك يجب أن يكون مزروعاً منذ مئة سنة على الأقل... وما نحن سوى شجيرات ينقلونها على هواهم... هل سبق لك أن رأيت شجيرة تعزف الموسيقى؟ هي تصدر خشخشة، خشخشة مستنكرة ليست أبداً بالموسيقى. تعيش تحت رحمة الريح التي تجعلها تزعق وتميل... وقد تقتلعها أو تدفعها في عاصفة من الرمل الأصفر صوب صحراء باردة. وإني لأقسم أنه لو علّمنا أهلنا عزف البيانو منذ السادسة من عمرنا لما هاجر أيّ منا. نعم، نحن هنا في ما نحن عليه بسبب مسألة البيانو الذي لم يدخل بيوتنا. ربما ما كنت لأصير موسيقياً، لكن لتعلّمت على الأقلّ الاستماع إلى الموسيقى وتذوّقها. ولما فقدت شعري للاشيء ولما أضعت حياتي وحياة أولادي.

تذهب ملِكة أبعد من ذلك، أبعد ما يمكن حتى لأحاول أنا أن أكون ضئيلة، خفيّة وشفافة كيلا أزعجها. كان يمكن لملكة أن تصبح فنّانة لفرط حساسيتها. هي التي تجعلني أفكّر في الموسيقى. وجهها، نظراتها، صمتها، عطفها على رجل مسكين محطّم، شجيرة مهشّمة، منقصف النفس لم يعد ينفع لشيء، وعاجز عن إظهار وجهه ورأسه الذي لم يثبت فيه سوى مرض الصلع. كل ما أحدّث نفسي به منذ أن قرّرت الامتناع عن الكلام جنونيّ. أنا لا أشرب كثيراً. كأسان من البيرة كافيتان لإسكاري. لكنّي لا أثمل بل

أنسحب إلى حالة من الفوضى تشعرني بالسكينة. عندما أقع فمن تعبٍ لا من سكر. لا أقوم بعمل ومع ذلك أشعر بالتعب. توقفت عن العمل منذ أكثر من سنة. يظنّون أنّني جُننت، وأنا أدرك أنّني خسرت كلّ شيء إلّا رأسي. عقلي سليم تماماً لكنّه انتحى جانباً يراقب ما يجري، وهو الذي ثناني عن رمي نفسي من مكان شاهق أو شنق نفسي في المطبخ. بسبب البطالة لم أعد قادراً على تسديد قسط التأمين على نقل جثتي إلى وطني. فلماذا إذاً أرهق عائلتي بجثّة ما كانت لتتحمّل تراب هذه البلاد الرطب. حتّى الأموات يحبّون الشمس. المصرف المغربي هو الذي ابتكر هذا النوع من التأمين لزبائنه. يأخذ منك بدل تأمين لحالات الوفاة. أقلّه لن يكون هذا الجسد وليمة لدويبات الكفّار! يوهمني عقلي بقرب حدوث تغير سعيد فيما أرى نفسي، وما أزال، مثل جورب قديم مثقوب في عمق الدرج. لهذا السبب لم أعد أغتسل. يعاودني التفكير في هذا المصرف الذي يزعم أنه شعبيّ، وأنا أعرف أنه حقق ثروات على ظهورنا... قسطي لم يحقّق له الكثير، لكن أقساط الآخرين، كل أولئك الذين يجهلون القراءة والكتابة ويسلّمون كلّ شيء لموظف نزق وراء مكتب يعاملهم كالماشية... من يوم أصبحت جورباً في أسفل الدرج، اتّضح لي كلّ شيء وفهمت كلّ شيء. لم يعد عندي ما أخسره، لا عمل ولا مسؤولية ولا كلام. أرصد العالم من خلال ثقوب الجورب. لست جميلاً، أنا بائس ووسخ. وعقلي لا يني يكرّر دعوتي إلى التصبّر وإلى انتظار نهاية شيء ما أجهل طبيعته وهدفه بصمت. وها أنا أنتظر، بيني وبين نفسي، داخل حطام هذا الهيكل

المستنفد الذي يدوسه الآخرون. على طريق الحديقة العامّة التي أمضي فيها قسماً كبيراً من النهار عندما لا يكون الطقس ماطراً، غالباً ما ألتقي بامرأة، لا هي جميلة ولا قبيحة، في الخمسينات من عمرها، متدثّرة بمعطف أزرق. تمشي من دون الالتفات يمنة أو يسرة محدّقة في نقطة بعيدة. تحمل الطعام للهررة واليمام في الحديقة. لا تكلّم أحداً، محنية الظهر قليلاً كأنّها تنوء بثقل وحدتها. ظهرها على شكل ظهري. لا بدّ من أن الحيوانات هي كلّ ما عندها من أصدقاء. وعندما تنتهي تطوي كيسها وتعود أدراجها من دون أن تلتفت إلى أحد. وأنا عندها أبدأ بالتحدّث مع هررتها ويماماتها. أقول لهم إنها تُدعى فيولات وإنها تعيش وحدها وتعمل في مستودع للملابس المستعملة. أعرف أنه لم يداعبها رجل قطّ وأنّها لم تلتقِ خطيباً كانت تراسله. كان رجلاً طاعناً في السنّ يمضي آخر أيّامه في مأوى عجزة، وليسلّي نفسه في ضجره راح ينشر إعلانات في الجرائد. إعلانات مغرية بأسلوبها المدبّج بطريقة جيّدة. وبذلك حظي بعشرات الخطيبات إلى أن جاء يوم بقيت فيه الرسائل بلا إجابة، مكدّسة في علبة بريدية لم يعد أحد يحضر لفتحها. مات العجوز ومعه تبدّدت بعض الآمال بحياة سعيدة. ولم تعرف النساء الحقيقة أبداً. وقد عاش بعضهنّ طويلاً يراودهنّ الحلم بأن يخطفهنّ يوماً "رجل في مقتبل العمر، مثقّف، يهوى الموسيقى الكلاسيكية والرحلات وملذات الحياة البسيطة..." تلك هي قصّة فيولات. لكن هل تكهّنت هي بقصّتي؟ هذا لا يتطلّب جهداً، فقصتي تُقرأ على وجهي وعلى ظهري المقوّس ويديّ الثخينتين..."

نبّهني فيكتور إلى ضرورة تصويب المسار قائلاً: "أنتِ تروين قصّة لا سيرة حياة".

أعدت وضع كلّ شخصية في مكانها، فالجدار عريض يتّسع لها كلها. حالياً هناك الرسّام، لنسمِّه ماريو، يحاول التسلّل إلى هذه القصة. هو رجل جميل يكنّ عاطفة كبيرة لي. يتميّز بلطافة الضعفاء. وهذا أسوأ ما فيهم. هم مستعدّون للتضحية بكلّ شيء لإرضاء الآخرين. ولذلك هو يغيظني. يرسم عصافير ونساءً بلا رأس.

يوم وضع يده على نهدي، كاد يُغمى عليّ. كنت جالسة على الأريكة مسترسلة في أحلامي. الطقس حارّ، وقد تركت قميصي مشقوقاً قليلاً، يظهر من خلاله طرف نهديّ. اقترب مني، جاثياً، وبدأ يحدّق فيّ بعينين متّقدتين، ويده ترتجف. وقد خضّتني هذه الملامسة. خاف ماريو وراح يعتذر منّي كولدٍ صغير. دفعته برجلي فوقع على وعاء الطلاء، وغادرت هذا المحترف وأنا أرمي أرضاً كلّ ما وقعت عليه يدي.

انقطعت عنّي أخبار الرسّام لفترة طويلة. ثمّ في أحد الأيّام تلقيت منه رسالة يطلب فيها منّي السماح له بمراسلتي! (هكذا هم الناس اللطفاء، لا يكفّون عن الاعتذار منّا وطلب رأينا...). وبدافع الفضول أجبته بكلمة واحدة، "نعم" صغيرة كتبتها وسط ورقة كبيرة.

تبعت ذلك مراسلات غريبة لا مثيل لها. هو يحكي لي عن والدته وأنا عن حديقة مسقط رأسي. رفضت رؤيته مجدّداً، وراقني جداً إرساله بعض الرسوم حتى وإن لم أفهم معناها دوماً، فكلّ تلك الألوان كانت تغمرني فوراً بالسعادة.

وكتب لهذه القصة أن تنتهي بطريقة طبيعية ومفاجئة. بات من الضروري وضع حدّ لهذه اللعبة التي أمتعتني أحياناً. لم أكد أشعر بالأسف إذ ضقت ذرعاً بهذا الرجل الذي كان يعتبرني أحياناً ابنته، وأحياناً أخرى المرأة التي كان يودّ لو تزوجها. لقد افتتنت به لكن حضوره كان يزعجني لأنّه غالباً ما كان يشوّش أحلامي إذ كان يتدخّل في الحكايات التي أركّبها.

لم يحبّذ فيكتور، ملاكي الحارس ومستشاري، كثيراً تدخّلات هذه الشخصية.

اتُّخذ القرار! فكّر والدي مليّاً في الأمر، ثمّ في إحدى الأمسيات جمعنا كلنا وقال بنا:

- غداً نعود.

سقطت تلك الكلمات الثلاث كثلاث نقاط ماء على رأسٍ حليق لشخص تحت التعذيب، ثمّ تناثرت على وجوهنا المنقبضة من الذهول. وسألته:

- نعود، إلى أين؟

- إلى البلاد.

- إنّها بلادك، لا بلادنا.

- اخفضي عينيك عندما تكلّمينني.

عندما يأمرني والدي بخفض عينيّ أعجز عن المقاومة أو فعل شيء آخر، تنخفض عيناي تلقائياً. لا يمكنني تفسير تصرّفي هذا. كلّ ما أعرفه هو أنّه ترجمة لعهد قائم بيننا. فالحبّ هو أولاً الاحترام الذي يجري التعبير عنه بهذه الحركات. وهذا لا يتطلّب إعمال الفكر كثيراً.

عندما كنت صغيرة، كان يقال لي إنّي وقحة، أنظر إلى الناس مباشرة وأحدّق في عيونهم إلى أن يتعبوا ويتوقّفوا عن إخافتي بعيونهم المدوّرة الخبيثة. ولا أرضى بخفض عيني ورأسي إلاّ أمام أبي. إنّها سلطته الطبيعيّة عليّ من دون لجوئه إلى التهديد أو التخويف، فأعود طفلة صغيرة لا حيلة لي ومستعدّة لإطاعة الأوامر. لم يكن يستغلّ ذلك، بل يمنحني ثقته وهذا ما كان يرضي عزّة نفسي.

ذكّرني إذاً بعهدنا، وقد فات الأوان على تصحيح الخطأ. إنّه رجل يشعر بالهوان، والعودة إلى البلد هي الحلّ الوحيد الذي يمكن أن يواجه به وضعاً لم يعد يُحتمل.

تأمّلت حولي هذه الأغراض التي علينا نقلها، لا لأنها تلزمنا بل لأنها تلخّص حياة، حياة معلّقة بين رحيلين، حياة انتظار فقط، كما لو أنه كُتب علينا ألّا نعيش إلّا تلك اللحظات التي نعمل فيها لحياة مؤجّلة. لكن عندما نتوقف عن العمل نكون مستنفدين منهكين لا رغبة لنا في أيّ شيء، وعندها نروح نتظاهر بالعيش، نتنقّل، نغيّر المكان والمناخ، نقوم برحلة طويلة في سيّارة قديمة نكدّس فيها كلّ ما يمكن طيّه وتكديسه، ونبدأ بملء الحقائب، نلقي فيها القمصان والسراويل والشراشف المرقّعة غير مرّة، والمناشف البالية والأغطية، وآنية من البلاستيك أو البورسولان. نلفّ الأغراض الثمينة بخرق من القماش، نوضّب ساعة الحائط ونعيد جهاز التلفزيون إلى صندوقه الذي احتفظنا به في القبو لمثل هذا الوقت، ونصفّ الصور داخل دفتر كبير، نعدّ السكاكين والشوك، نجدها ناقصة، ربّما رُميت من دون انتباه مع قشر الليمون. نحمل معنا كلّ الأكواب، حتّى المشعَّرة

منها، ونضع في صندوقٍ أحذية الشتاء والطناجر والمقالي، وندسّ بين الأغراض أوراق الجرائد كي لا تصدر صوتاً. يلملم الأولاد دفاترهم وكتبهم وينزعون صور معبوديهم المعلّقة على الجدران. هم في الغالب مغنّون أو لاعبو كرة قدم، وليسوا أبداً علماء أو شعراء. تُطوى الصور بتأنٍّ وتوضع في مجلّة لموسيقى الروك، وما لا يأخذ مكاناً كبيراً هو الكراسي لأنها تُطوى، فالمهاجرون لا يشترون سوى كراسيّ قابلة للطيّ ومفروشات قابلة للتفكيك، وهذا طبيعي، فهم يتحسبّون لعدّة انتقالات، وعدّة سفرات. عند شراء سيّارة، يقع الخيار على سيّارة ذات صندوق قابل للتوسيع أو على شاحنة صغيرة، ويتمّ التحقّق من حمولتها القصوى، مهمّة جداً هي الحمولة القصوى، وحمولة شاحنتنا ٤٢٦١ كلغ. توصّلت إلى حفظ هذا الرقم غيباً، فكلّ سنة نزين الأغراض ونحسب ما معدّله ٢٠ كيلوغراماً للولد الواحد و٦٠ كلغ للكبار. قد نخطئ في التقدير قليلاً لكن يجب عدم تجاوز الحمولة القصوى. هذا العام سنتجاوزها بالتأكيد. لكن نأخذ حذرنا على الطريق، شرط ألّا نواجه رياحاً أو حواجز الشرطة، أمّا عند الجمارك، فكلّ الفواتير محفوظة في مغلّف أصفر. نستمرّ في جمع الأغراض. هذا السرير نتركه هنا، يمكن أن نعطيه للجيران لكنّهم لن يقبلوا به. من المهين إعطاء الفضلات. كذلك تلك الخزانة التي اشتريناها من سوق البرغوث، هي قديمة لكنّها ثقيلة جدّاً. يمكن أن نتركها في القبو ونكلف صديقاً ببيعها. من الصعب بيع خزانة قديمة مخلّعة القوائم، ونخرتها الدوبيات من داخل. كلا بل يجب التخلّي عنها، والأفضل وضعها على الرصيف، قد يأتي من يأخذها. لطالما

استغربنا ما يرميه الفرنسيون على الرصيف. نحن لا نرمي شيئاً. إنّها قصّة مبدأ. حتى بوتاغاز الطبخ يُرحَّل مع أنه ثقيل لكنه من ماركة جيدة وما يزال شغالاً. وكذلك البرّاد. إنّهما أوّل غرضين يوضعان في الشاحنة وحولهما تُرتَّب سائر الأغراض. يجب إبقاء موقد الرحلات الصغير في متناول اليد لتسخين الطعام أثناء الرحلة، فليس من الوارد مع كلّ هذه الحمولة التوقف على جانب الطريق أو النزول في فندق. وعلى أيّ حال إن الفندق ترفٌ ونحن لا نملك الإمكانيات لدفع تكاليف الجميع لإمضاء ليلة واحدة في الفندق. ثمّ من سيحرس الشاحنة مع كلّ هذه الحياة المكدّسة والمطوّاة والمصفوفة والمغلفة فيها؟ كلا، سنقوم بالرحلة من دون توقف، لقد اعتدنا ذلك. الأولاد ينامون من التعب والوالدة تبقى ساهرة. الشقّة فارغة والأرض مليئة بجرائد قديمة وكسْر الزجاج وقطع صغيرة من صحون محطمة ولمبات محروقة. لفافة من محارم الحمام مرميّة كيفما كان، ونسينا إنزال روزنامة رجال الإطفاء للعام الماضي عن الحائط. وفي المطبخ، خلّفت الأجهزة آثاراً على الحائط، كأنّها أطر مرسومة بغبار دسم. عند لمسها بالإصبع يبدو ملمسها كالغراء الوسخ. حملنا كلّ شيء معنا حتى جهاز التلفون. بقيت الخزانة منتصبة في الوسط، فارغة، عتيقة، ومرآتها فاقدة اللمعة. يدخل هرّ من الشباك ويدور في المكان. لقد أضاع الطريق، الأرجح أنّه حزين لهذا الرحيل المفاجئ. يصعد على ظهر الخزانة وينام، سيحرسها الهرّ منتظراً عودتنا، واثقاً من ذلك، ويعرف أنّه رحيل زائف. أساساً نحن لم نُسلّم المفاتيح ولم نبطل عقد الإيجار، والقبو مليء بأغراض أخرى. قد نعود يوماً لأخذها وتسوية

الأمور التي بقيت معلّقة. أقفل الباب بإحكام وأسدلت الستائر. سكّرنا أنبوب الغاز وقطعنا الكهرباء. تمنّى لنا الجيران "عطلة سعيدة واللقاء عند العودة، سنراسلكم كالعادة. لا تنسوا أن تجلبوا لنا بوابيج وطاجناً، وإذا أمكن سجّادة صغيرة من حرير جبل الأطلس الرفيع، إنّها رائعة ورخيصة الثمن. إن أردتم نعطيكم المال مسبقاً. كلا، لا تحرز، إلى اللقاء، نلتقي قريباً..."

كانت تمطر كالعادة. ألقيت نظرة حنان إلى الجدار الخلفي من بنايتنا. تحت المطر أصبح أسود تقريباً. شاهدت فيكتور وهو يقف، يطوي كرسيّه ويبصق مرّة أخيرة قبل أن يختفي في اللون الرمادي. فكّرت مجدّداً في قصّتي غير المنجزة، وكرّرت بصوت عالٍ "نظرة الأصمّ"، فتراءت لي شخصيّاتي، واحداً واحداً، في ملابس مسرحيّة. يتجمّعون في زاوية على الخشبة وينتظرون. ياك، لفّ نفسه بعلم أميركي وجلس رافعاً يده بعلامة النصر. ريبكا تذرع المكان ذهاباً وإياباً وهي تكرّر: "لقد مللت، لقد سئمت، يا لها من حياة شاقّة، يا لها من حياة شاقّة! طريق الخروج بعيدة جداً!" ريشار على حافة الطريق كأنّه يشير لتوقيف سيّارة تقله، فيما موه يؤدّي الصلاة حالياً بالمقلوب. أما الوالد، فلا يزال يعيش في بلده الداخلي، سعيداً لسماع نبض قلبه.

قاد والدي ليل نهار، ومع فجر اليوم الثالث تراءت لنا القرية يلفّها الضباب.

البلد من صنع الخيال. فالقرية لم تحد عن مكانها، صامدة هي في موقعها تحت شمس حارقة. العجزة هم هم، قابعون على نفس المقاعد الحجريّة، يستطلعون الأفق ويعلكون نفس الكلام:

- إنّه الزمن...

- نعم إنه العصر...

- وحدها الشمس...

- برضى الله المطر...

- بفضل صلواتنا...

- يتساقط على الحجارة...

- يتساقط على أيدينا، على رؤوسنا...

- حتى إنّه يحفر في رؤوسنا. انظر إلى رأسي. أترى تلك الثقوب الصغيرة؟ إنّه المطر. مطر الله. إنّه مبارك ويذكّرنا بعدالة السماء.

- لكنه يتساقط على الصخر ولا يحفر فيه.

- لأن رؤوسنا أقلّ صلابة من الصخر.

- لا، ذلك لأن في هذا البلد من ليس عنده سوى الصخر في أراضيه.

- مثلنا.

- نحن وكثيرون غيرنا.

- أرِني يديك... إنها مثل يديّ. لكثرة ما نقلنا الصخر أصبحت ثخينة ومتيبّسة.

- صرنا نستحي من التسليم باليد على أبناء المدينة...

- نحن باقون هنا...

- سنبقى دائماً هنا...

- حتى اليوم المنتظر...

- وفيه يصبح جسدنا خاوياً كجذع شجرة عتيقة مريضة، ويوارى

في التراب ليتحوّل إلى حجر بين الحجارة.

– في ذلك اليوم لن نعود قادرين على رؤية الأفق.

– وتتلاشى ذكرياتنا مع ضباب الصباح.

– تصعد ذكرياتنا إلى السماء.

– أتعتقد ذلك؟

– نعم! لن يبقى من يجمعها ويحفظها ويرويها.

– معك حقّ... لم يعد هناك أحد... في هذه القرية لم يعد هناك سوى بضع شجيرات وصخور وعجائز.

– هنالك السماء والأفق.

– أيمكننا إرسال بعض ذكرياتنا إليهم؟

– بالتأكيد يمكننا المحاولة...

– أيَّ ذكرى نختار؟

– لا يهمّ، ليرسل كلّ منّا ذكرى إلى السماء.

– أنا سأنتظر غيمة لأحمّلها إيّاها.

– أتعلم أنه إن سار كلّ شيء على ما يرام عندما نصبح في حضرة الله، سنجد ذكرانا ويُعرض علينا أن نعيشها مجدداً. لذلك يجب أن نحسن الاختيار.

– في الحقيقة السماء لا تعطي شيئاً. هي تتلقّى ما نرسله إليها. والنعمة التي تفيض بها علينا هي أن تسمح لنا باستعادة ما هو لنا.

– لنفترض أن الأمر كذلك، ما الذكرى التي اخترتها؟

– أقترح عليك أن أبوح لك بذكراي فترسلها، وتبوح لي بذكراك فأبعثها.

– لكن لا تقل لي "كرسالة بالبريد" لأنها لن تصل أبداً.

– ذكراي عزيزة جداً وقديمة جداً. إنها مغلّفة بالألوان والموسيقى والحلاوة. لا أجرؤ على روايتها مخافة أن أخسرها.

– ثق بي. أنصت إليك بكل انتباه. لن أنظر إلى الأفق. هيّا يا صديقي، لا تخف.

– لكنها ذكرى خطيئة. أتظنّ أن السماء ستسمح لي بعيشها مجدّداً؟

– ما هو خطيئة على الأرض لا يبقى كذلك في السماء. هنا نحن عبيد الله. هناك نصبح أحراراً. لا مكان للشرّ هناك. على أي حال ليس لدينا ما نخسره. هيا!

– كان يوم مطر رائعاً. كنت أعمل مزارعاً هناك، في الجانب الآخر من الأفق، في الوادي الصغير المليء بالخضار والخصوبة. كنت أعمل عند جماعة من المسيحيين. هم أناسٌ طيّبون. كنت فتيّاً وعفيّاً. في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمري. تقريباً عند صيامي الرابع لشهر رمضان. كنت بالغاً إذاً. وفي كلّ ليلة تقريباً كانت أرى في منامي نساءً. وفي الصباح أجد سروالي ملطّخاً فأغتسل في النهر. أحببت النوم كثيراً بسبب كل تلك المخلوقات التي كانت تُشعرني باللذّة. كانت نساءً بلا أوجه، أو للمزيد من الدقة لم أكن أتذكّر وجوهها. كما لو أن أحداً ما يرسلها إليّ ثمّ يخفيها مع بزوغ الفجر. كانت مدام غلوريا شابّة. مسيحيّة طويلة القامة، ليس كالنساء القصيرات عندنا، شعرها أشقر كالقمح في موسم الحصاد، وصدرها مشدود. كان زوجها شابّاً أيضاً. رجل جميل ومتسلّط للغاية، ليس

سيّئاً لكن يصدر الأوامر ولا يتسم أبداً. لم أكن أجرؤ أبداً على النظر إلى مدام غلوريا. هي أيضاً تعطيني الأوامر، لكنّها تبتسم، حتى إنّها قدّمت لي في أحد الأيّام كأساً من النبيذ. قلت لها إنّ ديني يحرّم عليّ ذلك. ضحكت ووضعت يدها على كتفي. كانت كتفي عارية. ملمس يدها هذا على كتفي أثار في نفسي إحساساً بالسعادة والاضطراب. حملت كأس النبيذ بيدٍ مرتجفة. ناداها زوجها، فتركتني ساحبة يدها على جلدي. هنا، طار رأسي، وتبلّل سروالي بالسائل الساخن. دمنا كما تعلم حارّ. نعجز أحياناً عن التحكّم بأنفسنا. ابتعدت وتركتني أرتعد بكلّ مفاصلي. منذ ذلك اليوم، لم تعد النساء في نومي يحضرن ليلعبن معي. باتت مدام غلوريا تهيمن على أحلامي. وصرت أنام بلا سروال، أرتدي الغندورة فقط.

كانت تمطر في تلك الليلة. لم يأتِني النوم. كنت أخشى أن يمنع المطر السيدة غلوريا من الدخول إلى حلمي. وكلّ أحلامي تجري في العليّة فوق الإسطبل. في تلك الليلة، بدأ الحلم في تخشيتي، على فراش القشّ. غريب. لم أتبيّن وجه المرأة التي اقتربت منّي. ولم أعد أعرف كيف حصل ذلك، لكن عندما فتحت عينيّ، لأنّ أحاسيسي عندها كانت حقيقيّة، وجدت مدام غلوريا بلحمها وشحمها جالسة مفرشخة فوقي و"عضوي" منتصب مغروز فيها. كانت مسيطرة عليّ مثبتة كتفيّ بيديها، وتتحرّك بفنّ وتقنيّة لا تتقنهما إلّا المسيحيّات، وتتأوّه، وشعرها يغطّي وجهي وشفتاها ولسانها على فمي. لا أذكر كم مرّة قذفت السائل الساخن في فرجها، وهي في كلّ مرة تصرخ. خفت أن يضبطنا زوجها فوضعت يدي على فمها، فأبعدتها وراحت

تقول لي: "تعال! تعال! يا حبيبي!". بعد ذلك راحت تصرخ كما لو أنها حقّقت انتصاراً. بعد الصرخة استرخت ونامت عليّ ككتلة ثقيلة. كانت يداي على مؤخرتها، وما زلت راغباً في أن أقذف فيها قليلاً بعد من السائل الساخن. أغرتني مؤخّرتها كثيراً. انسحبت من تحتها على مهل وامتطيتها بكلّ قواي. استيقظت لكنّني ثبّتها بقوّة تحتي، وأرقت فيها فيضاً من السائل ثمّ ارتميت بجانبها فاقد القوة والخوف، وغفوت. عندما استيقظت لم أجدها هناك. وما أزال حتى اليوم أتساءل إن كان ما حدث هو في أحد تلك الأحلام، لكن بشكل أعنف، أم هو حصل بالفعل. لم تعد لزيارتي ليلاً. صرت أترك الباب مفتوحاً فلا يدخل كوخي سوى الهررة والذباب. وإذا حدث أن التقيتها في المزرعة أخفض عينيّ لكنّها استمرّت في إعطائي الأوامر وهي تبتسم.

لا حاجة بي إلى إخبارك أني لم أعش أبداً ليلة جميلة كهذه، ولم أعرف امرأة بمثل هذه الخبرة والنعومة. آمل أن ترسل مدام غلوريا هي أيضاً هذه الذكرى نفسها إلى السماء عسانا نلتقي مجدّداً ونحن بهذا الشباب وهذا الجمال. أين أصبحت اليوم؟ أهي في بلادها حيث يتساقط الثلج؟ ربّما فارقت هذا العالم وسبقتنا وهي تنتظرني في زاوية صغيرة في السماء في تخشيبتي القديمة...

- ليست هذه الذكرى خطيئة. إنها هبة الطبيعة، هديّة من عهد الشباب، سرير وثير لأيّام شيخوختنا. مع ذكرى من هذا النوع لن تشعر أبداً بالملل. لن تضطرّ إلى مراقبة الأفق والصخور. وإن حدّقت بها فلتتمكن من الهروب بشكل أفضل من هذا العصر ومآسيه. إلا

أنني لا أعلم إن كانوا يسمحون لك فوق بتكرار هذه المأثرة. إنه عمل جريء. أن تأخذ هكذا امرأة غيرك. هذا ممنوع. لكن بما أنها مسيحية فقد يجدون لك أسباباً تخفيفية كما يُقال. كان الأجدر بك على الأقلّ أن تحاول تحويلها إلى الإسلام، تكون بذلك ربحت على جميع الصعد. كنت خدمت القضيّة. لكنك لم تلتقِها بعدها. واكتفى "قضيبك" بالحراثة من دون التفكير في المستقبل. لاحظ ليست هذه غلطتك. فهي التي دخلت عليك وبادرت إلى صناعة هذه الذكرى الرائعة.

المهمّ، كما وعدتك سأوصل ذكراك هذه إلى السماء إن قضى سوء الحظّ بأن ترحل إليها أنت أولاً.

أما الآن فسأبوح لك بسرّي. إنها مثل ذكراك من زمن الشباب الأوّل. حفظتها ذاكرتي سليمة تماماً وكلما تذكّرت ذلك اليوم أستعيد كلّ شيء، ألوان السماء والحقول، روائح الأرض والأزهار، مذاق الفاكهة الملتهَمة، الحرّ الجافّ والمبارك. يمثل كلّ شيء أمامي بدقّة لافتة.

ذكراي السامية قصّة بسيطة عن المياه والكرامة. كما تعلم، يمكنك في هذا البلد امتلاك هكتارات وهكتارات من الأراضي. لكن إن كنت لا تملك المياه لريّها فأراضيك لا تساوي شيئاً، محكوم عليها بالموت، وعليك أيضاً! ومن يتحكّم بمجرى المياه يمسك بوسيلة الهيمنة على كلّ القرية. في ذلك الزمن كان توزيع المياه يتمّ عند القائد، لكن عبّاس، قائدنا، وهو رجل قصير القامة، جلف وماكر، كان يعمل لمصلحة المستوطنين. كان متواطئاً مع الغزاة.

يبدو أن هذه العائلة تحمل الخيانة في دمها. كنّا نملك أرضاً جيدة وخصبة، والمياه تمرّ في وسطها. إنه أفضل ما يتمنّاه المرء كممرّ للمياه. وكنّا نعيش بسلام، الزيتون يعطينا زيتاً عالي الجودة، وماشيتنا ترعى ساعة تجوع. أمّا نحن فلم تنقصنا الصحّة ولا السكينة، ننعم ببركة الله والطبيعة. إلى أن أرسل عباس في إحدى الليالي زمرة من الأشرار لتحويل مجرى المياه وتوجيهها إلى أراضي المستوطنين، خدمة لأسياده الأجانب وإرضاءً لهم. لم تعد تصلنا نقطة ماء واحدة. كان لدينا بئر طبعاً، لكنّها لا تكاد تكفي حاجات رجال ونساء القبيلة. لقد غدر بنا عبّاس للتوّ ونحرنا ونحن نيام. ما العمل؟ اجتمع الرجال وقصدوا القائد يشتكون إليه، فاستقبلهم بعد أن جعلهم ينتظرون طول النهار. ولم يحوّل فقط المياه بل وضع رجالاً مسلّحين عند النبع وعلى طول مجرى المياه. لقد غلبنا على أمرنا. راحت أمّي تبكي وأبي يصلّي سائلاً الله أن يخلّصنا من هذا الخائن. عندما رأيت عبّاس عن كثب أدركت فوراً أن لا خلاص من هذا الرجل لا بالصلوات ولا بكلام الرجال والنساء الذين حُكم عليهم بالجفاف والنزوح. كانت عيناه تلمعان، وكانت نظرته حادّة كالساطور. لم تكن العدالة ولا الرحمة لتجدا سبيلاً إلى قلبه. تعلّم ممارسة السلطة بالقوّة والازدراء، ازدراء عرقه وقومه طبعاً.

عندما ظهر على عتبة مكتبه، محاطاً بجنديّين مسلّحين بائسين، رفض الاستماع إلى والدي، الأكبر سنّاً في القرية، وأسكته بحركة من يده، فيها الكثير من التهديد والإهانة. أمسكت يد والدي المرتجف غضباً، وشددت عليها لأفهمه أنّنا سندافع عن أنفسنا وأنّه لا ينبغي به

أبداً أن يفقد رباطة جأشه. وشرع عباس يخطب فينا متحدثاً داخل شيء يشبه القمع.

يا زمرة الخاملين والمخبولين. لطالما عشتم في البؤس، وإن كنتم اليوم محرومين من المياه فهذا خطأكم. لم تعرفوا كيف تحافظون عليها. أنتم متخلّفون، متخلّفون جداً، ولا تستحقّون هذه الأرض التي لا تعرفون كيف تستثمرونها. بأساليكم القديمة، تبدّدون الكثير من المداخيل وتبذّرون المياه. لذلك قرّرت مع أصدقائنا ورعاتنا الذين أتوا ليعلّمونا الحضارة والتطوّر، تحديث أعمال الريّ، ولهذه الغاية أتينا بالمعدّات، لكن بما أنكم متخلّفون فنحن سنهتمّ بأراضيكم. سنصادرها بموافقتكم. ستعملون تحت إمرتي لأنني أملك المعرفة، وفي المقابل تحصلون على جزء من المحاصيل في نهاية الموسم. أمّا الآن فتفرّقوا واستعدّوا للعمل الشاق. عيّنني هنا باشا مرّاكش، سيدنا الغلاوي، بالاتفاق مع مونسوري القائد في الجيش الفرنسي!.

لم يُتَح لأيّ من الرجال أن يقول كلمة واحدة. لقد جرّد الوحش عائلات بأكملها من أراضيها وكلّ ما أمكنهم القيام به هو الاجتماع في المسجد والصلاة.

أنا رجل مؤمن وليس لي أيّ مأخذ على الصلاة. لكن كما تعلم، لم نطرد المستوطنين بالصلاة. وقرّرت أن أتصرّف. وحدي طبعاً. أعتقد أن ميزتي الوحيدة في الخامسة عشرة من عمري هي الشجاعة. لم أكن قادراً على تقبّل هذا النهب الصريح، ولم أستطع تحمّل كلّ هذا الإذلال.

في الليل، اتّجهت إلى منزل القائد مسلّحاً بسكين مشحوذ جيداً.

تعرف تلك السكاكين التي تُستخدم لتقطيع الذبائح. كان هناك حارسان بالمكان، وخلف المنزل شجرة عالية. تسلّقتها ودخلت المنزل عبر السطح. كنت حافي القدمين بلباس أسود قابضاً على السكين.

لم يكن عباس يهوى النساء، وكنت أعرف أنّه يستقبل فتياناً في الليل، فيترك باب الشرفة مفتوحاً. طرقت الباب. قال: "من هذا، نور الدين أم كمال؟" فأجبته مغمغماً: "نور الدين." "ادفع الباب... أنا في انتظارك يا ابن العاهرة. لقد تأخّرت. هيّا تعال!" اقتربت وسط الظلام من سريره. كان عارياً، منبطحاً على بطنه. صعدت على سريره وارتميت عليه بكلّ قواي وغرزت السكّين عميقاً في قذاله. كتمت صرخته بالوسادة. تركته متضرّجاً بدمائه. حاول الفرنسيّون إجراء تحقيق لكن سرعان ما عدلوا عن الأمر. تخلّصت القرية من هذا الطاغية. واستعادت المياه مجراها الطبيعي. لم يعرف أحد من قتل عباس. بعد زمن طويل سمعت زوج عمّتي يخبر كيف تبارز مع القائد بالسلاح الأبيض وهزمه. صدّقه البعض بسبب وجود ندبة في عنقه. أنا كنت أعلم من أين أتت تلك الندبة، فقد وسمته عمّتي بسكين مطبخ عقاباً له على ذهابه إلى عاهرات الوادي. التزمت الصمت نهائياً. مضى على ذلك نصف قرن. وأنت أول من يطّلع على سرّي. إن متّ قبلك، فلا ترسل الذكرى بكاملها إلى السماء. ما أريد أن أعيشه مجدّداً هو يوم تحرير نبع المياه وعودة الساقية إلى أراضينا. تراشق الأولاد بالمياه ورقصت النسوة بأثوابهن البرّاقة على طول مجرى المياه، وذبح الرجال عجلاً وغنّوا مع النساء. كان يوم عيد لا

يُنسى. ليس كالأعياد التقليديّة. كان عيد استعادة الشرف والكرامة. تأثّرت كثيراً وبكيت من الفرح. هذا هو النهار الذي أودّ أن أعيشه مجدّداً. في الليل، نزلت إلى الوادي وللمرّة الأولى وجدت نفسي بين ساقي عاهرة جميلة. علّمتني كيف أضاجع ولم تقبض منّي المال. قالت لي: "ليس في المرّة الأولى". أذكر وشماً على شكل عين على جبينها ونجمة صغيرة على ذقنها. أكلت لوزاً محمّصاً وشربت شاياً لم أذق قطّ مثيلاً له بعد ذلك.

الآن، سأعطيك هديّة: ها هو سكّين التحرير الصغير الشهير. خذه معك. قد يفيدك لعبور الغيوم.

– أشعر بالخجل! ذكراك نبيلة، أمّا ذكراي فلا قيمة لها. لقد كنت شجاعاً وأنقذت قبيلتك. أمّا أنا فلم أقم إلا بإشباع شهوة حيوانيّة. إنه لشرف عظيم لي أن تكلّفني حقّاً بنقل سرّك إلى السماء. سأصل إلى هناك سعيداً وفخوراً.

– لا ينبغي أن تخجل. أنا أيضاً عرفت نساءً أجنبيات كنّ يخنّ أزواجهنّ مقابل دمي الحامي وعينيّ السوداوين. ليست الذكريات التي نودّ عيشها مجدداً كثيرة. وقد لا تكون التي اخترناها هي الأهمّ. وما أدراك ما سبب تعلّقنا بها؟ هذا هو الزمن، سيّد شرس لا مبالٍ. دائم بسيرورته، وما نحن إلّا عابرو سبيل. نعبر العصر وغيومه، الزرقاء حيناً والبيضاء حيناً آخر. لا نملك سوى هذا المقعد الحجري لنتأمّل الحياة ومظالمها. أترى ذاك الرجل المارّ هناك على ظهر حمار؟ لقد فقد عقله يوم علم أنّ ابنه الذي ذهب بحثاً عن عمل في المدينة الكبيرة، وجد نفسه وسط تظاهرة ضدّ غلاء المعيشة، فاعتقل وحُكم

عليه بالسجن اثنتي عشرة سنة. وابنه أيضاً يوشك أن يفقد صوابه. لا يعرف ماذا يجري معه، اتُّهم بأنّه ينتمي إلى النقابة وهو يكرّر عليهم أنّه لا يعرف هذه القبيلة ولا هذه القرية. يذكر لهم اسمه واسم قريته وقبيلته. تشتبه الشرطة في امتلاكه الكثير من المعلومات، فيستمرّون في ضربه لكي يعترف بها. وكلّما أنكر أنّه من قبيلة "صديقة" مكرّراً أنه ينتمي إلى قبيلة آيت صديق، أمعنوا في ضربه. يعتبرونه قائداً خطيراً بارعاً في إخفاء لعبته ولا يعترف تحت التعذيب. والشرطة ترتاب كثيراً من هذا النوع من الشباب الذين يقاومونها. المسكين! هو الذي لم يذهب قطّ إلى المدرسة، لكنه حفظ القرآن عن ظهر قلب، يوشك أن يصاب بالجنون ووالده يلحق به في مصابه... انظر، ها هي راضية الولّادة، التي انتقلت للعمل في غسل الموتى بعد أن قلّت الولادات الجديدة...

– ومن حين إلى آخر تعمل عرّافة. تشرح لماذا لم يعد هناك من مواليد جديدة في هذه القرية. تعرف ما حصل وجعل جميع النساء عقيمات. يمكن أن نطلب منها أن تبوح لنا بذكراها...

– أنا راضية التي لم تعد تعرف ماذا تشتغل بيديها. أخفيهما وراء ظهري، أضعهما في جيوبي، أحمّلهما الحجارة. لا تهدآن أبداً. تتحرّكان، تبحثان عن بطن تخفّفان حمله أو تختلسان الفاكهة من السوق. انظروا كم هما عريضتان ورشيقتان. صالحتان لكلّ عمل، تلقّي مولود جديد وتكفين جسد راحل بشرشف أبيض. تريان تتكلمان وترقصان. هما شاهدتان على كلّ ذكرياتي. لكنّهما اليوم تشعران بالملل، غير قادرتين على تحمّله. فقد نزلت لعنة بالبلد منذ

أن راحت الأفعى الزرقاء تتكلّم.

– المقصود يوم تسبّب موت إبراهيم بموت قاسم، ثمّ أدّى موت قاسم إلى موت فطّومة...

– لم تتسبّب إلّا بالموت، زرعت الشقاء في هذه القرية وها هي تشتّت شمل عائلة بأكملها بعد عودتها من بلاد الفرص والثراء... هناك شاحنة على الطريق... أراها من هنا... بقي لي الوقت الكافي فقط لأروي لكم كيف ضربت الأفعى ثلاث مرّات وأخطأت في اثنتين منها.

-١٥-

"بدأ كلّ شيء بسبب فطّومة التي زعمت أنها تؤمن بالله، لكنها تؤمن أكثر بالسحر والمشعوذين. اسمها الحقيقي سليمة. لكنّها لأسباب غامضة سمّت نفسها فطومة. منذ أن غادر شقيقها القرية مصطحباً معه عائلته كلها إلى فرنسا، لم تعد تعرف أين تمارس قواها الشرّيرة. تكنّ لي كرهاً رهيباً لأن جميع أولاد القرية وُلدوا على يديّ وهي لم تُرزق بولد. لكنّها عاجزة عن القيام بأي شيء ضدّي، فأنا أعرفها جيداً ولا يمكنها خداعي بألاعيبها، إلّا إن قرّرت التخلّص منّي وأنا نائمة، عندها لا حيلة لي وأنا أعرف أنّها لا تتورّع شيء. لكنّها حالياً، كما تعلمون، لم تعد تشكّل خطراً، فهي في سجن المدينة.

تذكرون قصة تلك المرأة المسكينة التي كانت تحاول بشتّى الوسائل منع زوجها من الخروج مع نساء أخريات؟ جاءت تستشير فطومة، فصيتها تخطّى حدود هذه القرية، فوضعت هذه الأخيرة خطّة مبكّلة كي يعود الزوج العابث إلى زوجته، وفيّاً ومغرماً. باعتها قرص عجين بيّتته طوال ليلة في فم أحد الموتى. وأقنعتها بأن هذا فعّال، فإن أكل الزوج تلك العجينة يلزم زوجته ولا يخونها بعد ذلك. ولذلك

باعتها هذه الجرعة بثمنٍ غالٍ جداً. عادت المسكينة إلى المدينة وقد لفّت العجينة بتأنٍّ، وانتظرت عودة زوجها بعد أن حضّرت بالعجينة فطائر محلاّة. وعند عودته في وقت متأخر من الليل، جائعاً ومتعباً، التهم الزوج الفطيرة بالعسل ونام. وكانت نومته الأخيرة تلك الليلة، لم يستيقظ بعدها. جاء تأثير العجينة أكثر من المتوقع، فقد عاد زوجها إليها نهائياً... لكن في القبر. راحت المرأة تنتحب طالبة النجدة، لكن كان الأوان قد فات، فقد مات مسموماً. اعتقلتها الشرطة فروت لهم قصّتها كما حصلت. ظنّ الأطبّاء أن الرجل لدغته أفعى، لكن لم يكن هناك أيّ أثر للّدغة. واقتيدت فطومة إلى التحقيق فأنكرت كلّ شيء، ثم عادت واعترفت مقسمة أنها قامت بذلك عن حسن نيّة وأنها ليست المرة الأولى التي تستعمل فيها هذه التركيبة لردع الرجال الذين يخونون زوجاتهنّ. الشيء الوحيد الذي لم تكن تعلمه هو أن الميت الذي باتت العجينة ليلتها في فمه كان إبراهيم المسكين الذي صرعته للتوّ الأفعى الزرقاء الشهيرة التي تقمّصتها شابّة اختطفها قرود الأطلس وسجنوها في قفص وسط الثعابين. كان إبراهيم قد اشترى تلك الأفعى ليكسب عيشه كحاوٍ على الساحة الكبيرة التي يرتادها السيّاح. كانت فطومة كلما علمت بوفاة شخص ما تسارع إلى منزل الميت وتدبّر أمرها لوضع عجينة في فمه. وبعد مضيّ الليلة تنبش تراب القبر الطريّ في اليوم التالي لتستعيد العجينة، وبذلك تحتفظ دوماً ببعض الجرعات. فهل كانت تعلم أن إبراهيم ما زال يحتفظ ببعض السمّ بين أسنانه؟ ربما لا. لكن في كلّ الأحوال لم يكن هذا همّها، فهي الوحيدة في القرية التي تبتهج لموت الآخرين. طبعاً كلّ

ميت كان يكسبها بعض الفلوس!

مات إبراهيم، ومات قاسم الزوج العابث ودخلت فطومة السجن. أمّا خديجة فقد جُنّت بعد خسارتها كلّ شيء.

ولهذا الرجل العائد اليوم إلى قريته في هذه الشاحنة المحمّلة بالمتاع والأولاد، حساب يصفّيه مع فطومة، شقيقته وعدوّته، حرقته ومأساته. هو لا يعلم أن الصدفة وضعتها على طريقه. هو الآن يقود شاحنته من دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة. ربّما يفكّر في قريته كمن يفكّر في حديقة مزهرة. لم يتصوّر، ولا يمكنه أن يتصوّر حالة الفقر المدقع التي نعيشها. لم تعد القرية ما كانت عليه. لقد تحوّلت حطاماً فارغاً، قصبة مهجورة ومأوى العجزة المحتضرين أمثالنا ولعنة في نظر الشباب ووكراً للعقارب المتفلّتة وأرض ثروة للمشعوذين والساحرات. لم يعد ينبت فيها شيء، وحدها الحمير تبدو كأنها ترعى. مزيّن الشعر لم يعد يجد رؤوساً لتصفيف شعورها، فتحوّل مثلي إلى غسل الموتى. والمؤذن كعادته يدأب على الصعود إلى مئذنته خمس مرّات يومياً ليدعو إلى الصلاة، فتتحرّك الصخور أمّا الرجال فلا. الهاتف الوحيد الموجود في القرية معطّل، وليس هو بهاتف بل جهاز للاتّصال بمركز الهاتف في المدينة. صاحب محلّ البقالة، لم يبقَ أولاد ليبيعهم السكاكر. نحن فقط ثلاثة وأربعون شخصاً منسيّون مهمَلون. ثلاث وأربعون حالة معاناة يعيشون ذكريات منسّقة ومتخيَّلة. حتى الكلاب لم تعد تجول في الشوارع. لكن الصخور هنا، وفيّة للأرض والسماء، وتحت الصخور أفاعٍ تنتظر وفاة آخر سكان القرية لتخرج وترقص حول النار. اليوم، في

عام ١٤٠٩ للهجرة، وبعد ثلاث وثلاثين سنة على الاستقلال، ما تزال القرية بلا كهرباء. منذ عشر سنوات ونحن ندفع الرسوم للإتيان بالأعمدة والأسلاك التي تعطي الضوء، وفي كلّ مرة يذهب موظّفو المدينة بالمال ولا يعودون. آه يا للكهرباء! يا لها من حلم المستحيل! منذ أن انفجرت قارورة الغاز لم نعد نستخدم إلّا الشموع، يبدو أنّ لها سحراً خاصاً. هذا آخر ما كان ينقصنا، الرُّقية. للرجل العاري يقدَّم خاتم ليكتسي، ويُعاد طلي جدران المسجد الخارجية فيما تُترك جيَف القطط تنتن داخله. السماء لامبالية ونحن ننتظر وصول ساعي البريد الذي يأتي مرّة في الشهر ليوزّع علينا بعض الحوالات المرسلة من هولندا وفرنسا. نبصم بالإبهام ونقبض المال فاقدين الرغبة في عدّه. في الصيف يعود الرجال محمّلين بالهدايا التي تعمل على الكهرباء. تتكدّس الأغراض وتقرض الجرذان الأسلاك وتحوك العناكب شباكها، تتكدّس الآلات فوق الآلات، والصخور التي تزداد ثقلاً تخرج من الأرض، تتكاثر مصدّعة التربة، حجارة شواهد القبور، حجارة الحياة، حجارة ثابتة، يكسوها زغب تافه مائل إلى الاصفرار، تحيط بها أعشاب لا فائدة منها. نجلس عليها نراقب خطّ الأفق، لنرى إن عبرت فيه غيمة غبار تحملنا على الاعتقاد بأن الحياة ستتغيّر. ترانا جالسين على تلك الحجارة التي لا ظلّ لها حتى، نخالها مقاعد وهي مدافننا المنتصبة عمودياً، كأنها شاهدة على عدم أهليّتنا، على ذاك التصبُّر المتحوّل مرضاً يُنفِّر أولادنا وأولاد أولادنا، إلى أن أصبحت بطون نسائنا عقيمة كتلك الصخور. أعيننا التي تأكّلها الرمد باتت عاجزة عن الرؤية وتنفتح على صحراء. الصحراء فينا

نحن، نجدّدها بالحجارة المنتصبة، بالأشجار الميتة منذ زمن طويل، بالرجال المقيمين في الأقاصي الذين ما إن يصلون إلى هذا المكان حتى يعودوا أدراجهم، حاملين في عيونهم بعضاً من موتنا. يرحلون ولا يعرفون لماذا. تقودهم غريزتهم وترغمهم على الإقامة مؤقتاً في مكان آخر. يرحلون وينسون هذا المكان الذي لا يجرؤون على تسميته. وأساساً لا اسم لهذه القرية. يقولون قرية آيت صديق، وهل هو وليّ أم جنّ؟ "صديق" هذا، سلفنا وأبونا، كان خطأ وهذه القرية لم تكن قريته. جاء يموت هنا، بعد أن طردته عائلته لتجديفه على الله وعصيانه والده. إنها قرية من تلفظهم المدينة. أرض المنفى لأرباب الكراهية المتبادلة والأحقاد. أولئك الذين يعيشون بقوة الشرّ. أولئك الذين جعلوا الشرّ دينهم وموطنهم. إنها قرية فطومة التي اختفت ثمّ عادت، بعد إفلاتها من القضاء ومن مصحّ الأمراض العقليّة والنفسيّة. ما تزال فطومة هنا، حتى وإن كنت أعرف أنّها في السجن، هي ترود حولنا، مثابرة على نزعتها الشرّيرة، جَلود وخالدة، لأنّها ستكون آخر إنسان حيّ يعيش في أرض الشقاء هذه.

نحن ثلاثة وأربعون إضافة إلى امرأتين لا تظهران على العلن. يبدو أنّهما تخرجان ليلاً عندما يكون القمر محجوباً بغيوم سوداء. تلتقيان عند المقبرة وتخططان مجدّداً لتوزيع المياه. ويقال حتّى إنهما تتآمران علينا، وقد تضعان استراتيجية للتخلّص منّا، استراتيجية من نوع تلويث عام قاتل أو تسميم الآبار. وفطومة هي مثالهما وروحهما وسيّدتهما. هما امرأتان، الأولى لم تجد قطّ من يتزوّجها، والثانية تخلّى عنها زوجها ليلة زفافها. تعيشان فقط للثأر ولروح الشرّ. هما

دوماً في ثياب الحداد، الحداد على حياتهما ونظرهما الذي لا يقع إلّا على الحجارة والأعشاب اليابسة. أنا وحدي أعرفهما وقادرة على التعرّف إليهما، لكن لن أفضحهما أبداً. هما من دون اسم ولا عمر ولا عائلة. وكلتاهما غير منحدرتين من آيت صديق. قدمتا من مكان بعيد، ربّما حتى من بلد آخر، من أرض لا تعرف الخير ولا رحمة الله. يبدو أنهما تجولان مقنّعتين متدثّرتين بملاءتين تغطيان كامل جسديهما، وفي أيديهما قفازات وحول كواحلهنّ خلاخيل من فضّة، أو بالأحرى من حديد، كأنها بقايا من سلاسل كانت تمنعهما من الخروج. طبعاً قصّة السلاسل هذه مغلوطة. فهما لم تُكبّلا قطّ بسلاسل ولا حتى سجنهما سيّد ما أو زوج أو أمير ظلمات. وربما أدخلتا عدداً كبيراً من العقارب والأفاعي إلى القرية، فتُعنيان بتربيتها وتبيعانها من السحرة وقطاع الطرق في البلد. خلّصتا فطومة في مرة أولى عندما أدخلت المصحّ بعد وفاة ولد بطريقة مشبوهة، ابن أخيها الذي كان موضع حسدها.

هذا هو وضع القرية، إن لم تنزل بها لعنة السماء، يُفْنِها أولئك النسوة اللواتي سكنت أرواحهنّ عنكبوت ذات رأسين. وعلى هذه الحالة سيجد المهاجر وعائلته الذي يسير الآن بشاحنته الصغيرة، بلده، مسقط رأسه، الذي غادره على غرار المئات غيره منذ أكثر من عشر سنوات."

تناهى إلى الأسماع صوت امرأة، هادئ وموزون، صادر من أعلى المئذنة. استغلّت غياب المؤذن لتوجّه كلامها إلى الحجارة والناجين الثلاثة والأربعين من هذه الكارثة:

"قناعنا هو وجهنا، عُرينا الكامل. نحن لسنا مرسلات شؤم ولا مبيدات بشر بوجه ملائكي. نحن قادمتان من بعيد ومجرّدتان من المشاعر. وليس في هذا إعاقة ولا نقص، بل طهارة. نحن عاجزتان عن الحبّ أو الكره. تلك هي ميزتنا الوحيدة ونقطة قوّتنا، ومن حظّكم. لا شيء عندنا نخفيه ولا شيء نحميه. فنحن لا نملك شيئاً. الملاءة التي نلبسها هي لباسنا وكفننا. خلاخيلنا هي رابطنا الوحيد بالأرض، هي توجّهنا وتساعدنا على البقاء واقفتين. لا عمر لنا لأننا لا نعرف المشاعر ولا الانفعالات. منذ أن تلقّينا الأمر بمغادرة مزارنا والقدوم لإحلال العدالة في البلد لم نعد ننام. صحيح أننا نتفادى الخروج في النهار، لكن هذا مجرّد إجراء من باب الحذر، جاءتنا التعليمات بعدم القيام بذلك. في الليل، نحاول أن نعيد النظام. علينا، كلّ مئة عام، أن نبرهن عن قداستنا. علينا أن نستحقّها مجدّداً، وإلا لا يمكننا العودة إلى المزار بل إلى مقبرة ما، ميتين بين الموتى، ويُرمى جسدانا قوتاً للحشرات وسط أجساد أخرى مجهولة تتفتّت إلى أن تتحوّل تراباً. في هذا البلد الحبيب، عدالة الإنسان مشوبة بالفساد. هي لا تليق بتاريخه ومصيره. لا يمكننا تصحيح كلّ الأخطاء، فالأمر يتطلّب وقتاً أو يجب عندها إفراغ كلّ المزارات من أوليائها ونشرهم عبر المدن والقرى لإحقاق العدالة. مولاي إدريس، مؤسّس البلاد الذي أتى بالإسلام وأقام السلام، بات عاجزاً عن التعرّف إلى ما بناه. وما أنتم سوى حفنة رجال ونساء، لا حول لكم ولا قوّة، صمدتم في وجه الفقر والجفاف والشقاء التي أفرغت القرية وهجّرت أبناءها إلى بلدان أخرى باردة حيث يخسرون أرواحهم وعقولهم. لقد

عبرنا مدناً يفقد فيها الرجال كرامتهم أكثر فأكثر، وينجبون الكثير من الأولاد ليشغّلوهم في أيّ مكان، خدماً، حمّالين، بهلوانيّين، مرفّهين عن السيّاح. الفتيات يعملن في مصانع النسيج فيتمّ التخلي عنهنّ بعد عام، الوقت الكافي لالتقاط مرض السلّ. وما إن يتعافين حتى يستأنفن العمل، وهذه المرّة في مصنع للسجاد حيث يُدفع لهنّ درهمان فقط مقابل ساعة العمل الواحدة. وبدرهمين يمكنهنّ شراء رغيف خبز وملعقة من الزبدة وحسب.

لن نضع قائمة بكلّ ما نُهب منكم في هذه القرية حيث لم يعد بالإمكان إقامة أيّ صلاة. ونحن نعرفكم جميعاً: شيشا الإسكافي الذي يمشي حافياً. راحو العاقر الذي يضاجع الماعز. والي معلّم المدرسة الذي فقد ذاكرته. رفيق، اللحام الذي يبيع لحم الحمير على أنه لحم بقر. بزيز، الماكر كالقرد، توقّف نموّه ويعيش على الشجر، وشقيقه باز الذي يهتف كلّما دعا المؤذن إلى الصلاة. ريحا، المرأة التي تنام مع الجرذان. بوراس، نابش الجثث الذي يبيع الجماجم من الأجانب. غول، الرجل الذي كان يرعب الأطفال واليوم لم يعد يُرعب سوى نفسه. لالا الرجل الذي يعتبر نفسه امرأة ولم يعد يعرف من يكون. زرزابي، الرجل الذي كان يبيع حبالاً والذي يعيش معلّقاً بأحد حباله داخل بئر. يقول إن للحياة معنى هناك وما يزال يُنزل إليه الزيتون والخبز. بارازيت المرأة التي تعتقد أنها إذاعة أجنبية وتحاول التشويش على الإذاعة الوطنية محاولة إطلاق الصفير من بين أسنانها. أحمد ومحمد اللذان ينتظران الموت على مقعد حجري، ويتبادلان الذكريات. رقيّة التي اختفى ابنها، وهو جندي شجاع مات من دون

أن يحارب. صلاح الذي لم يعد يفارق حماره منذ أن أوقف ابنه في إحدى التظاهرات في المدينة. ينام على الحمار ويدور في مكانه. فريحة، التي فقدت أسنانها، وقبعت تنتظر على مقعد. رحمة التي لا تزال تعدّ الخبز كما لو أنّ العائلة كلها مجتمعة. مولاي الذي يعتبر نفسه من سلالة الرسول وهو الذي نزل بالقرية بعد تساقط الصخور. شريكة، زوجة مولاي الثانية، التي لا تأكل إلا الأعشاب. آسر، الحطاب الذي أحرق معظم الأشجار... الباقون أناس طيّبون لا يفهمون ما الذي يحصل لهم. يعيشون مكتفين بالقليل، في انتظار فصل الصيف ليروا مجدّداً أفراد عائلاتهم الذين سافروا إلى الخارج.

راضية، أنت نهار هذه القرية ونورها. ستكونين آخر من يغادرها. أنت شاهدتهم، ماضيهم وشرفهم. ستساعدينا على إعادة فطومة. وحده شقيقها قادر على إحقاق الحقّ لنا واستئصال الشرّ منها، ثمّ إطلاقها، أفعى بلا حياة وسط الأفاعي وكلّ سمومها.

اعتقدت أننا عدوّتان لكم، وأننا متواطئتان مع فطومة التي أتت إلى هنا لتسبّب الأذى. لقد استولينا على المئذنة. سنبقى هنا بلا حراك، متخفّيتين في النهار، كي نسهر عليكم. سنشهد مثلكم جميعاً، المواجهة بين فطومة وشقيقها. ما لم يتمّ إحقاق الحقّ فستحلّ بهذه القرية لعنة الله ورسله وأوليائه.

لا تناموا هذه الليلة، اخرجوا من منازلكم. اجلسوا على مقاعد الحجر وانتظروا."

-١٦-

كان أحمد ومحمد، العجوزان صاحبا الذكريات المتداخلة، أوّل الجالسين على مقعديهما.

- ماذا ننتظر؟
- راضية قد تعرف.
- تعرف ماذا؟
- بأن شيئاً ما سيحدث لنا في هذا المكان الملعون.
- خير؟
- خير أو شرّ، ما الهمّ!
- هل لاحظت لون السماء؟
- إنّه الفجر. السماء بلون صبرنا...
- لون صافٍ وهادئ.
- لا. إنّه لون النار الكامنة.
- أبداً. أرى أنّها نار منطفئة. منذ زمن بعيد تخلّينا عن كلّ ما يتحرّك وينبض. ليس في دواخلنا سوى لون ما هو مطفأ ومتحجّر.
- إن كنا جالسين فهذا لا يعني أن كلّ شيء جامد داخلنا.

– صحيح ربما. لماذا إذاً تكبر الذكريات فينا. تولد وتولد مثل الأعشاب البريّة حول شواهد القبور؟

– الذكريات هي حقيقتنا، الشاهدة على بؤس حاضرنا.

– هذا هو الزمن!

– هذا هو العصر. عنكبوت عجوز تحوك بيتها بكلماتنا المرهقة والفارغة.

– نحن فعلاً متروكون لأمرنا!

– وحيدون ومهملون. لكن لا يسعنا أن نلوم إلا أنفسنا...

– حتى وإن كنّا مجرد ظلال؟

– نعم! ظلال بدّدها الزمن، جالسة اليوم على مقعد حجري، في انتظار أن تنحني الأشجار وتنفتح القبور وينبعث منها أسلافنا في آخر الليل ليذكرونا بعدم جدارتنا...

ظهر إذّاك رجل متنكر بلباس قرصان، يعتمر لُبّادة رائعة ويحمل جرساً صغيراً على جنبه الأيمن ويضع نظّارة أحادية على العين اليسرى شاهراً سيفاً خشبياً. ينفث كلما تقدّم دخاناً أحمر وأصفر وأخضر وأزرق وأبيض. وراح يرنّ بالجرس الصغير ليعيد الغائبين إلى هذا المكان المهجور منذ زمن طويل. وعلى كلتا كتفيه صقر أعمى.

كان هذا الرجل، الذي طلع من الشفق آتياً من مكان بعيد، يعرف جيّداً القرية وسكانها، يوم لم تكن أيّ لعنة قد حلّت بعد بقلوب الرجال، يوم لم يكن أحد مرغماً على السفر إلى الخارج، وأيّام كانت النساء جميلات وسعيدات، ينجبن الأولاد، والحياة تسير في حركة مباركة، والسنة على فصولها الأربعة. يوم كانت مياه النبع تروي

القرية، وتوالى الأعياد البهيجة، يوم كانت حتى الحيوانات تعيش بهناء.

لم يكن الرجل قرصاناً ولا مهرّجاً، بل الربيع، الربيع في عزّ الصيف. ربما هي رؤية من العجوزين شبه النائمين، أو رصاصة الرحمة على حنين مستنفَد، على انتظار بات أكثر فأكثر غيرَ معقول. لكن سواء أكان رؤيا أم لا، كان الربيع يتكلم. الربيع صوت يتناهى من الجبال، صافٍ كنبع ماء، صوت رفيق قديم للشيخ "ماء العينين"، المتمرد الجنوبي الذي هزم بعض الجنرالات الفرنسيين والإسبان.

كان الصوت واضحاً، ومألوفاً حتى. هل هما وحدهما سمعاه؟ فيما الربيع يتكلم، كان سائر الأهالي يخرجون ويجلسون على طول الطريق حتى شكّلوا سياجاً أمام مجرى الكلام:

"أنا حمّو بن محمد بن عمر الصديق، الذي سقط في معركة الشرف في تزنيت، إلى جانب شيخنا الكبير. أعود اليوم بعدما تلقيت إنذاراً من فتاة. أعرف أن الرجال تخلّوا عن القرية، غادروها ليعملوا في مكان آخر. بعضهم عاد لاصطحاب عائلته وغاب نهائيّاً. والبعض الآخر نسي كلّ شيء، وهم اليوم يتسكعون في المدن متسوّلين رعاديد. تحوّلت القرية وكراً للمهرّبين والساحرات، تباع فيها أدمغة الضباع لممارسة أعمال السحر والتسبّب بالمآسي. تُركَّب فيها جرعات قاتلة ويُعدّ فيها الخبز للقتل لا للعيش. منذ أن مات أحد الأولاد مسموماً على يد امرأة متوحّشة ضحّت بولد بريء لتروي غليل حسدها ورغبتها في الثأر لعن الله هذا المكان. انعدمت الولادات، أصيبت كلّ النساء بالعقم فيما هجر الرجال زوجاتهم.

لهذا السبب لم يبقَ هنا سوى الأرامل والعجزة الذين يمدّون يدهم إلى الموت.

لقد عدت لأن اليوم المرتقب لاكتشاف الكنز المرصود في الجبل قد اقترب. واليد الجديرة بأن تحدّد لنا مكانه ليست موجودة بينكم. للأسف، لا فائدة من أيديكم، لم تعد صالحة لشيء، ماتت وأنتم لا تعلمون. إنها أيدٍ لا تمنح شيئاً ولا تتلقّى شيئاً. هي ثقيلة ومرتجفة. وحدها راضية احتفظت بيدين صالحتين. هي التي تنقذ شرف هذا المكان وفضيلته. لننتظر ريثما نستقبل تلك التي ستخلّص القرية من اللعنة. شابّة في سنّ الزواج وُلدت بالقرب من نبع ماء نقيّ، مشغوفة بالمعرفة والعدالة."

-١٧-

كان ذلك مع فجر اليوم الثالث إذاً. راقني هذا الجو الخارج عن المألوف، كما في الأحلام، الذي تراءت لنا القرية فيه، حتى ليخيّل للرائي من بعيد أنها مقبرة بيضاء تتخلّلها بعض المزارات. كانت عينا والدي محمرّتين من التعب، لكنّه كان سعيداً لعبوره ثلاثة بلدان في وقت قياسي. كان متلهّفاً للوصول، ينظر إلى ساعته باستمرار كما لو أنه على موعد مهمّ. وإنه لكذلك! موعد مع القدر وإنهاء قضيّة عائلية قديمة. كانت أمّي والأولاد نائمين، أيقظهم صدى صياح طويل ومزعج. استُقبلنا بزغاريد النساء اللواتي اصطففن على طول الطريق المؤدية إلى الساحة وسط القرية، والرجال في صفّ مقابل لهنّ مثل أوتاد مركوزة.

كان الأمر مفاجئاً، لكن لا بدّ من أن هذا الاستقبال الاستثنائي أعدّه شخص ما غير مرئيّ. بدا الرجال والنساء، تحت ثقل السنين والتعب، خاضعين لسلطة جبّارة خفيّة على الأرجح.

بدت القرية في حالة من الخراب والإدقاع حتى صعب علينا التعرّف إلى الأماكن، وتهيّأ لنا أننا أخطأنا القرية، لا بدّ من أن أبي

ضلّ الطريق بسبب تعب السفر. وهو لم يدرك سبب هذا الاستقبال. حتى أمّي المنهمكة بالأولاد لم تعرف أين نحن وما الذي يجري.

كانت المنازل القليلة التي بقيت قائمة أشبه بخرب، تكسو أرضيّاتها الأعشاب البرية والقناني البلاستيكية. جلت بنظري مفتّشة عن بيتنا، لم أجد مكانه سوى كومة حجارة. كان محلّ البقالة مفتوحاً وليس على رفوفه سوى بعض المعلّبات، وقد بات مرتعاً للهررة والكلاب.

راح الرجال والنساء ينظرون إلينا صامتين، وإلى جانب بعضهم بقجٌ مجهّزة. كما لو أنّ هؤلاء الأهالي ما كانوا ينتظرون إلّا عودتنا كي ينتقلوا إلى مكان آخر أو يغيّروا مجرى حياتهم أو ربما يستسلموا للموت. حرّرهم وصولنا من شيء ما، من عبء غلطة ما أو خطيئة أو بلوى.

صُدم والدي للوهلة الأولى عند رؤيته تلك الأشباح الخارجة من كابوس ما ثمّ انفجر ضاحكاً، فيما بقيت أمّي جامدة وسط أولادها وانتظرت في السيّارة. أمّا أنا فتبعت أبي. سار بخطى متردّدة. يلقي التحيّة على الناس حوله ولا أحد يردّ التحيّة. هل وقعنا في فخّ؟ هل دخلنا مصحّ مجانين أم مقبرة؟ طلعت من كل جانب تقريباً رائحة عفونة، هي رائحة الموت ربما، الموت البطيء الذي يحتلّ المكان من دون عوارض أمراض ولا بوادر عنف. كفّ أبي عن الضحك. لم يجد أمامه منازل ولا مزارع ولا قرية. تعرّف إلى بعض الوجوه لكنه لم يجرؤ على الكلام. وعندما وصل عند عجوزَيْ الذكريات المتداخلة، اقترب أحدهما منه وسأله:

- هل عندك ذكرى تودّ مقايضتها أو إرسالها إلى السماء؟ لن

أتأخر في الرحيل عن هذه الأرض... أو إذا أردت، يمكنك تحميلي رسالة إلى والدك أو جدّك، سأبلّغهم إيّاها فور وصولي.

فقاطعه العجوز الثاني:

- هل تعلم أننا منذ زمن طويل ونحن ننتظر هذا اليوم وهذه الساعة. ها قد عدت أخيراً لتخلّص القرية من اللعنة.

فردّت عليه راضية الواقفة قبالته:

- لا، ليس هو من يحرّرنا، بل هي.

ودلّت بإصبعها عليّ.

في هذه اللحظة تحديداً ظهر رجل عجوز بلباس أبيض يمتطي حصاناً رمادياً، يجرّ وراءه امرأة مكبّلة اليدين تمشي بصعوبة حانية الرأس.

أوقف العجوز حصانه وبحركة من يده أمر الجميع بالجلوس. وحدها المرأة المكبّلة بقيت واقفة. جلسنا أرضاً نستمع إليه:

- أهلاً وسهلاً! نرحّب بكم في هذه الأرض التي لم يعد ينبت فيها شيء ولا يعيش عليها شيء. كما تلاحظون، لا يوجد هنا إلّا عجزة فاقدو الروح وبعض الصخور، كلّ شيء قد تحوّل إلى حجارة وغبار منذ أن سيطر الشقاء على القلوب. يا بنيّ، منذ أن رحلت، منذ أن أخذت عائلتك بعد أن دفنت ولدك الذي وقع ضحيّة مكيدة مروّعة، منذ أن طُعنت البراءة وشوّهت على أيدي الكراهية، تعطّل كلّ ما كان ينفح هذه القرية بالحياة. تداعى كلّ شيء وغرق كل شيء في الانحطاط.

سنغادر جميعنا هذا المكان. نتركه للضباع وبنات آوى والكلاب

البرّية والرياح. لكن قبل ذلك، قل لي، هل أنت مستعدّ لمسامحة من كانت سبب كلّ هذا الشقاء؟

– ومن أنا لأمنح الغفران؟ ما أنا قدّيس ولا نبي. أنا مجرّد رجل مسكين يعمل لتأمين حياة أولاده. أنا مجرّد فلّاح لا يعرف القراءة ولا الكتابة، لكنّه يؤمن بالخير وبالله ورسوله. فلّاح أصبح عاملاً في بلاد النصارى. عدت إلى هنا لأنّ الحياة هناك صعبة. أخاف من أن يسلبني بلد النصارى أولادي، لذلك لملمت كلّ شيء وعدت لأعمل في الأرض وأؤمن لعائلتي حياة فضلى. لكن القرية مدمّرة. هل حدث زلزال؟ هل ضربتها الصواعق من السماء؟ هل وقعت حرب؟ لم أعد أعرف أحداً. يا لها من هزيمة! يا لهذا البؤس!

ارتمت المرأة المكبّلة على رجلي والدي وراحت تقبّلهما منتحبة كالمسعورة:

– خلّصني، سامحني، أنا مسكونة بالشيطان، أنا مثال الشرّ. يا ويلتي، ألا تتعرّف فيّ إلى شقيقتك، تلك التي كانت تلعب معك عندما كنّا صغاراً. أنا ممسوسة، وسبّبت الشقاء. الآن سأموت، لكنني أريد أن أفارق الحياة مطمئنة الروح. الروح؟ نعم، أعرف، ليس لي روح بل مجرّد خرقة بدلاً منها مليئة بالقطران والدهون. لكن لا تدعني أموت وأنا فريسة الكراهية. منذ أن توقفت عن اقتراف الأذى وأنا أتألم لأنّ السمّ يجري في دمي. أسمّم نفسي بنفسي، أدمّر ذاتي، أنا في جحيم. حتى الأرض لفظتني. دفنت نفسي كي أموت اختناقاً، لكن الحجارة رفضتني، قذفتني كعشب غير مرغوب فيه، كدودة غريبة. حاولت شنق نفسي لكن الحبل انقطع. محكوم عليّ بالعيش

في العذاب. أنقذني، سامحني! أنت الوحيد القادر على منحي الموت الذي أحتاج إليه. يكفي أن تضع يدك اليمنى على رأسي وأن تقول هذه الجملة:

أنا، شقيق سليمة المعروفة باسم فطومة، بوضع يدي على رأسها، أزيل اللعنة التي تحملها في داخلها، وأدعها بين يدي الله القدير، هو الوحيد الكفيل بأن ينزل بها العقاب الذي تستحقه.

كرّرها من بعدي. كلمتك هي المسموعة في السماء، وليست كلمتي. أنا مجرّد مجرمة ولن أفهم أبداً لماذا أنا سيئة إلى هذا الحدّ.

وضع والدي يده على رأس فطومة وتلا العبارة. سادت لحظة صمت، تراخى بعدها جسد المرأة ببطء ولم تلبث أن انتصبت واقفة في وجه شقيقها. حدّقت فيه ملياً، ثمّ تراجعت خطوة إلى الوراء وبصقت في وجهه صارخة:

– لستَ إلّا مجرّد كلب وجبان. رجل بائس يجرجر عائلته من بلد إلى آخر، وصدّقت أنّك بمجرّد وضع يدك بسذاجة على رأسي سيمّحي كلّ شيء بيننا. اعلم يا عزيزي أن الشرّ قوّة لا تُقهر. سأبقى حيّة إلى ما بعد موتك وسأستمر في حرق أراضي الراحلين. سأزرع العذاب في القلوب. آه أيّها الشقيق الحقير، ذو الطينة الطيّعة المجبولة بالطيبة والصفوة النتنة. ها أنت عدت وأمامك لجنة استقبال من الهياكل المتهالكة، أشباح لا يعرفون أيّ جسد يسكنون، بشر فقأت عيونهم صقور الأسلاف. لقد نسيك البلد وشُطبت من اللائحة، أنت والآخرون. أعد ذرّيتك إلى بلاد الغرب، حيث ستخسرهم حتماً. لأنهم لن يتكلموا بعدها بلغتك، ولن يصغوا إلى كلامك، ولن يؤدّوا

نفس الصلوات التي تقيمها أو لن يؤدّوا أيّ صلاة. سيتركونك وأنت تتخلّى عنهم. ستعود إلى البلد وتنتظر موتك على رماد أراضيك المحروقة. هذا هو المقدَّر. وداعاً. كان من واجبي أن أحضر إلى هنا وأنذرك. الآن لم أعد أكنّ لك أيّ كراهية، بل مجرّد إشفاق... ها قد دنا الفجر، وأنا سأرحل...

ومع انبلاج الفجر تلاشى جسدها في الهواء وابتلعه الضوء. نامت الهياكل المتهالكة وبقينا وحدنا، جامدين، منبهرين بهذا الاستقبال، هذا الكابوس المتولّد من التعب الكبير بعد سفرٍ طويل للغاية.

طبعاً ما زالت القرية في مكانها، أمّا نحن فكنّا قادمين من عالم آخر حيث اعتدنا رؤية فضاءات أخرى. في الحقيقة لم تتغيّر القرية كثيراً، أصابها بعض الخراب وفقدت شيئاً فشيئاً رونق الحياة بعد أن باتت مقفرة. لازمها قاطنوها لأنّه لا خيار آخر لهم، حبستهم الشيخوخة وبعض الأمراض في المكان الذي لا شيء فيه يتحرّك. لم يكن من الضروري البحث عن أيّ معنى أو منطق لكل ما حصل لنا للتوّ. أساساً لم تكن المرأة التي خشعت أمام والدي شقيقته. ليست فطومة، تلك التي قتلت أخي الصغير إدريس، بل امرأة بوجه آخر تكلّمت مثلها. توهّمت أعيننا أنّها رأتها وآذاننا أنّها سمعتها. كنّا منهكين تطغى علينا هلوساتنا وتخدعنا حواسّنا.

منزلنا قائم في مكانه، تكسو أشياءه طبقةٌ سميكة من الغبار. في كلّ زاوية منه تقريباً حاكت العناكب بيوتها، وعبقت فيه رائحة الغياب والهجران. سحبت أمّي شرشفاً كبيراً وبسطته في الباحة ولم ننتظر أكثر لننام عليه الواحد بجنب الآخر. استسلمنا لنوم عميق بعد ثلاث

ليالٍ من السهر والتعب. ولم يُفرغ والدي السيّارة من حمولتها، كأنّما فقد الرغبة في إنزال كلّ شيء. لم يقل شيئاً. أدرك أنّه ارتكب خطأ. لا يجب إخراج الصناديق والحقائب من الشاحنة، فكلّ شيء محزوم بالحبال، ولو سحب غرض واحد منها لتداعى كلّ ما فيها، وما فيها هو حياتنا وممتلكاتنا.

نمنا النهار بأكمله، ثمّ أيقظني والدي على مهل وطلب مني مرافقته إلى المقبرة لتلاوة الصلاة على قبر إدريس. اختارني لأنني الأكبر سناً، لأنني كنت أعرف كيف مات إدريس. بدأ الصلاة ونحن في الطريق. كان وجهه جليلاً وجميلاً. لم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام. مررت بيدي على خدّيه حيث ارتسمت على كلّ جانب منهما تجعيدة عمودية. والدي رجل قضى حياته في العمل. لم يعرف الراحة قطّ ولا العطل.

استقبلتنا راضية عند مدخل المقابر وبادرتنا بالقول:

- كنت أنتظركم.

فسألها والدي:

- لماذا؟

- لأن ما تبحثون عنه لم يعد هنا!

- كيف ذلك؟ ألم يعد قبر إدريس هنا؟

- هذا الولد ملاك. ما إن خرجت روحه منه حتى انتقل مباشرة إلى الجنّة. على كلٍّ لستَ جاهلاً بما أقوله. فأنت تعرف جيداً أن الأولاد يتحوّلون ملائكة بمجرّد أن يخطفهم الموت.

- نعم، لكن رفاته يجب أن يكون هنا...

- مبدئياً. لكن بما أنّ من المعروف أن المهمّ هو الروح وليس

الجسد، في اليوم الأربعين بعد الوفاة، يتمّ إفراغ القبر...

- كيف ذلك؟ ليس هذا مشروعاً والقانون يحظره...

- أيّ قانون؟ القانون الوحيد هنا هو قانون البشر، والحال أن البشر، خصوصاً هنا، فاسدون. كلّ شيء خاضع للبيع والشراء حتى رفات طفل! لقد شاهدت ما آلت إليه حال القرية، ولمست أنّ القبيلة لم تعد موجودة تقريباً. نحن في هذا المكان النائي، بعيداً عن المدينة، بعيداً عن كلّ شيء، وعلى مشارف الشرّ. منذ بضع سنوات ونحن صامدون في هذه الحياة، في غياب الأخلاق والقانون والدين. وكلّ ذلك خطأكم. رحلتم جميعاً، الواحد تلو الآخر.

- لكن أين قبر ابني؟

- يُفترض أن يكون هناك، في المكان الذي دُفن فيه الحاج ميموني الذي حجّ مكّة ثلاث مرّات وفي نيّته أن يصبح الوليّ السيّد على قبيلة آيت صديق! ما كان يجب أن أخبرك بكلّ ذلك. هيّا، اتلُ صلاتك، سيسمعك أينما كان. وعلى كلّ حال سيتقبّلها الله منك.

-١٨-

منذ ذلك اليوم أصبح كلّ ما أشاهده في أحلامي يجري في المقابر، وكانت الأمور التي أراني أعيشها في هذه الأماكن المشمسة والمزهرة جميلة عموماً، وهي عبارة عن مغامرات تبدأ بنحو جيّد، بقهقهة عالية مثلاً، ثمّ تبقى معلّقة لا تكتمل. ولا أتمكن من استئنافها أبداً في ما بعد. قد يكون أجمل حلم رأيته في مقبرة إسلاميّة متعلّقاً بالموسيقى. فأنا كغالبيّة أولاد هذا البلد، عشت طفولة بلا موسيقى. لم يكن عندنا في المنزل بيانو ولا فيولونسيل ولا طبل، ولا حتى هارمونيكا. كانت الموسيقى تصلني متقطّعة من راديوهات الآخرين. وهل ما يصلني كان فعلاً موسيقى؟ كانت تأوّهات واهنة متباكية، أغانٍ من مصر، قصائد حب تغنّيها أصوات جميلة تتخلّلها لازمات كفيلة بإبكاء مدينة بأكملها. وإليكم ما سمعت من دون أن أعيره اهتماماً. في يوم ربيعي رحت أقفز فوق القبور على رؤوس أصابعي وأركض مدفوعة بهواء خفيف ولذيذ. ورحت أحسب بسرعة مذهلة عمر الأشخاص المدفونين بمجرد نظرة سريعة ألقيها على شواهد القبور. وفي غضون بضع دقائق حصلت على مجموع الأعمار ثمّ قسمته على عدد الموتى

فكانت المحصلة تسعاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، هو معدّل عمر هذه المقبرة الصغيرة.

الأوركسترا التي بدت لي مؤلفة من ثمانية وأربعين عازفاً إضافة إلى قائد في مقتبل الشباب وفي غاية الحسن، وفي يده عصا، وكلهم ببدلة السموكن الرسمية. طلب القائد بعض السكوت من العصافير المزقزقة، واستدار نحوي، ثم أعطى الإشارة للموسيقيين فباشروا عزف موسيقى مرحة وسعيدة تلائم على الأرجح أجواء الربيع. ولا بدّ أنها موسيقى "الفصول الأربعة" لفيفالدي كما علمت لاحقاً. وما أذكره تماماً حدث لحظة اكفهرّت السماء وأصبحت الموسيقى حزينة. فقد استدرت لأجد القبور مفتوحة. تسعة وأربعون قبراً مفتوحاً يتصاعد منها دخان أبيض. أحسست بالبرد، ولم أعد أسمع الموسيقى التي كانت تعزفها الأوركسترا. صُمّت أذناي وراحت رجلاي تغوران ببطء في الأرض الرطبة. تمسّكت بشاهدة القبر لكن يداً قوية كانت تشدّني إلى أعماقه. رحت أصرخ لكن لم يخرج أيّ صوت من حنجرتي. وعندما أنظر إلى قعر القبر تتلاحق أمامي صور خلّابة. ألوان زاهية على أثواب تلبسها نساء من داخل البلاد، اختلطت بلافتات يرفعها متظاهرون، وأنا ما أزال عاجزة عن سماع أيّ صوت. كان كلّ ما فيّ يختلج وقد وقعت أسيرة ما سمّته لي أمّي غداة ذلك، عندما رويت لها كابوسي، "حمار الليل".

بعد عودتنا إلى فرنسا بالسرعة نفسها التي غادرناها بها، صار بلدي يملأ عليّ لياليّ عبر أحلام تتحوّل كوابيس. بتّ مهووسة بكلّ ما فيه، المناظر والوجوه وألوان السماء وعطور الطبيعة والبهارات

والأصوات. ثمّ كانت هناك صورة الكنز المرصود في الجبل والمفترض أن خطّة الوصول إليه مرسومة في خطوط كفّي.

كان معلمي في اللغة الفرنسيّة رجلاً مثقفاً جداً منحدراً من عائلة أرستقراطية مفلسة، وممّا كان يقوله لنا: "كان والدي غنيّاً ومشهوراً. أمّا أنا فمفلس ولم أبلغ الشهرة بعد!". عاش هذا المعلم فترة في إيطاليا حيث عمل، فاكتسب فيها أناقة وكرماً طبيعيين. كان يهتمّ كثيراً بتلاميذه ويبدي اهتماماً خاصّاً بالقادمين من المغرب.

وممّا تمتّع به هذا الرجل موهبة قراءة الكفّ.

ساورتني رغبة خفيّة في أن أفتح كفي لشخص غريب كي يقرأ طالعي. أردت أن أعرف وأن أتحقّق ممّا كان يعتقده أهلي وأجدادي. هل كنت فعلاً مفتاح هذا الكنز المخبّأ في الجبل؟ أهي أنا أم فتاة أخرى، ربما نسية لي، الفتاة ذات كفّ السعد واليد التي تشير خطوطها إلى الموضع السرّي؟ قلت في نفسي إنه إذا ما أكّد لي السيد فيليب دو...، كما صار يُدعى بسبب هذه السابقة اللغوية الصغيرة التي تقدّم اسماً عصيّاً على اللفظ، هذه القصّة القديمة، فلن أحمل بعد اليوم وزر هذه الخرافة التي باتت عبئاً عليّ.

كان السيد فيليب شخصيّة فريدة من نوعها، يتميّز عن سائر المعلمين بمفهوم تربوي يرتكز على اللعب وإثارة الفضول ومحاربة الضجر، حتى اعتبره البعض "غير امتثالي!" وقد تخيّلنا أنّ في هذه العبارة انتقاداً له مع أننا لم نفهم معناها. علّمنا الأدب والشعر وحكى لنا قصصاً حدثت معه، فأخذنا معه مثلاً أفضل درس في الرسم بسبب لوحة ورثها أهله ونُهبت في عملية سطو. يومها عرفنا أن لوحة ما قد

تساوي الملايين. ومذّاك أصبحت أعرف كلّ شيء عن ماتيس، عن حياته وألوانه وأهوائه ومآسيه وإقامته في المغرب.

كان السيد فيليب دو يأخذنا لزيارة المتحف ويستقدم كتّاباً إلى المعهد ويعرض لنا الأفلام ويطلب منّا كتابة قصص قصيرة. رويت قصّتي، أو تحديداً قصّة راعية صغيرة من جبال الأطلس العليا عيّنها أسلافها للعثور على كنز مخبّأ في الجبل. وذكرت فيها خطوط يدها التي تحدّد جزئياً معالم المكان المنشود. وصفت بنوع خاصّ الحرج والمخاوف التي شعرت بها تلك الفتاة التي غادرت بلدها تاركة عائلتها وقبيلتها تخسران صندوقاً مليئاً بالقطع الذهبية...

استدعاني السيد فيليب دو عند انتهاء الدرس وسألني:

- هل قصّتك حقيقية أم من صنع الخيال؟

- أنا تخيّلتها أستاذ...

أدرك تماماً أنني أكذب. أخذ يدي اليسرى، تأمّلها، ثمّ اليمنى. قارنهما، أحسّ ببعض الانزعاج وقال لي:

- ليس هذا المكان المناسب لأقرأ كفّك، هذا يتطلّب منّي تركيزاً. أرى بعض الأمور لكنني أفضّل أن أرى كفّيك مرة أخرى وبهدوء. سأبلغك متى.

شحب وجهه وارتجفت يداه. صُدم بما رآه أو استشعره، وتركني مشوّشة الأفكار. بعد أسبوع حضر من دون دعوة لشرب الشاي عند أهلي، ولم تكن المرّة الأولى التي يزورنا فيها. كان يحبّ كثيراً التحدّث مع الأهل عن تلاميذه، وهو حظي بمحبّة عائلتنا. يحمل معه دوماً إلى أشقائي وشقيقاتي الكتب والأسطوانات أو بطاقات لحضور

العروض المسرحية بعد ظهر يوم الأحد. في ذلك اليوم راح يقرأ في كفّ كلّ أفراد العائلة. ضحك ومازح الأولاد الذين أحاطوا به ومدّوا له أيديهم. ساير كلّاً منهم بكلمة لطيفة. توقّع لمليكة مستقبلاً حافلاً بالحدائق المزهرة. ومع لطفي ذكر الحبّ ونساءً جميلات صعبات المراس. وخصّ ناديا بعربة من الشوكولا والسكاكر. أمّا أنا فكلمني بنبرة رزينة وجدّية.

- في كفّك يتقاطع خطّ الحياة وخطّ الحظّ عند نقطة ينبئ فيها خطّ الصحّة بشيء من القلق. أعترف بأنني نادراً ما قرأت كفاً غنيّة ومعقّدة مثل كفّك. أرى الكثير من الأحداث في انتظارك. لكن أقول أيضاً إنك قبل سنوات عشت مأساة. فقدت شخصاً عزيزاً عليك وأرى أن عيناً واسعة ابتلعته. أنا لا أقرأ المستقبل. لا أحد يمكنه ذلك. لكن بإمكاني، انطلاقاً من الماضي، أن أتكهّن أو أستشعر أين سيصل مسار الأحداث. في هذه الكف بعض ملامح قصّتك عن الكنز، أرى فيها سرّاً على شكل نجمة، نجمة متحركة، هو سرّ يصعب الاحتفاظ به ويثقل حمله، ففيه شيء من سيرورة القدر. وحياتك تحت تأثير هذا السرّ. ولماذا يصعب حمله إلى هذا الحدّ؟ لأنّ وجوده يمنعك من أن تكوني مرحة ومنشرحة. لا تدعي هذه القصّة تسحقك. عليك التخلّص منها في النهاية.

قرأت للتوّ كفّ والدتك للحظة خاطفة، فيها أيضاً بعض آثار وجود هذا الكنز. لا أعرف كيف تمكنت من التخلّص منها. ربّما هي نفسها لا تدرك ذلك.

- لكن ما هو الأمر المقلق إلى هذه الدرجة الذي تراه؟

- إنه ليس مقلقاً، بل مثير ورائع. إنه الفرق بين أهل الجبال وأهل السهول، بين القادمين من الشمال والقادمين من الجنوب. أنت ابنة الجنوب، هناك حيث يحتلّ المنطق مرتبة ثانويّة، وحيث السكون والمحجوب والظلّ والليل والمياه والضوء هي جوهر الحياة نفسها.

- هل أنا ضالّة إذاً؟

- كلا! لا يحقّ لمن يحمل سرّاً أن يضلّ. أنت شابّة، ومع ذلك، بحسب كفّك، عدَوتِ سابقة الزمن كأنّ ريحاً صحراوية كانت تدفعك، ولو قاومتها لآذتك. لقد سلكت الطريق المرسوم لك، وهذا ما كان عليك فعله. لقد بلغتِ الآن حدّاً من النضوج يقيك شرّ العواصف.

- ما هو هذا الكنز؟

- وهل أنا من يمكنه إخبارك بذلك؟ لا أحد يقدر على مساعدتك على الإجابة عن هذا السؤال. أنا لمحت بعض الأشياء، شاهدت ظلالاً وتبيّنت بعض الآثار. إنها عناصر لغز مفكّكة. لغز جميل ينطوي على أسرار وشك وإثارة وفتنة. وأنتِ من عليه حلّ خيوط هذه القصّة الرائعة.

بدا منهكاً. وقف وطلب منّي أن أعتذر له من أمّي. غادر السيد فيليب دو وتركني في حيرة كاملة من أمري، "قصّة رائعة" أيّ قصّة هي هذه؟ أين تبدأ؟ ومع من تحدث؟

-١٩-

قصّتي، أو المفترَض أنها قصّتي، لم تكن قصة عادية. خرجت من كتاب ضخم حافل بالحكايات.

ومن قصّها عليّ هو فيكتور، الشخصية ذات العينين الجاحظتين. أمضينا ليلة بطولها، هو على كرسيّه وأنا جالسة القرفصاء على الأرض، ونحن نستعيد الشوارع والمنازل والقصور التي يُفترض أن تجري فيها هذه القصّة في قرنٍ قديم:

"كان اسمك كنزة، ولك شقيقة توأم تحمل اسم جدّتك زينب. كان والدكما شيخاً، سيّداً كبيراً تدهورت أحواله بعد سنوات جفاف متلاحقة. كان رجلاً تقيّاً ومحبوباً ومحترماً في عائلته وقبيلته. وبين أولاده العشرة كنتما المفضّلتين عنده، وهو مستعدّ لكلّ شيء إرضاءً لكما. وليس أنكما لم تكونا تفترقان، بل لم يعد من الممكن تصوّر الواحدة منكما من دون الأخرى حتى كأنكما شخص واحد، علماً بأنكما لا تتشابهان جداً، فزينب ذات عينين فاتحتي اللون وأنت عيناك سوداوان. شعرك قصير وأجعد وشعر زينب طويل وأملس. أنت سمراء وزينب ذات بشرة فاتحة اللون. الطول نفسه تقريباً لكن

المشية تختلف. هذا من ناحية الشكل، أمّا طباعكما فمتكاملة بشكل مذهل. تغضب إحداكما فتحافظ الأخرى على هدوئها، تمرض الواحدة فتبقى الأخرى بصحّة جيدة. لا تمتعضان في الوقت نفسه، بل كلّ بدورها. توصّلتما معاً أنتما الاثنتين لأن تشكّلا امرأة مثالية وُهبت ذكاءً خارقاً. تبدأ إحداكما الكلام بعبارة فتكملها الأخرى بكل سهولة. لا يفوتكما شيء، ولكما أسراركما التي لا يتجرّأ على محاولة معرفتها أحد، لأنّكما لم تتحمّلا الدخلاء والفضوليين. والويل لمن يحاول كثيراً التدخّل في شؤونكما.

في أحد الأيام، حضر رجل غني ونافذ، بعد أن سمع عن جمالكما، عند والدكما، تتبعه قافلة من الهدايا. كان ذلك طلب زواج. كنتما قد أتممتما الثامنة عشرة، وأنتما حسناوا الحسناوات، جميلتان إلى حدّ يفوق الوصف، داهيتان وفطّنان، مستعدّتان لكل مغامرة من دون وازع. كان الرجل كبير السنّ، أصلع وبديناً جدّاً. رأيتما أنه أحمق في طلبه ولمعاقبته قرّرتما قبول عرضه، وقلتما لوالدكما:

– أبي! حضر هذا الرجل لشرائنا، أليس كذلك؟

– لا تتفوّها بالحماقات. أنتما لا تقدّران بثمن. هذا الرجل مغرم بالجمال. استقبلته وسمعت طلبه. لكنني لست مجنوناً أبداً لأعطيه إحدى جوهرتيّ، حتى لو حمل مَهراً لا يضاهى.

– يا أبي، أتعلم أننا نحبّ كثيراً الرجال الذين يهوون الجمال؟ لا ترفض طلبه. أنا وأختي نريد أن نكرّمه على طريقتنا. قل له إننا لا نفترق، وإن كان يريد زينب فعليه أن يتزوج كنزة أيضاً... بما أنه رجل يهوى الجمال، سنغمره به. نحن نقبل هداياه ومهره شرط أن يتزوجنا

نحن الاثنتين على سنّة دينا الحبيب وشريعته.

– لكن أتعلمان أنّه متزوج وعنده أولاد من عمركما؟

– لا يهمّنا ذلك، نحن مستعدّتان لهذه التضحية لإخراجك من هذا الوضع الذي أوقعك فيه الجفاف.

– محاولتكما تقلقني. أنتما، الصبيتين الجميلتين، لماذا تدفنان نفسيكما في منزل رجل عجوز؟ ثمّ إنّ في ابتساماتكما ما يثير المخاوف.

– لا يا أبي! هذا الرجل بحاجة إلى الشباب ليعيش. نحن مستعدتان لأن ننفحه بشيء من حيوتنا وشبابنا. لكنْ هناك أمر واحد يجب أن تعرفه يا أبي: بين يوم وآخر سيندم هذا الرجل لأنه جاء طالباً الاقتران بالجمال.

استدعى الوالد صهره العتيد وقال له:

– يشرّفني أن أبلغك أننا وافقنا على طلبك الزواج، ليس أنا وزوجتي فقط، بل زينب وكنزة أيضاً. المشكلة الوحيدة هي أنّ بين ابنتيّ التوأمين عهداً على ألّا تنفصلا أبداً. وبالتالي لا يمكنني إعطاؤك يد إحداهما من دون فرض الثانية عليك. فهل توافق على هذا البند الخاص؟

– أنت تشرّفني كثيراً بذلك. لكن هل هما متفقتان؟ أنت تعلم لا شيء في العالم يجعلني أحرم فتاة حرّيتها...

– ليستا متفقتين وحسب، بل هما تشترطان ذلك. لم تنفصلا قطّ في حياتهما... الشرط الآخر هو أنّهما لا تريدان حفل زفاف، يجب أن يتمّ كلّ شيء سرّاً.

عقد الزواج بعد أيّام، وانتقلتما للعيش في منزل العجوز الذي تركتكما لألعابكما وسهر على راحتكما. هو غنيّ وقبيح، لكن ليس أحمق. لم يدخل غرفتكما قط. أي إنّ الزواج لم يتمّ فعلاً. كان من وقت إلى آخر يبعث إليكما رسالة حبّ معبّراً فيها عن أسفه ومعتذراً عن عدم توفر الوقت والطاقة اللازمة للاهتمام بكما. وتحوّلتما من زوجتين تخطّطان للانتقام إلى سجينتين في قصر لا يمكنكما الفرار منه أبداً.

مرض العجوز فاستدعاكما وسلّمكما مفتاحاً ذهبياً وقال:

– يا جميلتيّ، يا لؤلؤتيّ، يا أجمل اللآلئ، أنا آسف لأنني أهملتكما. شكراً لأنكما أضفيتما على هذا المنزل الحياة التي كان يفتقدها. منذ مجيئكما تضاعف رأسمالي وازدهرت أعمالي وزاد شغفي بالحياة انتقاماً من العمر. أنار وجودكما عتمة لياليّ الطويلة حتى وإن لم نتشاركها. مجرّد التفكير في أنكما سعيدتان في هذا المنزل يمنحني شعوراً بالسعادة. جمعتكما هذه الليلة لأعرض عليكما أن تستعيدا حرّيتكما. كنت بحاجة إليكما، والآن صار لزاماً عليّ أن أخدمكما. ستعودان إلى والدكما. اقبلا منّي هذا المفتاح الذهبي. هو مفتاح خزنة تحوي قسماً من الكنز الذي ساعدتماني في الحصول عليه. أعرف أنكما لستما على علم بكلّ ما جرى، وشرحه لكما قصّة طويلة. لكن اعلما أنه بفضل وجودكما في هذا المكان تمكنت من ملء عدّة خزنات بالقطع الذهبية، ومن الطبيعي جداً أن تُكافآ على ذلك. دُفنت الخزنة في ناحية من الجبل. وأنا أجهل خريطة الوصول إليه إذ كانت عيناي معصوبتين. لا أحد يعرف

مكان الكنز. وبعد مئة عام ستولد فتاة رُسمت في خطوط يدها اليمنى خريطة العثور على الكنز. والأرجح أنكما لن تكونا موجودتين لفتح الخزنة بهذا المفتاح. لكن عليكما تناقله من الأم إلى البنت حتى يأتي اليوم الذي تظهر فيه تلك التي ستصل بلا أيّ عناء إلى المكان السرّي الذي دُفن فيه الكنز. بعد موتي يجب أن تتزوّجا. أنجبا أولاداً ليكبروا بدورهم وينجبوا أولاداً إلى أن تولد تلك التي ستكون آخر إنسان يحمل هذا السرّ في نفسه فتحرّر القبيلة التي ستكون أسيرة أساطيرها وقد تخلّى عنها الله ونبيّه. اتّقوا شرّ البشر. وفي هذه القصّة امرأة، هي التي ستسبّب شقاء العائلة.

هذا هو اللغز. قصّة عمرها مئة سنة تلاحقك حتى اليوم. لكن هل تعلمين على الأقلّ ما الذي حصل لزينب؟ تزوّجت بأحد أبناء العجوز، فلعنتها قبيلتها واحتفظت بمفتاح الكنز. هذا الزواج الذي تحرّمه شريعة البشر وليس الإسلام فقط كان سبب كلّ مآسيكم. ثم شيئاً فشيئاً هجر الرجال القرية بعد أن راحوا يسافرون للعمل في الخارج، ثم انقرضت فيها الولادات ونضبت ينابيع المياه، ولم تسلم فيها إلا الصخور. وأظنني أعرف أن جدّة والدة فطومة كانت تُدعى زبيدة وما هي إلا زينب، شقيقتك التوأم في القصّة. أمّا المفتاح فقد ضاع أو سُرق. لا وجود للكنز إلّا في الحكاية. والأرجح أنّ ما تحملينه في خطوط يدك هو مسار هذه القصة.

حالياً، أنت الوحيدة القادرة على إقفال تلك القصة. لذلك، عليك أن تعودي إلى القرية وأن تحرّريها من تلك اللعنة المجبولة بالخرافات والرضوخ."

-٢٠-

لم يكن وارداً عندي أن أقوم برحلة العودة. فالمسألة لا تعنيني، ثمّ إني لم أعد في عمرٍ أصدّق فيه هذه القصص عن كنز خبّأه شيخ عجوز ثريّ في أحد أنحاء هذا الجبل الذي يشرف على قريتنا التعيسة ويسحقها بظلّه. وغالباً ظننت أن البؤس يصيب الناس بالغباء، ولا يمكن تصوّر ما هم قادرون على اختلاقه لحجب فقرهم وتزيينه وإنكاره.

في إحدى الليالي، عشيّة إتمامي العشرين من عمري، قرّرت ترتيب كلّ تلك الأمور، في رأسي أولاً، وفي ما بقي لاحقاً. وبضربة واحدة، ولنقل بحركة من يدي، صرفت فيكتور واستعدت كرسيّه الذي يُطوى. لم يعد لهذه الشخصية وجود ولا ينبغي أن يتدخّل في حياتي بعد الآن. اعتمدته بداية لأنّه أثار فضولي ولأنه تمتّع بكلّ ما في شخصيات المسرح أو الروايات. خدمني فعلاً لكنه تمادى قليلاً في القصّة التي كان يُفترض به أن يتحكّم بها، وبدل أن يقف على الحياد مراقباً يقظاً، تقرّب من مليكة وحاول إخراجها عن الطريق الصحيح ليجعلها "مكافحة" كما قال. كما نقمت عليه لأنه أدخلني في حكاية من الليالي والأيام السالفة.

لم يكن من السهل صرف فيكتور، إذ لا يمكن التخلّص من شخصية كما من كرسيّ قديم. وغالباً ما كان يعود، خصوصاً في الليل، ليقيم في أحلامي ويحوّلها كوابيس. جعلني أستعيد كابوس المقبرة، لأرى فيه كلاً من الموسيقيين يحمل منشاراً يقطّع به جثثاً دُفنت حديثاً، فيما أنا ملتصقة بجذع شجرة وأرى فيكتور مكان قائد الأوركسترا يدير هذه المجموعة بتوتّر شديد، وبين الفينة والأخرى يلتفت إليّ ويطمئنني بحركة من يده. لكنه كان في الحقيقة يرعبني، حتى بتّ أخشى الليل والنوم بسبب المواعيد التي كان يضربها لي. وفي نهاية كل كابوس كان ينحني ويقول لي بصوت أجشّ: "الى الغد يا جميلتي، أنا ماثل تماماً في عتمة لياليك. لن أفارقك البتّة لأنك لن تتمكني أبداً من التخلّص منّي. أمامنا الحياة كلها لنتبادل الحب والكراهية. أتمنى لك نهاية ليلة هنيئة، إلى اللقاء غداً!".

ظلّ فيكتور سيّئاً. عندما أتيت به إلى قصّتي لم أحسَب أنه سيمكث فيها بهذا الشكل وينتقم منّي.

ظهر عليّ في إحدى الليالي بلباسٍ أبيض وبيده باقة ورد كبيرة، تتبعه عجوز بجلباب أبيض تحمل صينية عليها أنسجة حريرية، تمشي وراءهما صبيّة تؤرجح مبخرة. أقلّه هذه المرّة لم يكن لقاؤنا في المقابر. كنّا في منزل كبير أندلسيّ الطراز. جاء فيكتور برفقة أمّه طالباً يدي للزواج. كان طوله قد زاد بضعة سنتمترات وبدا وجهه أكثر ارتياحاً. رفض أبي طلبه لأنه لم يكن يتكلّم البربرية ولا العربية، وأنا لم يكن لي بتاتاً رأي في المسألة. وفي كلّ الأحوال كنت سأرفض طلبه. قال إنه مغرم بي وإنه لا يتصوّر حياته من دوني، حتى إنه هدّد بأخذي

عنوة وتحدّث عن اختطاف وسجن وكنت أعلم أنه قادر على ذلك.

"لماذا ترفضينني بعد أن اختلقتني؟ تتلاعبين بالناس كأنهم أشياء. كنت إنساناً عادياً. وجدتني غريب الأطوار فصرت غريب الأطوار. أردتِني محيِّراً فصرت كذلك أيضاً. صنّفتِني بين الأشياء الغريبة وظننتِ أن لا وجود لي ولا مشاعر ولا رغبات. لا شيء. ظننت أنني مجرّد صورة أو كائن وهمي تضعينه في زاوية لمراقبة الآخرين. لكن راقني هذا العمل وأحببت أن أطيعك، أحببت أن أنفّذ أوامرك التي غالباً ما كنتِ تهمسينها همساً. كنت أقرأ شفتيك، هذا إن لم أقرأ أفكارك على وجهك. أحببت هذا الوجه وهذا الجبين العالي وهاتين العينين السوداوين. أحبّ عينيك وابتسامتك. أحبّ شفتيك الممتلئتين والناعمتين. أحبّ يديك الصغيرتين الرقيقتين. أحبّ عنقك. أحبّ بطنك. أحبّ حلمتَيْ نهديك الصغيرين. أحب صوتك وهو أكثر ما أعرفه فيك. لا أحبّ غضبك وصراخك. هذا لا يشبهك، ومع ذلك أنت غضوب أيضاً. أقصد عصبيّة المزاج. أحبّ حياتك، أحبّ قصّتك. أنت بطلة. أتدركين ذلك؟ منذ وقت قصير كنت راعية لا تكلم سوى الماعز والأشجار، وتعلّمت كل شيء بسرعة. أنت ذات جدارة عالية. لهذا أنا مغرم بك، ومستعد لكل شيء من أجل البقاء بجانبك، لكي تعودي صديقتي وحبيبتي وحبّي. تظنين أنّني مجرّد إنسان من ورق، مجرّد ظلّ يلازم قصّتك. لا. أنا موجود وهائم بك. إن أصررت على رفضي فسألاحقك في كلّ مكان. ليس عندي ما أفعله سوى حبّك. أنا لك. وستكونين لي، أينما كنت، أينما ذهبت. سأتبعك في كلّ مكان. حتى الآن لا أزال متكتّماً. لا أظهر إلّا ليلاً، أثناء نومك، ولا أريد إزعاج

الآخرين. لكنني قريباً لن أتورّع عن ملء نهاراتك.

ظننت أنك ستفهمين ما لم أفهمه أنا نفسي. ما يحصل لي يعذّبني ويؤلمني. كنت مرتاحاً جداً وأنا جالس في الصمت والعتمة. أمّا حياتي فأنا أدين بها لك، ويحقّ لي المطالبة بالحياة. لا يحقّ لك الاعتقاد بأنها كانت مجرّد لعبة وأنك الآن تنتقلين إلى شيء آخر. عشت بفضل رعايتك لي والاهتمام الذي أوليتني إيّاه. الأرض التي مشيت عليها كانت ملكاً لكِ، كما عباراتي وحركاتي وبصقاتي ورفّات وجهي وأرقي. عندما أشحت بنظرك عنّي كدتِ توجّهين إليّ ضربة قاضية. نجوت من الفناء لأنّ من حظّي أنّي احتفظت بصوتك حيّاً هنا، في صدري. عندما تكلمين يتردّد صوتك في قصبات رئتيّ. في هذا الجسد المترجرج شيء منك. وفي الواقع، إنّ رجليّ لم تفارقا قطّ الأرض التي خصّصتها لي. انجلت الأمور لي وبات لي مطالب. وأنا الآن أريدك لي وحدي، وإن فشل الأمر فسأنبّه كلّ الذين اختلقتهم ثمّ تخلّيت عنهم.

أنا لست وحشاً، حتى وإن كنت مصنوعاً من نزوة وورق وكلمات جلفة ونوتات موسيقية لا تناغم فيها. بات لي الآن قلب مليء بكِ ولا أعرف إلى أين أذهب. أريد تفادي الوقوع في ما تسمّونه "الحقل العام" حيث يمكن لأي شخص التعرّف إليّ وانتهاك حياتنا الحميمة أو حتى تمزيق الورقة التي أظهر فيها، لأنني لست، ولن أكون أبداً، رجلاً ودوداً، رجلاً عادياً قادراً على الذوبان في الجماهير وعيش حياته الوضيعة.

سأقف على عتبة الليالي كلّها وأنتظر. سأبقى وفياً لكِ ولنفسي."

أصبحت ظهوراته الليلية مؤثرة أكثر. كان يلحّ ويغضب ويهدّدني بأسوأ العواقب. وبدأ الخوف ينتابني. هل كنت مجنونة أم سائرة إلى الجنون؟ أتأمّل نفسي في المرآة ولا أرى إلّا وجهاً مرهقاً نتيجة الأرق والنوم المضطرب. وماذا لو تصرّفت الشخصيات الأخرى بالطريقة نفسها؟ ماذا لو نزلت جميعاً في شقتنا الصغيرة ودخلت حياتنا؟ فكّرت أنّ من حسن الحظ أنني لم أتخيّل في قصّتي جيشاً من الجنود الحماسيّين.

قرّرت التصرّف ردّاً على ذلك. فمن الضروري وقف هذه اللعبة واستعادة لياليّ الهانئة. وعلى من أعرض مشكلتي؟ على السيدة سيمون الطيّبة القلب؟ لكنها مساعدة اجتماعية وليست طبيبة نفسية! على أمّي؟ لن تتوانى عن استدعاء الأطبّاء الدجّالين إلى المنزل. أمّا أصدقائي في الكليّة فلن يفهموا أيّ شيء من هذه القصة، سيسخرون منّي ويستغلّون ذلك ليجعلوني مجنونة.

ساورني الشكّ في نفسي. كنت أحياناً أسمع صوته في وضح النهار يقول لي: "يا عزيزتي، أنا لست حلماً أو شبحاً معزولاً في الليل. أنتِ من أحبّ وألوم نفسي على الاستبداد بكِ بهذا الشكل. لا حياة لي إلا بك وسألازمك ما دام فيكِ رمَقٌ من حياة. أنا آسف لاضطرابك ولا أقول عذابك. أودّ كثيراً مساعدتك وامتلاكك بغير الخوف والتهديد. أنا أعاني من هذا الحبّ المزعج ولا يمكنني أن أدع الشقاء يسيطر على روحينا. تظنّين أنك صنعتِني بلا روح، مجرّد جسد، صورة مضخّمة توحي بالحياة. لكن يجب أن أقرّ لك بأنني خدمت أيضاً شخصاً آخر، شخصاً رفيع المقام لم يتخلَّ عنّي. إنه

فنّان، نحّات اختارني "موديلاً" له. وأعترف بأنه كان رجلاً فريداً لأن البائس قضى مهشّم الرأس تحت منحوتته المعدنية التي انقلبت عليه فيما كان يصقل الرجلين. لست أنا من قتله بل نظيري المعدني. وبالرغم من المادّة العقوق نفخ فيّ الفنان روحاً ما أزال أحتفظ بها بعناية. وفي الحقيقة، قرّرت منذ يوم الحادثة العودة إليك. فلا خوف من أقع على جسدك الضعيف، وعلى كلٍّ لم أعد من حديد، أنتِ جعلتني من ورق. كلّ ما بإمكاني فعله هو إقلاق لياليك، ويمكنني ببعض الجهد أن اكتسح نهاراتك. ولذلك ما أزال أتريّث. حبيبتي، اعلمي أنني لست كائناً وهميّاً!".

قصّة النحات الذي قتلته منحوتته قصة حقيقية. تحدثت عنها الصحافة. كان حادثاً عرضيّاً. لم تكن قاعدة التمثال مثبّتة جيداً. وكان هناك هرّان يتقاتلان، تعلّق أحدهما بيد المنحوتة الممدودة، وعندما انقضّ عليه الآخر أوقع الكتلة الحديدية بكامل ثقلها على رأس الفنان العجوز.

هكذا خطرت لي فكرة الاستعانة بكاتب أسأله كيف السبيل إلى التخلّص من شخصيّة مزعجة. إلا أنّ الكتّاب الذين كنت أقرأ لهم في تلك الفترة كانوا قدامى وكلّهم ماتوا منذ زمن طويل. وفكرت أنه لو كان جول فيرن حيّاً لساعدني حتماً. كنت قد قرأت أيضاً فيكتور هوغو وبنجامين كونستان، بعدما نصحني بهم أستاذي السيد فيليب دو. وعندما وقعت لي هذه القصة لم أعد تلميذته لأنني كنت قد باشرت مرحلة دراسية خاصة في جامعة يستقبلون فيها الطلاب الذين لم يحصلوا على شهادة البكالوريا. عدت إلى الثانوية وطلبت

موعداً من السيد فيليب دو الذي تجاوب وهو الذي حضر لزيارتي في المنزل. حكيت له قصّتي، فأضحكه الأمر كثيراً.

- لكنك تهلوسين يا صديقتي المسكينة! إنها هلوسات بكل معنى الكلمة. كلّ ذلك يدور في رأسك. لن تقنعينا بأن فيكتور موجود! حتى وإن كان موجوداً فماذا يمكنه أن يفعل؟

- أعرف ذلك، لكنه على علم بقضية الكنز ويدّعي أنه إذا وظّفته مجدّداً فسيرشدني إلى مخبأ الكنز... وإلّا فسينكّد عيشي طول الوقت...

- لكنك تعرفين جيداً أنها قصّة رمزية... فالكنز ليس مدفوناً في الجبل. إنه الحياة والقدر والحبّ الذي ستعيشينه... وليس في الأمر أيّ قطع ذهبية! ثمّ إنك لم تعودي بنتاً صغيرة، ولم تعودي راعية في جبل الأطلس الأعلى. قصّتك صالحة للكتابة، يجب أن تخرجيها من الحلم. والطريف في الأمر أنك إذا كتبتها تكفّ الشخصيات عن تنكيدك. ومن أجل هذا عليك استشارة شخص تعوّد التعامل مع هذا النوع من الشخصيات. فلماذا لا تستشيرين كاتباً؟

- خطرت لي الفكرة، لكنهم جميعاً أموات! هل بإمكانك ان توصلني بجول فيرن؟

- لكنني لست وسيطاً!

- إذاً صلني بكاتب على قيد الحياة.

أخذ السيد فيليب دو مطلبي على محمل الجدّ. ظنّ أنني أريد كتابة قصة وأنني بحاجة إلى نصائح أحد الروائيين. فكتب لي رسالة توصية إلى كاتب مشهور يعرفه جيداً.

احتفظت بتلك الرسالة عدّة أيّام في حقيبتي. لم أجرؤ على القيام بتلك الخطوة. خفت. خفت أن أبدو سخيفة، وأن أزعج رجلاً كثير الانشغالات. قرأت أوّلاً بعض مؤلفاته. أعجبت كثيراً بالصور التي يستعملها لكنني ضعت في قصصه. وجدت في مجلة مقابلة معه يقول فيها إنه عندما يبدأ بقصّة ما لا يعرف أبداً كيف ستتطوّر أو كيف ستنتهي، وإن الشخصيات هي التي تسيّره وتتسبّب بأحداث مآسيها. وممّا قاله أن الشخصيات تصبح مثل أصدقاء له، أناساً يعيش معهم ويصعب عليه الانفصال عنهم.

وفي ما خصّني وجدت أنّ ما يقوله أهمّ ممّا يكتبه. فوجّهت إليه هذه الرسالة:

سيدي العزيز،

إنها المرة الأولى التي أكتب فيها إلى رجل شهير. آمل أن تعذرني على مبادرتي هذه التي قد تبدو لك غريبة، لكنني بحاجة إلى نصائحك، ولولا تشجيع أستاذي السابق السيد فيليب دو لما سمحت لنفسي بإزعاجك بقصّة قد لا تُصدّق. لكن ما دفعني في النهاية إلى أن أكتب لك هو ما صرّحت به في مجلّة الآداب العام الماضي.

أنا مغربية، في العشرين من عمري. أمضيت طفولتي في إحدى قرى جبال الأطلس الأعلى أهتمّ بالبقر. وفي الحادية عشرة من عمري قدمت إلى فرنسا بسبب مأساة حلّت بعائلتي.

إذا ما تلطّفت ومنحتني بعضاً من وقتك الثمين، أودّ التحدث معك في موضوع خاصّ. قال لي السيد فيليب دو إنك رجل مميّز. كلمة أخيرة: قرأت اثنتين من رواياتك. وقد تهت في أحد أزقتها وأنا أعتمد عليك لمساعدتي على الخروج من هذه المدينة.

إن تفضّلت وصبرت على قراءة هذه الرسالة إلى نهايتها فقد تتوفّر لي فرصة اللقاء بك... إلخ.

-٢١-

كان الكاتب يقيم في منزل صغير مرتّب على أتمّ وجه، لم يسبق أن لعب فيه أيّ ولد. كلّ غرض في مكانه. وليس هناك ما يوحي ببعض الفوضى إلّا بعض الكتب والجرائد الموضوعة على منضدة بجانب أريكة جلدية تتسع لشخصين، بدا جانب واحد منها فقط بالياً، فلعلّ للكاتب عادات ثابتة، فهو يجلس دائماً في المكان نفسه ليقرأ أو ليشاهد التلفزيون. وأنا الآتية من شقة تعمّها الفوضى بسبب الأولاد خلت أنني أدخل كنيسة صغيرة أو قاعة مطالعة. هو منزل يلفّه الصمت، وهذا الرجل بحاجة إلى هذه الوحدة كي ينصرف إلى الكتابة. وتساءلت: "لكن من أين يأتي بكلّ شخصيّاته هذه، مجانين وشعراء وغجر ومتشرّدين ومتسكّعين وغالباً ما تكون نابضة بالحياة؟" لاحظت إلى جانب المطبخ باباً أرضيّاً ينزل عبره إلى القبو. فقلت في نفسي هذا هو إذاً المكان الوحيد الذي يمكن أن تخرج منه الشخصيات، لا بدّ من أنّ هذا هو منبتها وعالمها ومقبرتها أيضاً. وهو ينعم بالسلام بعد أن يودعها في هذا المكان المعتم. قد يكون سلاماً نسبياً لكن يبدو أنه يتحكّم بأشباحه.

شعرت بأن هذا الإنسان المهووس، فهو للمرة الثانية مسح الأكواب بمنشفة نظيفة جديدة، كثير الانشغالات. وأكاد أقول إن وجودي كان يربكه، أو تحديداً نظري الذي كنت أجول به على كل شيء ويستطلع عالمه بلا كلفة. أعدّ الشاي وقال لي بنبرة متراخية:

- أنتِ إذاً تكتبين!

- لا سيدي، أنا لا أكتب. بل أحلم وأتخيّل.

- أنا أيضاً أحلم وأتخيّل، لكنني لا أحتفظ بكل ذلك لنفسي. أتحرّر منه لأحيا. أتدرين أنني لو احتفظت بكلّ تلك الصور والقصص لي وحدي لأصبت بالجنون منذ زمن طويل.

- هل صحيح أن شخصياتك هي التي تملي عليك كتبك؟

- ليس صحيحاً تماماً. لكن الشخصية هي أولاً حرّية. لا يمكنك التحكّم بها كأنها شيء طيّع. لنقل إن الكتابة هي نوع من المساومة بين الكاتب وشخصياته. أنا أحبّ أن أروي القصص. عندما أباشر قصة لا يمكنني معرفة ما الذي سيحصل. وهذا هو المثير في الأمر. فأين المتعة لو كنت أعرف كلّ شيء مسبقاً؟ متعة الكتابة تكمن تحديداً في المفاجآت التي تخبّئها لي الشخصيات. بعضها يتحايل عليّ، وبعضها يصيبني بالخيبة، وبعضها يغريني فأقع في حبّه وأجد صعوبة في الافتراق عنه، لذلك قد أمزّق فصلاً بكامله لكي أتمتّع بلقائها مجدداً وأعيش معها لبضع صفحات. أحياناً أستعيدها تحت اسم آخر أو في وظيفة أخرى في كتاب آخر. هم بشكل عام أصدقاء. نمنحهم حياة وقواماً. لا يمكننا تركهم وحدهم على الطريق المتواصلة إلى ما لا نهاية. هم كائنات أحترمها لأنني أدين لها بكتبي، حتى وإن كنت

أنا من يختلقها. أصدقاء؟ نعم، لكن يجدر الاحتراز منهم...

بعد احتساء الشاي تغيّر سلوك هذا الرجل السكوت والمتحفّظ. بات طلقاً وأنا أنصت إليه بعينين مندهشتين. أسرني وهو يتكلم مومئاً بيديه ولم يعد وجهه متجهّماً ومضطرباً. فجأة ساد بيننا جوّ من الثقة، وتغيّرت نظرتي إلى المنزل والأغراض المرتبة. شعرت بالارتياح وحكيت له قصتي مع فيكتور. أنصت إليّ بكل اهتمام والبسمة تعلو ثغره بين الفينة والأخرى.

- للمرة الأولى يقصدني أحدهم ليطرح علي مسألة من هذا النوع. أعترف بأنني أشعر بالإطراء. ولكي أطمئنك أقصّ عليك أحد أحلامي، لتعلمي بعدها أنه ليس هناك سوى حلّ واحد لإخراجك من هذا الوضع. منذ بضع سنوات كنت أكتب رواية عن موضوع الإذلال. تعرفين أن إذلال الناس في بلدنا بات أمراً سهلاً، وتُمتهن الكرامات أكثر فأكثر. والناس خانعون، يتحمّلون ذلك مراكمين الكراهية حتى يأتي يوم ينزلون فيه إلى الشوارع ويكسرون كلّ شيء. حصل ذلك عدّة مرات في السنوات الأخيرة. شنّت الشرطة حملة، ثم الجيش، وأطلقت النار على الحشود. حسناً انطلقت في روايتي من فكرة طفل حديث الولادة تخلّى عنه أهله. تعثر عليه امرأة عجوز ومشرّدان يعيشون في مقبرة. وجعلتهم يأخذون الطفل إلى قبر أحد قدامى المحاربين اشتُهر بثلاث فضائل هي مقاومة المحتلّ وإرادة العيش بحرّية وكرامة وشدّة البأس. أردت أن تكون هذه المقبرة رمز إمداد المولود بقوة الحياة. ومن أجل ذلك كان على شخصيّاتي الثلاث عبور البلد من الشمال إلى الجنوب، وقد اعتمدت

ذلك وسيلة لوصف البلد ومشاكله. مرّوا بالعديد من القرى والمدن، وبوصولهم إلى مراكش نزلوا بالساحة الكبرى. ولأنّ الجوّ صيف والطقس حارّ جداً، أخذت عطلة لبضعة أيام وتوقفت عن الكتابة، وانتقلت إلى الصويرة حيث الطقس ألطف والبحر في غاية الجمال. وفي إحدى الليالي هناك رأيت حلماً وفيه أن الساحة الكبرى في مرّاكش ترزح تحت شمس حارقة وقد ابتعد عنها كلّ الناس، أو ليس الكلّ بالأحرى، إذ شاهدت في وسطها ثلاثة متشرّدين يحملون قفّة فيها طفل نائم. دنوت منهم وعرفت فيهم شخصياتي، المرأة العجوز التي تكفّلت بالولد، والرجلين، أحدهما متمرّد على المجتمع والآخر ساذج العقل، وهو الذي شدّني بطرف قميصي وقال لي:

- هل أنت قاسٍ أم بلا ضمير؟ لماذا تركتنا هنا في فترة القيظ هذه، في هذه الساحة حيث لا شجرة ولا مأوى؟ نحن نذوب. إنّي أحذّرك! إن تركتنا لبضعة أيّام أخرى في هذا الحرّ فسنختفي متبخّرين ومتفسّخين تحت أشعة الشمس. يجب أن تخرجنا من هنا. إن كنت لا تدري أين تذهب وإن فقدت الوحي، أو أسقط في يدك، فنحن مستعدون لمساعدتك... أعرف مكاناً جميلاً جداً فيه نبع ماء والكثير من الخضرة. يمكننا الذهاب إليه شرط أن تفكّ أسرنا. هذا كل ما تقدر عليه. لو علمت ذلك لما وافقت أبداً على أن أكون شخصية عند كاتب غير متمكّن. كاتب استنفد إلهامه ومحدود الخيال، وبدل أن يحكّ دماغه يتلهّى على الشواطئ! يا للبؤس! نحن ملتصقون بالأرض بغراء مستورد من اليابان. يجب أن ترأف بأولئك الذين يملأون كتبك. لولانا لكنت نكرة.

هنا أسكتته المرأة وتوجّهت إليّ بنبرة أكثر مجاملة:

- أنت وأنا نعرف بعضنا بعضاً جيداً. يبدو لي أنني موجودة في كلّ كتبك. ألعب أحياناً أدواراً ثانوية صامتة لكن هنا أنا من يدير المجموعة. لا أخاف الحرّ فقد عشت ما هو أسوأ. لكن من يقلقني هو الطفل. يجب أن نأخذه إلى مقبرة الشيخ ماء العينين، أليس كذلك؟ خذ خريطة وأشر علينا أيّ طريق نسلك؟ وإذا ما اقتضى الأمر وكنت تعباً يمكننا الانتظار، لكن ليس هنا. هذه الساحة مخصّصة للحكواتيين والمشعوذين والحواة. أمّا نحن فلا عمل لنا هنا. الناس يدورون حولنا على أمل أن نخبرهم قصّة. إن لم تطلق أسرنا فسينتهي بنا الأمر إلى فضح أسرار ما تكتبه. لا تروقنا حياة هؤلاء الناس. نحن موكلون بمهمة فإمّا أن ننجزها وإما نخرج من الحياة، أقلّه بالنسبة إليك.

فيما كانت تتكلم، أنعمت النظر في وجهها. بدت كأنّه لا عمر لها وقسمات وجهها عادية ويغمرها صفاء جميل. أردت الاقتراب منها لألمس يدها وإذا كل شيء يتداعى وسط ضوء باهر. كانت أشعّة الشمس قد دخلت غرفتي في الفندق. صعقتني تلك الرؤية وبهرتني. كانت أكثر من حلم، إنها إشراقة. ومن دون أن أشرب القهوة انكببت على العمل واستأنفت الرواية من حيث تركتها. أخرجتهم من مراكش على عجل، ولأنني لم أعرف مسبقاً أين آخذهم اخترعت قرية من أجلهم. أعطيتها اسماً ووظيفة، وأكملت شخصيّاتي الثلاث رحلتها على هواها في بلد من صنع الخيال.

كنت أنصت إليه وفي نفسي بعض الشكّ. وتساءلت عما إن

كان ابتكر هذه القصّة من أجلي أنا تحديداً، لكي يردّ على سؤالي ويطمئنني قليلاً.

وبعد لحظة صمت قال لي:

- في ما بقي أنت تعرفين ما عليك فعله.

- أفعل ماذا؟

- الكتابة. أساساً إن كنت ابتكرت شخصيّات لتمرير الوقت، فهذا يعني أن عندك الرغبة في الكتابة لكنّك لا تجرئين.

- حتى إن كانت لديّ رغبة في الكتابة فأنا لا أريد... لأني أرتكب الأخطاء ولا أجيد تصريف الأفعال وأخلط بين أزمنة الأفعال. ثمّ إنه... لا صبر لي البتّة.

- نعم، لكن إن لم يكن هناك إلحاح فما النفع من الكتابة؟ ثمّ ماذا نكتب؟

- أنت معتاد على ذلك. قرأت في إحدى المجلات أنك تنتظر الليل لتكتب ولا تفعل شيئاً في النهار. في المساء تجلس أمام آلتك الكاتبة وتنطلق...

- ليس الأمر بهذه البساطة. إن كنت لا أكتب في النهار فأنا أعمل. أراقب الناس والأشياء، أقرأ، أستعلم، أمشي في الشوارع، أراقب الناس يعيشون حياتهم. قد أمضي نهاراً بأكمله منقّباً في أرشيفات المكتبة الوطنية. الكتابة متعة يجري الإعداد لها بالعمل. وكوني أعيش هنا بعيداً عن بلدي يحرّك في نفسي فضولاً كبيراً لكلّ ما له علاقة بالتاريخ، القديم والمعاصر. كلّ ما له علاقة بأرضي الأم...

– ألست منفياً...

– كلا، بل ابتعدت جسدياً عن بلدي. لا، المنفى شقاء ومرض وليل وحدة طويل لا ينتهي. أحتفظ في نفسي بصورة حزينة جداً بعد رحلة لي إلى بلد جميل، السويد. إنه بلد يحترم حقوق الإنسان ويدافع عنها في كلّ مكان من العالم تقريباً. سياسة الهجرة التي يعتمدها سليمة، وعندما يستقبل منفيّين سياسيّين، يضمن لهم أمنهم وعملهم. التقيت فيه يوماً بعربيّين فرّا من وجه الدكتاتورية في بلدهما، لا أذكر إن كان العراق أو سوريا. اقتربا منّي في الشارع للتحدّث معي. كان على وجهيهما مسحة من التعب والحزن. اعترفا لي بأنهما لا يتذمّران أبداً من حسن استضافتهما هنا لكنهما يفتقدان بلدهما كثيراً. قال لي أحدهما إن الوطن ليس السهول والجبال والأشجار فقط، بل أيضاً الهواء والحرّ وغبار الخريف وروائح المدينة القديمة وطيب المأكولات واللغة المحكيّة بلكنة متميّزة، إلخ. ومن أجل لأم جراحات المنفى المفتوحة لجأ الرجلان إلى الكتابة. فرضت الكتابة نفسها عليهما بإلحاح. وقد حمل كلاهما مخطوطة تحت ذراعه، يتنزّهان في شوارع غوتبرغ حاملين كثافة سويدائهما ومخاوفهما وآمالهما استودعاها دفتراً ضخماً مكتوبة بلغة لا يكاد يقرأها إنسان واحد في السويد. لاحقتني هذه الصورة لفترة طويلة. كان فيها مزيج من اليأس والأمل. الكتابة! الكتابة لتفادي الجنون، للتشبّث بالجذور، وللتعبير عن حالات الصمت الطويلة والمؤلمة التي تعتري حياتنا.

– وأنت؟

– أنا؟ آه! يحلو لي أن أقول: "أكتب كي أصبح بلا وجه!" أكتب

لأبلغ حالة الاحتجاب الكلّي حيث الكتاب هو المتكلم الوحيد. أعلم أن في الأمر ادّعاءً، لكنني أصبو إلى نوع من التواضع... أرانا ابتعدنا كثيراً عن موضوع زيارتك.

مرّ الوقت سريعاً. كان، فيما هو يتكلم، يحدّق أحياناً بيديّ ويمرّر عبارة مثل "يداك ناعمتان..." أو "رموشك طويلة بقدر كافٍ لتحمي نظرك". حلّ المساء وحان موعد جلوسه إلى طاولة الكتابة، وآن لي أن أستقلّ القطار وأعود إلى ضاحيتي الرمادية. شكرني على زيارتي قائلاً:

– عودي لزيارتي حتى وإن كفّ فيكتور عن ملاحقتك. عندنا الكثير لنتبادله في ما بيننا. في المرة المقبلة، سيكون دورك أنت في الكلام...

وفعلاً أمضيت تلك الليلة مع صورة الكاتب لا مع فيكتور الذي اختفى بسحر ساحر. وتلاحقت صور مقابلتنا طوال الليل من دون أن أعرف إن كنت في حلم أم في يقظة، وصوت هذا الرجل الذي فرض مهابته عليّ يتردّد في مسمعي. اختلط الوجه بالكلمات فيما وجدتني تائهة في أزقة متعرّجة.

في اليوم التالي، في الكلّية، غفوت أثناء درس القانون الإداري. نعمت بنوم هانئ، بلا أحلام ولا غيوم ولا كلمات. وعندما استيقظت كانت قاعة المحاضرات خالية كلّياً.

ذكّرني هذا اللقاء بماريو. كان فناناً أكثر توتّراً وأقلّ براعة من الكاتب. كنت في تلك الفترة أكثر انجذاباً إلى الرسم منّي إلى الرجال. كنت أخاف من الرجال.

قد أضحّي بالكثير مقابل أن أقتلع من رأسي إحدى ذكرياتي، مشهد راحو، بكر أبناء جيراننا في القرية، مثبّتاً بين فخذيه عنزة ممسكة محاولاً إدخال عضوه في قفا هذا الحيوان. كنت داخلة إلى الإسطبل لجلب الشعير عندما أرعبني هذا المشهد. كانت العنزة تئنّ جاحظة العينين، وقد سدّ فمها بخرقة قماش محاولاً الحفاظ على توازنه إذ كانت العمليّة في منتهى العنف. أردت أن أصرخ لكنني عجزت عن ذلك. شعرت بالاختناق وبخوف شديد. عندما رآني راحو أفلت الحيوان وأسرع يختبئ في الإسطبل. أمضيت النهار باكية. اتّخذ هذا المشهد أبعاداً كبيرة في رأسي وراح يزداد تضخماً وقبحاً. كنت في العاشرة من عمري تقريباً، ولن أسامح أبداً هذا الإنسان البهيم على تحميلي أبشع الصور من طفولتي.

لو كان بالإمكان تنقية الذكريات! لما كنّا نحتفظ إلّا بتلك التي نحبّها والتي تساعدنا على العيش. كنت أحبّ كثيراً محترف ماريو والفوضى ولوحات خلط الطلاء المليئة بالألوان وضوء النهار عند العصر. لكن تلهّفه وحماسته كانا يزعجانني. ما أزال أفكّر فيه أحياناً. كنت لا أزال يافعة جداً إذّاك كي أفهم كلّ تلك الانفعالات.

-٢٢-

أنا أيضاً اخترت الليل للكتابة، ولم يكن لي خيار آخر، إذ لم أكن أحظى بالصمت والسكينة إلاّ بعد العشاء، عندما يخلد إخوتي وأخواتي إلى النوم. أرفع كل شيء عن طاولة الطعام وأفتح الدفتر الكبير الذي أستودعه كلّ ما يحصل لي. لم يكن دفتر يوميّات بكلّ معنى الكلمة. كنت أروي فيه القصص، أختلق وأتسلّى. اتّبعت نصائح الكاتب وابتدعت لفيكتور حياة أكثر صفاءً، فتراجعت مغامراته ونعمت أخيراً بالسلام. غاب فيكتور شيئاً فشيئاً عن ليالي ولم يعد يزعجني. أوكلت إليه مهمّة العثور على راحو فمضى يلاحقه ليمسك به ويطرده من موطن طفولتي. ولم أعرف إن كان وجه الكاتب اتّخذ موقعاً له في هذا البلد أو إن كانت قريتي ما قبل نزول اللعنة بها قد شاركت بظلالها وعطورها في هذا اللقاء.

في الليل كنت ألبث بلا حراك متأمّلة بإمعان الصورة التالية إلى أن تتلاشى.

أراني جالسة، عاقدة العزم في العتمة، وقد اسودّت الصورة حتّى أصبحت جزءاً من الليل، ليلي أنا. ويروح الجدار الفاصل بيني وبينها

يتشقّق كلما ازدادت عيناي تعباً، عيناي المبلّلتان بالدمع. أتسمّر منتظرة، وفيّة للذكرى المتولّدة، فيما الجدار، الصخرة المنتصبة، يتداعى وسط هذا الصمت. لم تكن رؤية الوجه ممكنة إلّا في عتمة عينيّ المغمضتين، أُطبق أجفانهما بقوة إلى أن تظهر النجوم. والأمر طبيعي، فأنا بحاجة إلى هذه العتمة لكي أرسم صورة هذا الرجل الذي ما زال صوته يتناهى إليّ، دافئاً ولَعوباً، واثقاً لكن ذو رقّة متصنّعة. كان الصوت يوحي لي بملامح الوجه، ثابت النظرة أولاً ثمّ مبتسماً. أدركت في تلك اللحظة أنني لم أعد بحاجة إلى ابتكار شخصيات كي أحلم وأتمكن من تحمّل الليل. وإذا عيناي المحدقتان في نجمة على شاشة سوداء تمتلئان بالدموع، أحسست بها تسيل في داخلي. أشعر بالألم. ثمّ، في ما ينمّ عن أسى أو بهجة مستحيلة تفتّتت النجوم المبلّلة وتحوّل الأسود رمادياً ثم أبيض. لم أعد أرى شيئاً، فيما أنا بحاجة إلى وجوده، لأنه يستحيل عليّ أيّ توهّم. أين هو الآن؟ منزله بات من زمنٍ سحيق. هل هو وحده؟ هو من النوع الذي ينام وحده. صاحب وسواس. دقيق في عاداته. متطلّب في كيفيّة ملء وقته. والذين يكتبون ليلاً لا يتحمّلون شخصاً ينام بجانبهم، وهذا ما اكتشفته لاحقاً. هو يخاف الليل، فيبقى صاحياً حتى وإن لم يكن يكتب. يقول: "إمّا هو وإمّا أنا!" وغالباً ما كان الليل يتفوّق عليه إذ يغلبه النعاس على غفلة. كم من مرة أغفى على كرسيّه، ملقياً رأسه على طاولة العمل ويده على دفتر الكتابة. وكم خرج أحياناً ومشى ساعات في الشوارع. لم يكن يحبّ حانات الشرب، بل كان يجول في المحطات بحثاً عن شخصيّات تائهة وسط الضباب وقد انخدعت بالبلد أو بالعصر.

هو صاحب موهبة في رصدها ومحادثتها. يقول إن رواياته حاشدة بهؤلاء الناس المتميّزين بالفشل وكره الحياة. يقرأ على وجوههم كما يقرأ فيليب دو في الكفّ، مخمّناً جراحاتهم ومخاوفهم. وغالباً ما كان يصادف مهاجرين بلا أوراق ولا مال ولا مأوى. فهل كان يساعدهم؟ نعم على الأرجح، لكن سرّاً. أعطاني لاحقاً كتاب زينة لأقرأه، وهو كناية عن يوميّات شابة مغربية أرسلتها له قبيل أن تنتحر. دوّنت فيه كلّ شيء في هذا الدفتر، حتى الأمور الأكثر حميمية والأكثر قساوة. طلب منّي أن أقرأه فوراً في مكتبه. كان الخطّ دقيقاً، منمنماً لا تشطيب فيه، والأحداث مؤرّخة ومسرودة بحقيقتها العارية. فرحت أقلب صفحاته وأتصفّحها بلا انتظام.

الأربعاء ٢٩ تشرين الأول. بلغت اليوم السابعة عشرة من عمري. لا أنا فخورة ولا سعيدة. مرةً أخرى أمّي حبلى. أرى الحزن في عينيها. أودّ أن أخلّصها. تكفي شفرة حادّة تخترق بطنها. لكنّ الدم يرعبني، حتى إنني لا أتحمّل رؤية دمي. فعندما أنزع فوطي الصحّية أغمض عينيّ. ألفّها بالورق وألقيها في سلة المهملات من دون أن أنظر إليها أبداً. يبدو أن دم الحملان هو دم البراءة! فهل هذا سبب كافٍ لتقبّل الأمر؟ يوم يذبح والدي خروفاً لعيد الأضحى هو يوم حداد. دعنا من ذلك الآن.

(لا تأريخ). إنها الحادية عشرة. يستحيل عليّ النوم. شقيقي الأصغر يشخر بجانبي، ويبدو أنّ شقيقتيّ غير مباليتين. هما لا تعرفان ما الذي ينتظرهما. ليتني أتمكن من محادثتهما لأخبرهما كم أن الليل من دون نوم ضاغط بثقله! أليس من الأفضل أن نكون خارج مجال الأذى؟

٥ تشرين الثاني. عاد والدي متأخراً. لم يكلّم أمّي. نام على الكنبة بسرواله المجعلك. كلما تحرّك كثيراً أصدرت الكنبة صريراً. أسمعه يشخر. الكآبة تعمّ المنزل. لم يطرأ أيّ جديد. لكن ما إن يدخل هذه الشقة حتى يصبح الوقت ثقيلاً ولزجاً.

أواخر كانون الأول. يتحضّر جيراننا الإسبان للأعياد. أكره أعياد آخر السنة هذه التي ترغم الجميع على إبداء الشعور بالسعادة. طالب أخي الصغير بشجرة الميلاد، وكان الجواب صفعة على وجهه. لا يزال أبي لائذاً بالصمت. رسم أخي على ورقة كبيرة شجرة وألصق بها نجوماً. تلت أمّي صلاتها.

٢ شباط. لاحقني مجدّداً. انتظرني عند خروجي من المعهد. أشمئزّ منه. هو قبيح لدرجة تشعرني بالغثيان. حاولت أن أصرخ في الشارع. صفعني وشهّد الناس على أنني أقلّل من احترام والدي! رحت أصرخ أنّه ليس والدي. إنه ساديّ. أعطاه الناس الحقّ. وأنا لذت بالفرار.

٥ شباط. بدأ الابتزاز. هذا الصباح، عند خروجي من المعهد، أعطاني أحد الأولاد مغلفاً أسمر كبيراً. في داخله صور مركّبة بطريقة متقنة على ما يبدو. ألصق رأسي على جسد فتاة عارية. والفتاة تدبّ على الأربعة. إضافة إلى صورة أخرى، غير مركبة هذه المرة، نظهر فيها نحن الاثنين واقفين بالقرب من بركة ماء عامّة، وبدا هو ملقياً يده بنعومة على كتفي. كان ذلك يوم التقيته للمرة الأولى. أتيته بما كتبت من قصائد لكي يقرأها على أمل أن ينشرها في مجلّته. لم أكن أعرف أنها طريقته للإيقاع بالفتيات.

٦ شباط. صورة أخرى أكثر فحشاً من الأولى وُضعت في صندوق بريدنا مرفقة بهذه الكلمات: "القرار لك. هذه مجرّد عينة. عندي صور أخرى من الفترة التي كنت تعرضين فيها كـ"موديل" للألمان. الموعد ١٠ شباط عند الساعة الخامسة مساءً في مقرّ المجلة."

٧ شباط. أفكّر في تقديم شكوى للشرطة. لا أجرؤ. أنا خائفة. هذا الرجل خسيس عديم الذمّة. يبدو أنه هو أيضاً من الشرطة. ليس عندي من أتحدّث إليه. كان عليّ الاحتراز منذ اليوم الأول. تقول حكيمة التي عرفتني إليه إنه ليس خطراً. لا بدّ من أنها هي أيضاً دفعت الثمن. سينتهي بي الأمر إلى قتله.

٨ شباط. أبي ضرب أمّي.

٩ شباط. أمّي ضربت أخي الصغير.

٩ شباط. تعارك الجيران. وأنا عليّ أن أتعارك وحدي مع مريض ساديّ، عجوز نكِد. قرّرت الذهاب إلى موعده. كيف يمكن لشخص منحرف الاعتقاد بأن كلّ شيء مسموح له في مدينة لا يخفى فيها شيء؟ كم كنت ساذجة! ما كان عليّ أبداً الموافقة على أخذ الصورة التذكارية المزعومة بجانبه. لو علم والدي بالأمر لقتلني. وأمّي بائسة جداً، لن تنصت. وجدت هذا الصباح مغلفاً آخر مدسوساً من تحت الباب. من حسن الحظ أنني أنا من وجده. هذه المرة كانت صورة فتاة (تحمل رأسي) جالسة عارية على ركبتي رجل أوروبي عارٍ أيضاً وهو يداعب نهديها. الصورة مركبة بشكل متقن للغاية. هذا عمل جهنّمي. يجب وضع حدّ له. وقد أضحّي بنفسي إذا اضطرّ الأمر. يبدو أنه فوق كلّ الشبهات. يجب أن أصفه: إنه نحيل كمسمار صدئ، ضعيف

البصر يضع نظّارة رمادية. بشرته رمادية اللون مثل نظارته، أنفه مروًس فوق فم بلا شفتين. هو كناية عن جلف قذر. الإنسان الأشدّ قبحاً في المدينةً. هو الشرّ بكلّ معانيه. الآن بتّ أعرف أنه استهدف الفتيات اليافعات والفقيرات اللواتي لا ملاذ لهنّ. في مكتبه، صور معلّقة. إنها قائمة صيده. دأب على الابتزاز إلى أن يصل إلى مبتغاه. كلّ فتاة اقتربت منه تدنّست حياتها وخربت نهائياً. معي أنا لن يحقّق مبتغاه. وها أنا أترك يومياتي هذه شاهدة على هذا الشقاء، فبإمكان رجل، نذل، اليوم أن يلوّث سمعة شابة من دون أن يخشى العقاب. أعطيكم اسمه وعنوانه. وعليك أنت، يا قارئ هذه اليوميات الفاجعة أن تسوقه أمام العدالة. أنا ذاهبة إليه فوراً. سأعطيه ما يريده مقابل الصور. ثم سأقفل على نفسي في المنزل وأبتلع علبة المنوّمات. يجب حذف هذا الرجل من الوجود. إنه مجرم. يملك منزلين، أحدهما في الرباط والآخر في طنجة. أقدّم حياتي أضحية من أجل كفّ أذى هذا القذر. وإن لم تأخذ العدالة مجراها، يمكنك أنت أيّها القارئ أن تثأر لي. لا يمكنني الدفاع عن نفسي وإنقاذ شرفي وصيانة عفّتي إلّا بالانتحار حتى وإن كان ديني يمنعني من ذلك. وداعاً!

-٢٣-

مضى عشرون عاماً على مغادرتي القرية. حسبتها بدقة. عشرون سنة وبضعة أيّام. ومنذ فترة تلاحقني فكرة العودة إليها. أفكّر بذلك وأتخيّل ما قد يكون نبت في هذه التربة الحمراء. المزيد من الحجارة على الأرجح والمزيد من أشجار الصبّار. أذكر حقلاً شاسعاً من الصخور والحصى يمتدّ حتى سفح الجبل. وهناك كانت توجد بعض الأشجار والقليل من الماء. وفي محاذاة كلّ منزل ربوة من تراب كنا نصعد عليها لنرى من بعيد، نراقب حركة النساء على الشرفات ونترقّب مرور الريح. كنّا، عندما تثور، نراها تشيل الرمال إلى أن تشكل كرة بيضاء. ثمّ سرعان ما تصل إلينا وتوقعنا. كنت أبقى واقفة على الربوة، مثبّتة رجليّ الحافيتين بالأرض. وأقول في نفسي: وحدها هذه الريح العنيفة والعاصفة كفيلة بإعطائي أجنحة. أبسط ذراعيّ محاولة الحفاظ على توازني. وكم من مرّة وجدت نفسي منقلبة على ظهري ورجلاي في الهواء وفمي مليء بالغبار وشعري أحمر وعيناي ممتلئتان بحبيبات الرمل، فيما الأولاد الآخرون يضحكون. فأنهض وأقف بالوضعية نفسها إلى أن تهدأ الرياح، فأعود إلى المنزل حزينة،

لكن من دون أن تُثبط عزيمتي.

في الشتاء، لم نكن نرى الريح، بل نسمعها. تنذر بقدومها بصفير يصلنا من بعيد. وكنت أعرف أن هذه الريح لن تمنحني أجنحة. ومع ذلك كنت أخرج، متدثّرة بغطاء أحمر. أصعد على الربوة كي أسمعها في مرورها وأرى كيف تلعب مع الهواء البارد. كنت أرتجف من البرد لكنني كنت أحبّ كثيراً إلقاء التحيّة عليها. ونادراً ما كان يفوتني مرورها. في الليل، كنت أخاف الخروج. فالكلاب الجائعة تعوي كالذئاب. ربّما بسبب خوفها من الريح. أخاطبها من غرفتي وأسرد لها ما حصل معي في نهاري. أحكي لها قصّة حياتي. أغمض عينيّ وأراها تدور حول المنازل. أقول لها: "متى ستُنبتين أجنحة في ظهري أو على طول ذراعي كي أرحل عن هذا المكان؟ أعرف أنّك ستأتين يوماً وتأخذينني، تنفخين في الوجهة الصحيحة وأنا أطير من دون أيّ جهد. سأذهب حيث تحملينني، حيث لن يكون عليّ انتظارك بعد الآن. تحطّين بي على أعلى غصن من شجرة أوكاليتوس. ألبث عليها لبعض الوقت أراقب الرجال والنساء، وعندما أشعر بالجوع أنزل. في المكان حديقة يعبرها جدول ماء صغير. النساء يزرعن الأرض وهنّ يغنّين، ويذهب الرجال إلى السوق على ظهور حميرهم. لن أرعى الأبقار بعد اليوم، ولن أسأم من عدّ الحجارة البيض في التربة الحمراء. سيصبح جسدي النحيل خفيّاً فلا يلاحظ أحد وجودي. وإذا ما تحرّكت يقال: "هبّت نسمة هواء." سأنتقل بسرعة من دون أن أدوس شتول البندورة أو الزهور. آكل قليلاً وأعبّ الكثير من الماء. أغطّس رأسي في النبع وأشرب كلّ مائه. تنقصنا المياه هنا لدرجة أن أعذب أحلامي هو أن

تلقيني في نبع ماء فأسبح وأرقص وأغنّي وأصلّي إلى أن أغدو قطرات ماء متكاثرة وحسب. أصير رافداً من هذا النهر وأنساب نزولاً لأروي أراضي قريتي. لن أتمكن أبداً من تحقيق هذا الحلم من دونك، من دون مساعدتك ودفعك لي. أطلب منك الكثير لكنني أعلم، ممّا قالته لي جدّتي، أنك تستجيبين لصلوات الأطفال. أتعلمين أنّ علينا أن نحفر إلى عمق ستين متراً لاستخراج الماء؟ ولذلك لا أحد يحفر. الكلّ ينتظر المطر لملء الخزانات الصغيرة. أحياناً تنقل إلينا شاحنةٌ المياهَ في صهريج. تأتي من إمتانوت حيث تجري المياه في أنابيب. ليست دائماً صالحة للشرب. ولذلك تغليها أمي منذ أن مات الولد البكر للبقال بعد أن شرب من مياه الصهريج. هذا ما قاله لنا الممرّض في إمتانوت، وهو جريء، يعالج الجميع بالأقراص البيضاء نفسها، معلّقاً في أغلب الأحيان: "لا أعرف، لست سوى ممرّض بسيط." لهذا السبب يجب أن تأتي. أنا بانتظارك. أنتظرك بقدر ما تشائين. منذ أيّام حمل عمّي معه علبة صغيرة تصدر موسيقى. إنّه الراديو. يتكلم الناس بداخلها. سمعتك تصفرين فيها. تصدرين صفيراً حادّاً. ربما أغاظك هواء أقوى منك قادم من وجهة معاكسة. عندما تتصادمان تصدران الكثير من الضجيج والغبار. الهررة تموء بأصوات غريبة عند اقترابكما من قريتي، فيُدخَل الأولاد خشية أن تمرض عيونهم. كلنا مصابون بمرض العيون. الممرّض يسمّيه التراكوم. إنّه المرض الذي تأتي به الرياح المؤذية. أنت لن تكوني أبداً مؤذية لأنك ستحرّرينني من تلك الحجارة وتلك النهارات الطويلة التي لا يحدث فيها شيء. في الحديقة الصغيرة التي زرع فيها والدي شجرة صبّار وشجرة زيتون، التربة

ضحلة، تؤوي الثعابين والعقارب. لِمَ لا تكنسين هذا المكان لطرد تلك الحيوانات؟ أعرف كيف ألعب معها من دون أن تلسعني. لكنني لم أعد أحبّها. لم تعد تسلّيني. أنا بحاجة إليك حتى للّعب. علّق عمي حبلاً على طرف عارضة عربة مقلوبة، وترك العقدة واسعة. ندخل رأسنا عبر العقدة وننزلها حتى نتمكن من الجلوس. نمسك الحبل بأيدينا فتصبح أرجوحة. عندما أكون وحدي أنتظرك كي تؤرجحني. لا يتقن الأولاد الدفع، فهم إمّا عنيفون وإمّا مخنّثون. معك أطير بحركة منتظمة فأغمض عينيّ وأحلم. تساعدنا هذه الأرجوحة على تمضية الوقت. ويوم يحتاج عمّي إلى العربة، نُضطر إلى ابتكار ألعاب أخرى. هكذا تعلّمت اللعب مع الثعابين والعقارب. الأمر في غاية الدقّة، إذ يجب القيام بحركات محدّدة وبلا خوف. وتكمن المتعة في منع العقرب من اللسع بتعطيل قدرته على ذلك. وعندما يتعب يوضع في وعاء ماء وتُراقَب عملية الغرق. مع الثعابين اللعبة أقلّ دقّة. نقبض عليها بقصبة مفلوقة الرأس ونبرم بالقصبة إلى أن ندوّخها. قد نقطع رأسها أحياناً، فتستمرّ في الحراك ثمّ نرميها. فتسارع الكلاب إلى التهامها، وتتقاتل أحياناً على ثعبان مسكين لا يثير الشهيّة أبداً. هذا هو الجوع: الصراع بكلّ القوى من أجل لا شيء.

أتذكر قطعة الحبل تلك المتحوّلة أرجوحة. حتى إنها ليست بحبل بل قطعة قماش متينة جداً اقتُطعت من بعض الشراشف. كان والدي من قبل يعلّق بشجرة التين دولاباً قديماً بواسطة حبلين فنمضي النهار متأرجحين. يجلس اثنان في الدولاب والثالث يدفعهما. وعموماً كنت أتحايل لأجلس مع إبراهيم، نسيبي ذي العينين الفاتحتي اللون.

كان جميلاً، يوصف بـ"الرومي" لأنه بعينيه الرماديتي اللون يبدو مثل أجنبي، أو فرنسي. لم يسبق لي أن رأيت أجنبياً لكنني اعتقدت أنه يُفترض بالروميّين أن يكونوا جميلي الشكل. تخيّلتهم جميعاً بعيون فاتحة اللون ونظرات عذبة. كل ما هو جميل يوصف بـ"الرومي" سواء أكان دجاجة أم سترة أم غطاءً خفيفاً...

كان إبراهيم يكبرني بسنتين. جُعل من نصيبي أو تحديداً اختارنا منطق الأمور وطبيعتها لزواج حتميّ. لم يُحث قطّ في الموضوع. كان كلّ شيء مكتوباً في سماء صافية ثابتة. من حين إلى آخر تمزح أمّي وأمّه في ما بينهما، ففي أيّام الأعياد مثلاً تلبسانا بطريقة لا لبس فيها. كنّا جميلين ولم نكن ندري إن كان الأمر من باب التسلية لعبة أم إن كانت بداية حياة مشتركة بيننا. نشبك يدينا ونذهب للتنزّه. كنّا نجول على السطيحات وننتقل من منزل إلى آخر ونحن نصعد على سلالم مترنّحة. كان الأمر مسلّياً. كنّا نحاول تثبيت قائمة السلّم بحجر كبير، ثمّ يمسك إبراهيم السلّم فيما أنا أتسلّقه، ويغمض عينيه كي لا يزعجني، مع أنّه لا شيء يراه إذ كنت أرتدي سروالاً تحت الفستان. كنّا نضحك. ثم يلحق بي ونركض على السطيحة. نفاجئ كلاباً ملتصقاً أحدها بالآخر فننفجر بالضحك. نعرف ما تقوم به لكنّ الأمر لا يزعجنا. بعض الحيوانات لا تحتجب للقيام بذلك. لكن يوم رأينا راحو يركض وراء عنزة ليفعل بها ما يفعله الكلب بالكلبة، لم نشعر برغبة في الضحك. خفنا. وضع إبراهيم يده على عينيّ كيلا أشاهد هذا الأمر الفظيع. ثم ضمّني بذراعيه وقال لي: "أنت كلّ شيء بالنسبة لي. أنت نسيبتي وأختي ونور عينيّ وخطيبتي

وزوجتي مدى الحياة!" كان يتكلم بشكل طبيعي ويحبّ استعمال الصور. حلّ الظلام فلم نعرف كيف نعود إلى سطيحتنا. العتمة شديدة والسماء غائمة. ضللنا الطريق. سمعنا أصداء أصوات تنادينا من البعيد في صمت الليل. لم نجرؤ على الردّ خوفاً من إيقاظ أهل المنزل. فربّما ظنّوا أنّنا لصوص وضربونا. لن يتمكنوا في العتمة من أن يتبيّنوا إن كنا ولدين ضائعين أو سارقين مُطارَدين. لذلك لم نتحرّك من مكاننا. وأغفيت على كتف إبراهيم. وأذكر أنني رأيت حلماً جميلاً جدّاً كلّه ألوان وأنوار. رأيت فيه تفّاحة حمراء على طاولة زرقاء اللون، وغصن زيتون مطليّاً بالكلس. في الخارج أشجار الصبّار متعدّدة الألوان متلألئة في البعيد. كنت أرتدي أوراق شجر ذهبية اللون وحبيبي يضع قبّعة من قشّ بنى فيها عصفور عشّه. فجأة خرج من التفّاحة الحمراء صوص أصفر. كان يزقزق. أصبحت الطاولة بيضاء اللون وكبيرة. كانت تتحرّك، تتقدّم، تتراقص. وبدأت ثمار الصبّار تتفتّح وتفوح منها رائحة قويّة جداً أصابتني بالدوار. وما إن نهضت حتى وقعت مجدّداً. كان إبراهيم جالساً إلى الطاولة يرسم في الهواء. غمس إصبعه في وعاء من الطلاء الأخضر ورسم به يمامة طارت بمجرّد أن اكتملت. ثمّ تابع بإصبعه حركة متموّجة فرأيت البحر. أرى البحر للمرّة الأولى، لم يكن أخضر ولا أزرق، بل أحمر كأرض قريتنا، وأمواجه بيض كالحجارة المنتشرة في أرضنا. كان البحر يتّجه نحونا مدفوعاً برياح قويّة. أحسست بالبرد فلذت بإبراهيم وغمرنا الموج. في تلك اللحظة استيقظت ورأيت رجلاً يهمّ بإلقاء غطاء صوفيّ علينا. فتحت عينيّ وصرخت، فوثب إبراهيم من

مكانه. لكن الرجل قال لنا: "لا تخافا! أهلكما يبحثون عنكما. وبما أنهما سيعرفان الآن أنكما هنا عودا إلى نومكما".

طلع الضوء، ولمّا تذرّ الشمس قرنها. كان الجوّ بارداً. رحت أبكي، فمسح إبراهيم دموعي قائلاً: "لا تخافي. أنا هنا. أنا معك. أنت زوجتي وأنا زوجك. هذا ما سأقوله لهم..."

كان عمّي، لا أبي، من تكفّل بضربات العصا على أخمص قدميّ. أساساً لم يكن أبي موجوداً، ربما كان في المدينة. في أغادير أو مراكش، يحضّر الأوراق لجواز السفر.

لطالما كانت نظرات عمّي خبيثة. كان يطلق لحيته، لا للمظهر الجميل بل لأنه لا جلد له على الاغتسال. وكانت لحيته الكثيفة والمشعثة وسخة، يعلق فيها غبار الأرض الأحمر. يعتمر دائماً "الطاقية" نفسها. ينام بها وبما أنه نادراً ما كان يغتسل، لم يكن يخلعها أبداً. كان رجلاً حسوداً ومكتئباً. يقول والدي إن "هذا الأخ كان غلطة"، خصوصاً بعد زواجه بامرأة غريبة. ليست مسيحيّة لكنّها من قرية أخرى، وهي التي زرعت الشقاق في العائلة. لم تكن تحترم المسنّين ولا أعراف القبيلة. وأنا متأكّدة من أن عمّي ضربني بإيعاز منها. ولا أحاول هنا تبرئته لكنّه لم يكن يفعل شيئاً دون موافقة زوجته التي غالباً ما كانت تلومه على ضعف شخصيته، فيعوّض بالشرّ عن افتقاره إلى الشخصية. يُقال إن قلبه أسود وزوجته ذات لسان مقذع. وربّما لهذا السبب عجزا عن إنجاب الأولاد. وقد لعنهما جدّي على سرير موته. قال: "أنا ذاهب وقلبي منقبض، ليس خوفاً من الموت، بل لأنني أترك ورائي ابناً ساقطاً، رجلاً تنقصه الشجاعة

والطيبة، خاضعاً بالكامل لأوامر زوجته، هذه الغريبة العاجزة حتّى عن إعطائه ولداً. لقد حقّرت أرضنا وممتلكاتنا. نحن لا نملك الكثير لكن لدينا ما يكفي للعيش. وما إن وصلت حتى بدأت تتكلّم عن البؤس والفقر. بمجيئها بدأت المشاكل. أوصلها إلينا الجفاف. وبدل أن يطلّقها ويعيدها إلى قومها، تعلّق بها ابني الأحمق وابتلع كلّ الوصفات السحريّة التي أتت بها. السحر منافٍ للدين. وقد خان ابني عائلته ودينه. أرحل عن هذه الأرض حزيناً، مُتمنّياً أن يلحق بي هذان الزوجان في أقرب وقت ممكن، في نهار الجمعة هذا الذي تسمع فيه السماء دعاءنا".

تُوفي في الليلة نفسها. بعد أيّام حمل رجل من القرية إلى والدي دعوة لكي يذهب إلى إمنتانوت حيث يجب أن يخضع لفحص طبّي، ما يعني أنه تمّت الموافقة على ملفّه للسفر إلى الخارج. في غضون أسبوع كانت كلّ الأوراق جاهزة. حصل والدي على جواز سفر وعقد عمل. أطلعنا على ذاك الكتيّب الأخضر الذي انتظره طويلاً وتلك الورقة الرمادية التي عليها صورته. كان منفعلاً وقلقاً. صعدت على التلّة وأجلت النظر حولي. لا شيء على تلك الأرض. لا شيء سوى حجارة وأجمات من الأعشاب البرّية. الجفاف لعنة. رأيت الجبال في البعيد، جرداء ذابت عنها الثلوج. لكن على الأقلّ رأيت بعض الخضرة على سفحها. الأوفر حظاً كانوا يتمكنون من إيصال ماشيتهم إلى هناك. أمّا نحن فكنّا نكتفي بالعلف المخزّن. لا شيء يؤسف عليه في هذه الأرض الملعونة التي لم يعد ينبت فيها شيء. كانت السماء تعرف ذلك لكنها ظلّت غير مبالية بشقائنا.

-٢٤-

عشرون سنة مضت وما زالت الأرض نفسها والأفق نفسه والتساؤلات نفسها. الأرض المترامية وسع النظر لا يشوبها أيّ غموض. مسطّحة. جافة وجرداء. في وسطها درب حفرته العجلات يمتدّ إلى ما لا نهاية، إلى السماء. وهذا الدرب هو قبلة أنظار الأولاد الذين ينتظرون، أحياناً إطلالة شاحنة البقّال الجوال تعرف من غيوم الغبار التي تثيرها، وأحياناً أخرى سيّارة الأجرة التي تعود إلى القرية بوالد سافر إلى الخارج.

أعرف هذا الدرب كما لو أنّي شققته بنفسي. أمضيت أيّاماً بكاملها أراقبه عن سطيحتنا، وذلك في الفترة التي كان عمّي يسيء معاملتي فيها. لم يكن لي من أكلمه وأشكو إليه. وكانت أمّي في تعاستها تأنف من إخبار والدي بما يفعله شقيقه. هي أيضاً كانت تمضي الوقت في انتظار والدي. وأكثر ما يهمّها هو تفادي المشاكل مع سلفها أو مع الغريبة. ولذلك كنت أحدّث الدرب الذي أراه بمنظوري طريقاً عريضاً وجميلاً. يبسط عليه الضوء السراب بأشكال متعدّدة، مرايا تنعكس فيها السماء، وقوافل لا تني تتقدّم من دون أن تصل أبداً إلى دوران"، وسيّارات تسير بأقصى سرعة مصدرة أصواتاً كالموسيقى.

أرى عليها أيضاً بحراً ومرفأً ومراكب. كان هذا الدرب أكثر من طريق، وأكثر من درب وعر. كان شغفي، والأرض التي تحطّ فيها أحلامي.

أمّا في نظر أمّي فكان هذا الدرب جرحاً وخلاصاً في آنٍ واحد. لم تكن تنظر إليه خوفاً من التوهّمات. ومع ذلك فاجأتها في إحدى الليالي تحدّق فيه وتكلمه كما لو أنّه باب، باب وليّ أو باب الأمل الذي يجب أن ينفتح. قالت له: "أنت الذي انبسطت أمام خطى زوجي، أنت الذي أخذته بعيداً عنّي وعن أولادي، متى ستعيده لي؟ متى سأرى غيمة الغبار الجميلة مبشّرة زيارة؟ متى سيأتي ليخلّصنا من هذا الجحيم الرابض حيث لا شيء يتحرّك؟ أنا شابّة ووحيدة. أولادي استنفدوا كلّ الحيل لتمضية الوقت. باتوا يلعبون مع الثعابين والعقارب. وهذا أمر خطر. الحياة جامدة. السماء جامدة. الجبل في البعيد جامد. وحدها الرياح من حين إلى آخر تلفح أرقي وتمنحه أجنحة. آه يا رجُلي! أحاول الانضمام إليك حيث أنت وأضلّ طريقي. أتخيّلك وأنا لا أعرف هذا البلد حيث تعمل. أراك تحت شمس منطفئة. أسمعك حتى وإن لم يصلني ما تقوله. عُدْ إلينا، عُدْ على وجه السرعة!".

- مع من تتكلّمين؟
- أتكلم وحدي.. أصلّي...
- تعتقدين أنه سيعود قريباً؟
- ليس قبل الصيف. هيا لنخلد الآن إلى النوم.

لم أنم تلك الليلة. كنت شديدة التوتّر وأحدس بأن شيئاً ما

سيحصل. في الصباح الباكر رحت أراقب الدرب. كنت أول من رأى غيمة الغبار تقترب منّا. أيقظت أمّي. وقف جميع الأولاد على الربوة ينتظرون. لم يكن سراباً. لم تكن شاحنة البقّال فهذا لم يكن اليوم ولا الساعة المعتادين لقدومها. رحنا نحملق بأعيننا لنرى بشكل أفضل. تضخّمت الغيمة ونحن عاجزون عن تحديد ما إن كانت درّاجة أو سيّارة. كانت عربة تتقدّم ببطء. عادة يأتي والدي بسيّارة تاكسي وليس أبداً في عربة. فجأة، رأينا عمّي يخرج من المنزل ملوّحاً بعصا في الهواء وهو يهتف: "هنا، هنا الطلبية." لم يردّ عليه السائق وتابع سيره على الدرب. عندما توقف أمام المنزل تحلّق حوله الأولاد، فطردهم عمّي مهدّداً إيّاهم بعصاه. طلب السائق العجوز إبريق ماء قبل أن يُنزل الصندوقين.

– انتبهوا، قيل لي إنّها قابلة للكسر. تفاديت قدر الإمكان الحجارة الكبيرة والحفر، هذه الطريق مليئة بها، كأنما الله نسيكم.

على جهة من أحد الصندوقين، رُسم سهم عمودي وعلى جهة أخرى مربّع أبيض. أخذ عمّي الغرض الثمين بين ذراعيه ووضعه في غرفته. وقفت زوجته وراء الباب لمنع الحشريّين من رؤية ما في الصندوق. في الصندوق الآخر قارورة غاز مشابهة لتلك التي كنّا نستخدمها للإنارة ليلاً. أمضى عمّي النهار على السطح ليثبت حول وتد ما يُفترض أن يكون الهوائي. وعلى مدى ثلاثة أيام لم يخرج هو ولا زوجته من غرفتهما. قبعا جالسين أمام العلبة السحرية التي لا تصلها الصور إلّا ليلاً. علمنا لاحقاً أنهما ينظران إلى الشاشة حتّى عندما لا تُبثّ الصور. بعد مرور أسبوع، قرّرا دعوتنا إلى المشاهدة.

كانت الصور تتلاحق. بعضها ينطق بالعربيّة والبعض الآخر بالفرنسيّة. لم يكن أيّ منها بلغتنا. تبادلنا النظرات ونحن لا نفهم أيّ شيء ممّا يجري على الشاشة. وحدها جدّتي تجرّأت على طرح السؤال الذي فكّر فيه الجميع.

– كم ثمنه؟

ساد صمت طويل، ثمّ أجابها ابنها من دون أن يلتفت إليها:

– ليس غالي الثمن، ليس فعلاً...

ثم توجّه إلى زوجته متلعثماً.

– صحيح. هو ليس جديداً وبالتالي لم يكلّف غالياً...

وقفت جدتي وقالت من دون أن ترفع صوتها:

– هو بثمن بقرة... البقرة التي كان عليك شراؤها...هذا كلّ ما في الأمر.

أطفأ عمّي الغاز وتلاشت الصور.

شاخ عمّي. بدا ذلك على وجهه وفي نظرته التي فقدت ألقها. إنه وجه رجل مغتمّ. وما زالت زوجته تبالغ في وضع المساحيق. كلّ ما فيه يذكّر بـ"الشيخة" التي ترقص وتغنّي لتمتّع الرجال. عندما تتكلم، تباعد بين ساقيها وتضع يديها على وركيها في وضعية قتالية. تخيفني دوماً. لكن لم يعد خوف ولد يلاحقه وحش، بل خوف هامد أشبه بالاشمئزاز. كلما نظرت إليّ أعرف أن الشرّ وشيك. تحتلّ هي وزوجها منزلنا. الحديقة الصغيرة مهملة. برج الحمام فارغ. الإسطبل وسخ. لم يعد هذا منزلنا. ووالدي لن يطرد شقيقه. يأتي أهلي في الصيف فقط ويمضون بضعة أيّام. لكن الحرّ يساعدنا على تدبّر

أمورنا إذ ننام جميعنا في الهواء الطلق، على السطيحة أو على الربوة.

قرّرت البقاء هنا لبعض الوقت. أقيم عند امرأة عمّي الأخرى. هي امرأة طيبة، بعمري وعندها خمسة أولاد. كانت فتاة جميلة جداً، زوّجوها في الخامسة عشرة. لا تبدو تعيسة. أولادها جميلون وبصحة جيدة. تعمل بلا كلل. لا وقت لديها للتفكير. أراقبها تروح وتجيء في باحة المنزل، لا تفارقها البسمة. هي ذات وجه جميل وأسنان ذهب. هذه عادة هنا. الأسنان الذهبية وعطر كبش القرنفل الذي مع هذا الحرّ يشعرني بالاختناق ويذكّرني بطفولتي. الآن لم يعد الحرّ هو العدوّ بل رفّ الذباب. ذباب أسود وصغير يلسع كالبعوض. يهاجمني من كلّ الجهات. لم أكن أعرف أنه خطر إلى هذا الحدّ. الأولاد لا يطردونه، يتركونه يسرح على وجوههم القذرة وأقدامهم العارية، كأنّهم لا يشعرون بوخزه. كذلك الكبار لا يعيرونها أهمّية. يلاحظني الجميع وأنا أومئ بيديّ طول الوقت كالمجنونة ويقولون لي: "لا مشكلة، هو مجرّد ذباب!". هو يملأ المكان. أراه في كلّ مكان، لا الخبز ولا اللحم ينجو منه. يخيّل إليك أنه خالد. يأتي من لامكان ليملأ هذا العراء الكثيف ويحرّك هذه الحياة الراكدة.

ما أذكره عن هذا المكان هو الصمت. صمت ثقيل وطبيعي. ينحدر من الجبل مثل ضباب الصباح. ويحلّ بالمكان ليملأ الليل، ثم يتموضع ببطء بين الأغراض النادرة المهملة في الباحة، جرّة ماء ومنضدة وقارورة غاز وعربة صغيرة مليئة بالعلف وصندوق كرتون مليء بقشر الليمون المعدّ للتجفيف وكسرة من مرآة موضوعة على حافة الشباك. يحلّ الصمت صادماً آخر بقعة ضوء قبل أن يخيّم

بجلاله على الامتداد اللامتناهي. هو الذي يأتي بالليل، عندما تجمد الحيوانات وتنام واقفة مفتَّحة العينين. يُقال إنّ الليل ينزل عندما تُضيء أنوار المدينة. هنا، لا أضواء أبداً. يحلّ الليل وندعه أحياناً يتغلغل بكثافته في المكان من دون إشعال شمعة. أنا أيضاً أبقى مفتّحة العينين، لا يأتيني النعاس. أحرص على رؤية كلّ شيء ومراقبة كلّ شيء. أتأمّل السماء وأعدّ النجوم. أحتسب الكلمات التي تلفّظت بها في خلال النهار. أخلطها وأنشئ بها جملاً بلا معنى أو صلاة برقة الدمعة.

من هذا المكان الذي نسيه الله والبشر، تنطلق الصلوات لتبلغ بأقصى حدّ سفح الجبل، ثم تعود محمّلة بالغبار والهواء. وكم من مرّة، بحسب ما أخبرني أبي، اجتمع الرجال وتضرّعوا إلى السماء كي ترسل لهم بعض المطر، بعض الرأفة. لكنّهم أدركوا في النهاية أن هذا لا يجدي نفعاً وأن لا أحد يسمعهم، خصوصاً السماء.

قالت لي جدّتي التي لم يعد يفاجئها شيء: "ها قد عدتِ. كنت أنتظرك. الآخرون أيضاً ينتظرون لكنهم لا يعرفون أن الخلاص سيأتي على يدك. أعطيني يدك اليمنى لأنظر فيها. يجب حمايتها. سنغطيها بالحنّة ولن نقول شيئاً لأحد".

أخذت يدي بين يديها وتأمّلتها طويلاً. ملّستها ثم قبّلتها كما لو كانت شيئاً مقدّساً. كنت جالسة القرفصاء. راحت ساقاي ترتجفان وامتلأت عيناي بالدموع التي حبستها رموشي. انبعثت فيّ الطفولة كأنها صديقة قديمة غابت طويلاً ثم أعادتها صدف الحياة إلينا. لم تغمرني النهارات المكفهرّة التي كانت مأهولة بالكراهية والجرذان،

بل بالأحرى حلم الطفولة، التوق إلى طفولة سعيدة مع طائرة ورقيّة كبيرة ترفرف عالياً وسط الضوء الأبيض كغيمة لوّنها الأولاد. وعبر دموعي المحبوسة رأيت كلّ شيء يتلألأ، حتى الغيوم القليلة الشاردة في السماء. حتى الذبابات تحوّلت نجوماً صغيرة مدوّمة، مجنونة نوعاً ما، يتلقّفها الضوء العالي في هذا النهار المتميّز.

أنا المرأة والولد، في حضرة أمّ أمّي، بدأت تتكوّن عندي قناعات، فهذه الأرض التي وُلدت فيها هي أجمل مكان في العالم. لا يطالعنا هذا الجمال في أيّ مكان. هذه الأرض الجرداء المحرومة كلّ شيء، الجافة واليائسة، هذه البيوت الواطئة التي يوجعها الضوء، هذا المنبسط من الحجارة والسراب، كلّ ذلك لم يفسد كلّ الناس. إنسانيتهم ماثلة في نظراتهم، في القلب الكتوم والتجاعيد العميقة والدقيقة في الوجوه التي عاشت دوماً هنا ولم تشاهد أيّ شيء آخر سوى تلك الجبال الكأداء فعلاً، عند الأفق المتحرّك. هذا الجمال أعجوبة مستمدّة من عري الأشياء، من حالات صمت النهارات الطويلة التي لا يحدث فيها شيء، وحيث لا أحد يدخل باحات المنازل للإعلان عن ولادة أو زواج أو وفاة. هذه أمور يعرفها الجميع بالفطرة. لا حاجة بهم إلى منادٍ. يُعرف كلّ شيء عن كلّ شيء ويُكتفى بالصمت. إنّها الحشمة.

هنالك الموت. لكنّه لا يمكث طويلاً في هذه الأمكنة. تارة يختطف طفلاً وتارة عجوزاً. أمّا الآخرون فيتركهم بسلام من دون أن يعطيهم أيّ إشارة أو يدندن لهم بعض الموسيقى الحادّة. تُحمل الجثّة وتُغسل وتُكفّن بقماش أبيض، ثم توضع على وجه الأرض وتقام الصلاة. يمرّ كلّ شيء سريعاً جداً، ثمّ يُمحى هذا المقطع

المشؤوم وتستمرّ الأمور كما لو أن الحياة مليئة بالمفاجآت. يبقى كلّ شيء في مكانه. ليس الموت إهانة. هو من الأمور اليقينية الواردة في الكتاب. جدّتي لا تقرأ، لكنها تحفظ عن ظهر قلب سوراً كاملة من القرآن. تتلوها ببطء، تعلّمتها من والدها وكرّرتها آلاف المرّات. كلّ تلك الصلوات لم تأتِ بالمياه الجارية والكهرباء إلى صحراء الحجارة هذه، ولا حتى بطبيب أو مستوصف متنقّل. على قطر عشرة كيلومترات وعشرين كيلومتراً السماء المرهَقة نفسها، ومنازل "التارا" نفسها، واطئة تسحقها الشمس وتخيّم عليها الوحدة، والعقارب التي جوّفها الجفاف والصراصير المنقلبة على ظهرها وأفعى ينهشها النمل، والحجارة وقطع من القناني البلاستيكية يجمّعها الأولاد لتركيب قافلة في الصحراء، وحزمة علف آتية من الغرب وعظام دجاج بين كلبين يتضوّران جوعاً، والنهار الذي يطول ويمتدّ كقطعة قماش ثقيلة لامتناهية.

وجدّتي التي لا تزال تصدّق قصّة الكنز المدفون عند سفح الجبل أو في أحد منازل القرية، كما تعتقد أنني الابنة التي عيّنها السلَف للعثور على الكنز بفضل خطوط مميّزة في يدي اليمنى، خطوط تشير إلى طريق ومصير، أخبرتني أن العمّ الذي تسمّيه "القلب الأسود" حفر في كلّ مكان، حتى في المدافن، بحثاً عن قطع ذهبية، بمساعدة زوجته الملقَّبة "قلب الحجر". قالت أيضاً إن هذين القلبين خُلقا ليتّفقا معاً، إلّا أنّ الدم الذي يجري فيهما ليس دماً بشرياً. لقد سوّده الكره والحسد. قالت لي: "أعطيني هذه اليد الصغيرة الغالية جداً. إنها نحيفة جداً وطويلة وجميلة. افتحيها جيداً. الحنّة حارّة. سأرسم

لك عيناً داخل سمكة، داخل يد أخرى لها خمسة أصابع واضحة جيداً، وحولها نجوم كي تكون السماء رؤوفة ويغمرنا البدر بضوئه ولكي تقودنا يدك. سنجتاز أراضي شاسعة سيراً على الأقدام. نمشي ليلاً ونرتاح نهاراً. ليباركك الله يا حفيدتي، يا أمّنا جميعاً".

كانت تتكلّم شاخصة بعينيها إلى السقف. اجتاح الذباب الغرفة، وغرق عشر منها على الأقلّ في طاسة الحنّة. رحت أراقبها تتخبّط في السائل قبل أن تغور إلى القعر غارقة في موت متخثّر وحارّ.

مددت يدي، سلمتها لها من دون أن أقول شيئاً، وعندما التقت نظراتنا أشارت عليّ بأن أخفض عيني لأنّها لحظة احتفالية ويجب أن نعيشها بتحفّظ وحشمة. على الأرض نمال تجرّ صرصوراً ميتاً، تسير اثنتين اثنتين في خطّ مستقيم. على راحة يدي بدأت ترتسم عين بشكل سيّئ. لم أعد أرى النمل. كلّ ما بقربي أصبح مشوّشاً. فكرت في ذاك الحلم في قبيلة تتوارثه البنات عن أمّهاتهن والبنون عن آبائهم. قد يكون الكنز موجوداً، كجزء من ذاكرة الجميع. يعتقد البعض أنه موجود في الجبل ويتطلّب الوصول إليه السير نهارين وليلتين، ويرى البعض الآخر أنه لا يمكن أن يكون إلا في مقبرة الوليّ سيدي سلطان في آخر الدرب المؤدّي إلى سبت مزودة. أذكر حين كانت أمّي تأخذني إلى سيدي سلطان حيث قيّد رجل نفسه بسلاسل بعد أن قطّع ثعلباً إرباً إرباً وبعثرها حول المزار. كان الرجل يبكي. قيل إن الثعلب شقيقه وإن أولاده ليسوا منه. يقولون أموراً كثيرة، يصدّقونها، يتظاهرون بتصديقها. في مطلق الأحوال لا انشغالات عندهم، ويجب الانشغال بشيء ما واختلاق القصص وتصديقها،

خصوصاً عندما يغمر الغسق السهل جاعلاً كل لقاء مريباً.

كان هناك رجل عجوز، كبير القامة، حليق اللحية والرأس، يعرف كلّ الكلمات وكلّ أسماء المدن والبلدان، وكلّ الأحلام والحكايات، ويبقى صامتاً. يجلس على عتبة المزار ويراقب الناس يمرّون. أعلمتني أمّي أنه مفسّر الأحلام. يخطّ رسوماً على الرمل الأحمر بطرف عصاه ويتلفّظ ببعض الكلمات المفاتيح، ما يجعل الحلم جليّاً أو معقّداً، ويبدو الأمر مدهشاً في معظم الأحيان. يقول للجميع تقريباً، بعد صمت طويل: "هذه الأحلام قديمة العهد، موجودة منذ تكوّن العالم، عبرت لياليَ كثيرة لدرجة أنها عندما تصل إليّ على ألسنتكم، تكون فاسدة. ويصبح عليّ أن أعيد تركيبها خصوصاً أنكم تروونها لي كيفما كان. أحزر بدايتها ونهايتها، أتخيّل وأختلق ونادراً ما أخطئ".

يرفض تقاضي المال، لكن يودع الناس عند رجليه الفاكهة أو الدجاج الحيّ. يقول لهم: "لا تكلّفوا أنفسكم، فأحلامكم أكثر من كافية. عندما يُروى لي حلم جميل أو قصّة جميلة، أشعر بالسعادة، هذا يساعدني على أن أعيش باقي أيام الأسبوع. لا تعطوني المال. احكوا لي قصصاً جميلة، هذا يكفيني".

قال البعض إن العجوز يجلس على الكنز. في إحدى الليالي جاء شخصان ليحفرا في المكان. فاجأهم حارس المزار فلاذا بالفرار ولم يعرف أحد من هما.

كانت يدي ترتجف. لا أدري أمن التعب أم من قلّة الإيمان. لم أكن مؤمنة بذلك فعلاً، لكنني لم أكن أريد أن أصدم جدتي وأقول لها: "لا وجود للكنز، ولم يكن موجوداً من الأساس. إنها قصّة تشبه

العظام التي نرميها للكلاب لتقضمها. " لا، لم يكن بإمكاني التكلّم مع امرأة عجوز بهذه الطريقة. وبأي حقّ أفعل ذلك؟ من أنا لأدمّر جبلاً من الأوهام؟ تركتها تفعل ما تريد. قالت لي: "بعد ثلاث ليالٍ يكون القمر بدراً. سنذهب جميعنا إلى هناك. نتبعك، وأنت تسترشدين بخطوط يدك، هي تدلّك. هذا ما سمعناه منذ أن كنّا أطفالاً. ثمّ لماذا عدت؟ أولستِ مرسلة لترشدينا إلى الطريق والمكان السرّي؟".

كيف أفهمها أنني عدت بدافع الفضول. وأنني أردت التحقّق من بعض الذكريات التي أصبحت بالنسبة إليّ صوراً ثابتة في حلم أبيض يجب تبيّن ما فيه، صوراً متباطئة لا دلالة لها تقريباً، لكن كلما رأيتها أجدني أتصبّب عرقاً بارداً إذ يرافقها صوت نفَس ضيّق، كولد يختنق ويعجز عن الصراخ وطلب النجدة، صوراً ملفوفة بقماش أبيض، كفن بطبيعة الحال، أو بضباب أو بقطعة من سماء. كيف أفهمها أني أصبحت شخصاً آخر، غريبة أتت لالتقاط الصور وملاحظة ما تغيّر، وتستنتج أن هذه الأرض وهذه الحجارة وهذا الآجرّ وأشجار الصبّار تلك لم تعد تتطابق مع ذكريات طفولة ما زالت تلاحقني؟ وأنّ ما يقلقني حالياً هو تراخي الحركات في حالة من الرضوخ التلقائي. لكني لبثت في مكاني، مادّة يدي، محاطة بأولاد ينظرون إليّ بعيونهم المريضة وأنوفٍ يسيل مخاطها والذباب القابع على رؤوسهم. ذهب الرجال إلى سبت مزودة، إنّه يوم السوق. سيعودون قبل المغيب. النساء سيطهون لحم الضأن في الفرن ويحضّرن الكسكس بالقمح المجروش مع الخضار. إنه يوم عيد. وكيف كان لي أن أعرف ذلك من قبل؟ لقد حكت لي أمّي عن كنز وفتاة عيّنها السلف لتقود القبيلة

إلى حيث دُفن. ظننت أنّها قصة يروونها للأولاد. قصة لزرع الأمل في نفوس أهالي القرية. وها أنا هنا الآن، سخيفة مع آلة التصوير التي لم أجرؤ على إخراجها من علبتها. هذا الشيء الأسود الذي يثير فضول الأولاد. ربما عليّ إعطاؤهم إيّاها وإفهامهم ما هي وتعليمهم كيفية استعمالها. لكن أجدني عاجزة عن الحراك، فقد لفّت يدي بقطعة من عمامة العجوز. يجب تغطية الحنّة كي تنطبع على الجلد. بدت يدي كأنها مثبتة بالجصّ. ضحكت في سرّي. جدّتي تسخّن الحنة لليد الأخرى. وظللت يومين على الأقل عاجزة عن تشغيل يديّ. أطعموني كالطفل وحمّموني وألبسوني. تحوّلت شيئاً ثميناً. منذ أن غُلّفت يداي بالقماش الأبيض انتابتني رغبة كبيرة في الكتابة وتدوين الملاحظات. رحت أراقب كلّ شيء وأسجّل. كلّ التفاصيل تهمّني. في عمق الغرفة أكياس قمح مكدّسة، مؤونة للأيّام الصعبة. في الجدار صدع واسع. على حافة الشباك وضع إبريق شاي وأكواب وخبز محلّى مغلّف بورق أزرق من موريتانيا، يقال إنه مفيد للصداع والدوخة. وليس على الأرض فُرش بل سجاد وجلود خواريف. الأرض المغطّاة بطبقة من الباطون البارد. في الخارج، الهواء حارّ. انتقل الذباب إلى الباحة حيث يجري إعداد العشاء. يتسلّق الأولاد السلّم المكسور القائمة. لا يخشون الوقوع. وأنا جالسة على الأرض، أسند يديّ الثقيلتين على رجليّ المتباعدتين وأنتظر.

بدأوا يتوافدون منذ الصباح الباكر. بعضهم ارتدى ملابس الأفراح. حملوا معهم مؤناً وضعوها في وسط الباحة، من حسن حظّ الذباب. غطّى أحدهم كلّ تلك الهدايا بشرشف وزجر الكلاب

بالحجارة. وكأنما بالصدفة وصل الحاوي مع وصول الأقارب الأبعدين، فكُلِّف الاهتمام بالأولاد بإبعادهم قليلاً عن البيت. قرّرت جدتي أن يتمّ كلّ شيء في جوّ من الهدوء والرصانة. حالياً، أنا أنظر إلى كلّ هؤلاء الناس الذين نسيت وجوههم وأسماءهم. شعرت بأولى بوادر الصداع. لعلّه ثقل الحنّة في الشعر. قلت في نفسي إن شعري يختنق تحت وطأة الحنّة. الحقيقة أنني كنت أتنفس بصعوبة. كان هذا انطباعاً ونوعاً من الجنون ناتجاً عمّا كنت أراه وأشعر به. لم تبقَ من صلة بين جسدي والقبيلة. بدأت أترنّح وأنا جالسة. إن فقدت الوعي فمن سيلاحظ؟ ذكّرني ذلك بيوم زفافي. كنت أسيرة امرأتين بدينتين متخصّصتين في هذا البروتوكول. كان يُفترض بهما مساعدتي كما لو كنت أميرة. وكانتا تؤدّيان الدور جيداً. قالتا لي: "يا غزالة، يا أميرة، اخفضي عينيك ولا تنظري مباشرة في الوجه. أنت مكسوّة بالذهب والماس. عليك أن تحمرّي خجلاً وحتى أن تبكي من الفرح عندما يدخل عليك زوجك. لا تنظري إليه، أبقي عينيك منخفضتين لأنك ابنة العفّة والفضيلة. وإن ما أغمي عليك فنحن هنا لننعشك. من الجيّد أن يُغمى على الفتاة. هذا دليل على براءتها وطهرها." كان كلّ شيء يضغط عليّ بثقله. الثياب الجديدة والمجوهرات المستأجرة والمساحيق على جفنيّ والموسيقى المزعجة وحشد الفضوليين الذين أتوا من كلّ أنحاء الحيّ وزوجي المتشنّج المغتمّ والشيخات اللواتي يتظاهرن بالرقص وهنّ يمضغن العلكة والبدينتان اللتان تشدّان على ذراعي لدرجة تؤلمني والمدعوون المرتبك منهم واللامبالي، وأهلي المنهمكون والحرّ الخانق الذي جعلني أدوخ في

النهاية وأرتمي أرضاً مُغمى عليّ والوقوع أرضاً كخرقة متسخة لم تعد تصلح لشيء. فسارعت إحدى البدينتين توشوشني وقد فاحت من فمها رائحة الثوم والسمنة الزنخة: "أحسنتِ يا ابنتي. ارتمي قليلاً على الأرض، وليس كثيراً. يجب أن يعتقدوا أنك متأثرة وأن هذا الزواج يشوّشك ويزعجك لأنك ستخرقين القاعدة. فزوجك ليس من قبيلتك والأمر قد يكون خطيراً. لكن حتى الآن تسير الأمور على ما يُرام، وأخيراً حتى وإن امتعض البعض حاولي أن تبكي، ليس أسفاً بل من أجل عبور النهر من دون معبر. ستبلّلين نفسك يا صغيرتي. أنت من أراد ذلك. يجب إنجاز الأمر، ونحن هنا من أجل ذلك، لنرافقك حتى الصباح. كي نسمع، كي نشهد على رضى زوجك. ابقي كما أنت، عيناك منخفضتان، مغرورقتان بالدموع، دموع الخجل والخفر. نحن نقبض أجراً كي نعرض الشرشف، وأنت تعلمين أن هذا هو الأهمّ..." في تلك اللحظة تحديداً انهرت على الأرض دافعة البدينتين بكلّ قواي. هرعت أمي إليّ وراحت تبكي وهي تضمّني بين ذراعيها. رأيت الجميع يدورون حولي. غبت عن الوعي مبتهجة، اختفيت من ذلك الحفل الذي لم نكن سعداء فيه لا أنا ولا زوجي ولا أصدقائي ولا أهلي. أحسستني منقولة على نسيم الصباح الناعم، جالسة وحدي على الرمال بفستان عرسي الجميل، أمام البحر قبالة مزار أبيض تسهر عليه امرأة تلبس الأسود. قالت لي: "تعالي، إنه هنا، ينتظرك. هو أيضاً هرب ووصل منذ فترة قصيرة. إنه وسيم. اخلعي كلّ تلك المجوهرات، سندفنها هنا. أدعكما وحدكما. كونا سعيدين!". كان زوجي جالساً، رأسه على ركبتيه. نائماً أو حالماً. ومن دون أن

أوقظه انسللت والتصقت به. أحاطني بذراعيه برفق، واتّحد جسدانا وعشنا حلماً رائعاً في صمت نور جميل، على طرف شاطئ يتصاعد منه البخار تحت ضباب فاتر، وبجانبنا، تماماً وراء المزار، جمل لامع العينين، يلفظ من حين إلى آخر شعلة حمراء وذهبية. كان فجراً مليئاً بالألوان والأغاني المختلطة. كانت ليلة خارقة خلفت فيّ ذكرى الهواء وتعطّش جسد وأرض تتخلّص من حجارتها العديمة الفائدة.

ها أنا مجدّداً موثقة اليدين والرجلين على رأس موكب من العجائز والأولاد الباحثين عن كنز. حمل البعض رفوشاً ومعاول، والبعض الآخر أكياساً بلاستيكية عتيقة بألوان العلم الفرنسي يسمّونها أكياس المهاجرين، وآخرون كانوا فارغي الأيدي لكنهم يتلون القرآن بصوت عالٍ. كان المشهد أشبه بمأتم.

وجدت صعوبة في السير، فالدرب مليء بالحجارة لكن لم يكن تعبي ناتجاً عن عمل مضنٍ أنجزته، بل من هذا الحمل الذي كنت أجرّه ورائي. رحت أنظر إلى كلّ تلك الوجوه المسكونة بالأسرار والأوهام. وانتابني إحساس بالإشفاق والخجل جعل خطاي ثقيلة ومتردّدة. ومع ذلك تابعت السير على أمل سماع صوت عاقل يعلو وسط الليل ليعيد هذا القطيع من الناس المساكين إلى أكواخهم.

عند وصولنا إلى القرية التي يُقام فيها السوق الكبير أيام السبت، توقّفنا لأخذ قسط من الراحة ولإعادة تنظيم صفوفنا. استغرقنا نهاراً كاملاً لنجتاز نصف الطريق تقريباً. قُدّم لنا الشاي والخبز. وكان علينا استئناف السير قبل حلول الظلام. كنت جالسة على صندوق كوكاكولا ناظرة إلى السماء التي كانت تتلاحق في أقاصيها دفعات من

الألوان المتدرّجة من الأحمر الباهت إلى الليلكي فالأزرق المختلط بالأصفر في بعض الأماكن. وقد فضّلت إلقاء نظرة على هذه الفتنة من الألوان الهاربة بدل الالتفات إلى الحركة الدائرة حولي. لم أكن أحلم، كنت أتغيّب. منذ نعومة أظفاري وأنا أتمتّع بتلك القدرة على التملّص من مكان ما أو وضع ما. ولم يكن ذلك يدوم طويلاً، لكن هذا الغياب كان يساعدني بعدها على تحمّل الناس وثرثراتهم.

في اللحظة التي امتلأت فيها السماء بالنجوم دنا أحدهم منّي وقال لي:

– فرسك جاهزة.

-٢٥-

لم أعد أفكّر في الكنز ولا في القافلة التي تسير ورائي. رحت أفكّر في الحبّ. لم أعد إلى قريتي لأرى ما الذي تغيّر منذ رحيلي، بل لأفهم لماذا لا يمكن أن أحبّ من دون التسبّب بالمشاكل. يقول لي ٥٠، رجُلي، إن "الطبيعة تتقدّم على الثقافة" عندي. فأردّ عليه بأنّ هذا "تفكير عالم اجتماع متخلّف!" كان عنده تفسيرات لكلّ شيء، حتى للأمور التي يعجز عن فهمها.

كنت بحاجة للعودة إلى "بلدي" على حدّ قوله. وبدل أن أحظى بالوحدة والابتعاد عن الناس للانصراف إلى التفكير في المستقبل والحبّ، لأعود بعدها إلى منزلي باقتراح أو عدة اقتراحات للعيش بلا مشاكل، إذا بي الآن على ظهر فرس جميلة، يداي مغلفتان بطبقات من القماش، أسير على رأس قافلة من خمسين رجلاً وامرأة مصمّمين على الحفر حتى اكتشاف الصندوق المليء بالنقود الذهبية.

كان الليل جميلاً، هادئاً ومنعشاً. والصمت مشوب بقلق ينذر بوقوع حدث جلل، ربما يكون انكشاف الوهم وخيبة أمل كبيرة.

أسترجع صورة وجه رجلي المخدّد وهو يقول لي: "في الحبّ،

يكفي القليل لحدوث الانقلاب". ما كان يقوم بيننا كزوجين هو حبّ غريب. وغالباً ما كان ينقلب إلى الانزعاج والنوبات العصبية والكلمات الخطيرة التي تسبق التفكير والتحدّيات ومحاولة فرض توازن القوة، أكثر منه حناناً ولحظات صمت طويلة وكلمات مختارة للهمس بها. يجب الاعتراف بأنّ خلافاتنا لم تكن قابلة للرأب، إذ لم نرَ قطّ الأمر نفسه في الوقت نفسه. ولم تكن نظرتنا إلى الأمور تختلف وحسب، بل تعارضت أفكارنا حول كلّ شيء. يبدأ الأمر بشيء تافه، بتفصيل، كأن أنسى مثلاً محبرة مفتوحة وتنسكب بلا انتباه على دفاتره، أو ننتقل عندها مباشرة إلى المسائل الميتافيزيقية الكبرى والخطيرة. لم تكن عندنا الهواجس نفسها. فهو كان مهووساً بالموت والوقت الذي يمضي، فيما أنا لامبالية أميل دوماً إلى التخفيف من طابع الأمور المأساوي، خصوصاً في مسألة الموت. أراد أن يحمّلني كلّ قلقه كرجل غربي يرى إلى كلّ الأمور على أنها مسألة مبادئ وقوانين وحقوق. وأنا موهوبة في إغضاب الناس الذين يسيّرون حياتهم العاطفية كأنها عصبة حقوق الإنسان. أحبّ المزاح كثيراً، والوصول متأخرة إلى موعد أو عشاء، والركض في قاعة المطار للّحاق بالطائرة. أما هو فعندما يسافر يصل إلى المحطّة أو المطار قبل ساعتين. يخاف أن يفوّت قطاره أو طائرته. أمّا أنا فأحبّ كثيراً أن أتحدّى الوقت وقيوده. أول ما حدّثني عنه عندما تعرّفت إليه كان الأرق. يجد صعوبة في النوم. لم أفهم قطّ كيف أن النوم يسطو على البعض من دون مشكلة وينكّد نوم آخرين في قسم كبير من الليل. أنا أنام في أيّ مكان ومتى أردت وطوال الوقت الذي أريده.

الحقيقة أن مكامن قلقنا تختلف، أو فلنكن أكثر إنصافاً، أحدنا يعاني من القلق والآخر لا. فكما كنت أقول له: "لديك من القلق ما يكفي لشخصين!". فهل الحبّ هو أن تعرف كلّ شيء عن الآخر وتتقبّله، أم بالعكس أن توهم نفسك بمعرفة كلّ شيء عن الآخر وتسعى إلى تغيره؟ هو يزعم أنني لا أحبّه لأنني لا أفهمه. أفعل كلّ ما بوسعي لمعارضته. هذا يمنعه من النوم مطمئنّ البال. عندما أعارضه، أحرّك فيه سنوات وحدته وأنانيته. وللأسف، تأتي ردّة فعله سيئة، فيغضب ويشتم ويصرخ، ويتلفّظ بكلام بذيء ويتناول حبوباً منوّمة ويكتب رسائل انفصال ويتذمّر وينوح باستمرار.

لاءمتني تماماً وتيرة سير الفرس لكي أفكّر.

ومع حلول الليل والوضع الشاذ جداً الذي وجدت نفسي فيه، بدأت أفكاري تتراكم وتتوضّح.

أحسست أنني أوقعت زوجي في الفخّ من حيث لا أدري. هو الذي لطالما تكلّم عن حقّ الاختلاف ودافع عنه، هو الذي ناضل كي لا يسيء قانون البشر بعد اليوم معاملة المرأة العربية والبربرية والمسلمة. هو الذي يعطي أهمية كبيرة للمبادئ، وجد نفسه أمام امرأة تهتمّ باستمرار باختلافها الطبقي والعرقي والثقافي، وتطالب بموقع مساوٍ للرجل على كلّ الأصعدة، ولا تعترف في المقابل بأيّ مبادئ سوى تلك التي تخترعها كي تعيش وتجد مكاناً لها إلى جانب الذي يحكم ويولي اهتماماً لقلقه أكثر منه لتوق امرأة حيوية وقاسية أحياناً إلى الفرار.

لو كان بإمكان الإنسان أن يتغيّر، فهل كنت اليوم على رأس زمرة

من الأشخاص البسطاء الذين يؤمنون بالعجيبة والكنز؟ لا، فالكلمات وإن قيلت بكلّ النبرات وبكلّ المعاني لا تغيّر أحداً. إنّه وهم مخادع. وما أدّعيه هو أيضاً خداع، وهو أن أحوّل هذا الإنسان الأناني والقلق عاشقاً إلى الأبد. قد يكون محقّاً عندما يقول لي: "لا تعرفين شيئاً عن الحبّ!" ما الذي عليّ أن أعرفه؟ أن أتألّم؟ أن أتعلّم كيف أعيش الغياب والحاجة والانتظار. ولماذا عليّ اختبار كلّ ذلك؟ لست أتعامل مع شخص أميّ مثل هؤلاء الناس الذين يُفترض بي إرشادهم إلى الكنز المرصود. أعرف ما الذي يريده، قاله لي بوضوح في أحد الأيّام: يريدني أن أبقى خافضة العينين كما في العصور التي كان فيها كلام الرجل ينزل من السماء على المرأة وهي حانية الرأس خافضة العينين وليس لها إلا أن تقول: "سمعاً وطاعة يا سيدي!". هذا ما يسمّيه الحشمة، أمّا أنا فأرى فيه دناءة وخبثاً وإهانة. الحشمة هي في النظر إلى الرجل وجهاً لوجه ومواجهة رغباتنا ومتطلباتنا. إن كان الرجل، حتى اليوم، لا يزال يركب على البغل وتلحق به زوجته سيراً على الأقدام، ويجد الجميع هذا طبيعياً، فأنا لا. لن أقول شيئاً هذه الليلة لأنني قرّرت إرضاء امرأة عجوز. جدتي. هي تؤمن أو تدّعي الإيمان بقصة الكنز هذه. فلماذا أحرمها أوهامها بشكل فظّ؟ في نهاية المطاف عندما يعيش المرء في تلك القرى الجرداء التي هجرها الجميع، أتفهّم أنه يحلم إلى حدّ تصديق الأساطير الجديرة بأن تروى في كتب قصص الأولاد.

كم من امرأة تحدثت عن تلك الليلة التي سيكون فيها القمر بدراً وتسير فيها الفتاة التي اصطفاها الزمن والقبيلة على حصان أبيض

لترشد القرية بكاملها إلى المكان السرّي! ها هي تلك الفتاة، شبه نائمة، تفكّر في رجلها الذي تركته بعيداً جداً، جريح الحبّ وأسير قلقه وأسئلته المؤلمة عن الحرّية والحقوق والمبادئ والتاريخ والجذور والهويّة والمسؤولية والمرض والموت... باختصار، عن الحياة بالمنظور المأساوي.

كيف كان سيتصرّف لو أنّه ليس مكاني، بل إلى جانبي في هذه الحملة الليليّة والمشكوك في نجاحها؟ لأثار مسألة الحقّ في الحلم لهؤلاء الناس الذين أذلّهم الفقر ولم يبقَ لهم سوى الدين والخرافات للتعويض عن كلّ هذا النقص. ولشعر بالاستياء وأعطى ملاحظات عن النظافة وكثرة الذباب ورائحة كبش القرنفل الحادّة والسلبية المتأصّلة نوعاً من الخدر العام المتأبّد بما يثير الغضب. ولما تحمّل كلّ هذه اللعبة ولعبّر عن ذلك بالمزاج السيّئ والصداع. وبالرغم من كلّ شيء، أنا مرتاحة هنا، مع أبناء جلدتي الذين لا يعارضونني في أيّ نظرية. أناس بسطاء، يعيشون ببساطة ويموتون بالبساطة نفسها. لم أعش قطّ في صراع مع جذوري. وها أنا أعود إليها بشكل طبيعي وأحترمها. أرضى بها. وهذا ما أراده لعلاقتنا، أراد أن يكون جذوري وأن أشعر به ومعه بالراحة نفسها التي أشعر بها عندما تدوس قدماي هذه الأرض الحمراء والجدباء، من دون أن أطرح الكثير من الاسئلة. هو محقّ عندما يقول إنني أتفاعل في أغلب الأحيان كالحيوان، بأحشائي وأعصابي لا برأسي.

هل يمكن أن نحبّ عندما لا يكون بيننا أيّ قاسم مشترك؟ كنت أطرح هذا السؤال على نفسي للمرّة المئة عندما أسرع رجل يحمل

مشعلاً بيده أمام فرسي وراح يهتف: "الله أكبر!". توقفت الفرس وامتنعت عن التقدّم. تقدّمت جدّتي منّي وقالت لي: "يكفي، وصلنا. عليك الآن أن ترشدينا. إن كانت الفرس ترفض التقدّم فهذه إشارة على أننا لسنا بعيدين عن المكان الذي دُفن فيه الكنز. انزلي، سنفكّ القماش الذي يلفّ يديك. طبعاً يجب أن تكون الحنّة قد وضّحت خطوط يدك اليمنى، ستدلّنا على الطريق التي يجب أن نسلكها قياساً على موقع القمر. انظري كم هو جميل، مدوّر ومكتمل ومُشعّ. القمر معنا!".

-٢٦-

كان جسدانا متحابّين، أمّا أفكارنا فمتباعدة أو متعارضة. فرق العمر كبير بيننا لكن لم يزعجني ذلك. كنت أظنّ أنني وجدت الحبّ، الحبّ الكبير والحقيقي، في نظرته وحركاته وتلهّفه. لم أكن أعرف أنّ عليّ أن أخلقه وأبنيه كما لو أنّه منزل أو عمل فنّي. هذا ما ظننت وانتظرت أن يأتي الرجل الذي اخترته بالشعلة ليضيء روحي. وعندما لم يكن الحبّ يحصل كما كنت آمل، أشعر بالخيبة وأصبح تعيسة. كانت غلطته. عليه أن يحزر ما هي تطلّعاتي ويحقّقها كما في الروايات. لكنه قال لي في أحد الأيام: "ليست الحياة رواية. بل هي أكثر وأفضل من رواية. هي أكثر مفاجأة وأكثر جنوناً وأقل رقّة من حكاية في كتاب. الرواية تخون الحياة لأنه يمكن أيّ أحد أن يفتحها ويباشر بقراءتها من الفصل الأخير". وفي الحياة فصل أخير لكلّ شخص، نعرف كيف تنتهي الرواية، نعرف الحلّ النهائي، لكن لا يمكن أيّ أحد أن يعرف متى وأين وفي أيّ ظروف ستقع النهاية. حتى وإن كان المسلم يؤمن بأن كلّ شيء مكتوب في السماء. كنت أحياناً أراقب السماء طويلاً على أمل أن أقرأ فيها مقتطفات من تاريخنا.

في هذه الليلة أيضاً كلّ العيون شاخصة إلى السماء، منتظرة إشارة من نجمة أو حتى من القمر نفسه. وجّه رجل المشعل الضوء عليّ فيما كانت جدّتي تفكّ الرباط عن يدي. وصلت إحدى القريبات حاملة مبخرة. دارت حولنا وهي تلوّح بالمبخرة من اليمين إلى الشمال وتتمتم بعض الصلوات. الفرس مربوطة بشجرة تشرب من سطل بلاستيكي. وجلس الآخرون على شكل دائرة وانتظروا.

يداي عاريتان، وأصابعي متصلّبة. حرّكتها. أحسست بأن يديّ أصبحتا خفيفتين كالأجنحة. عدت أفكر في الزمن الذي كنت فيه أحلم بالطيران. المشعل ينشر ضوءه. امتصّت جلدتي الحنّة بأكملها، وعلى كامل راحة يدي بقعة سوداء جعلت من المستحيل قراءة خطوط يدي. كما لو أنّ الحنّة تحوّلت قطراناً. أطلقت جدتي صرخة ذهول ثمّ راحت تصيح:

– يا الله، يا الله، أزِل هذا السواد عن هاتين اليدين البريئتين. امنحنا رحمتك وبركتك. نحن عبادك نؤمن ونشهد أنّ سيدنا محمّداً نبيّك...

انضمّ إليها بعض الرجال المسنين الذين قرّروا ذبح ناقة عجوز ووضع رأسها على عتبة المزار. وأنا لطالما أزعجتني رؤية الدم. رحت أنظر إلى يديّ السوداوين وأنا أضحك في سرّي. وكي أنقذ الناقة المسكينة، رفعت يدي ومنعتهم من لمسها:

– لا نزيدنّ مأساة على الضَياع الذي نحن فيه. دم الناقة لن يجعل خطوط يدي أكثر وضوحاً، حتى وإن غمستها في الدم الساخن. يجب أن ننتظر زوال الحنّة. هنالك الليلة طبقة من الظلمات تضلّل

طريقنا وتصعّب أكثر تحقيق مسعانا العسير. الكنز يجب أن نستحقه. لقد انتظرتم عقوداً من دون أن تفعلوا شيئاً. أرضكم افتقرت. وبدل أن ينبت فيها العشب بدأت تظهر فيها الصخور. أنا أنظر إلى يدي اليمنى وأتمكن من قراءة كلّ ما أقوله لكم. خطوط القدر وخطوط الحياة وخطوط الحظّ اختلط بعضها ببعض. لم تعد تعني شيئاً. إنها إشارة من هذه الليلة الاستثنائية التي تجمعنا. لقد ألقى القمر ضوءه على يدي فابتلع الخطوط التي يُفترض أن ترشدنا إلى مكان الكنز السريّ.

فيما كنت أتكلّم، بدأ بعض الرجال بالحفر في أماكن مختلفة حول المزار. كانوا يحفرون بقوة وعنف، وبعضهم يبكي والبعض الآخر يهتف باسم الله، وقد انتابت الجميع حالة من السّعار الشديد. كأنهم جنّوا، تعاركوا في ما بينهم. بعضهم أغمي عليه والبعض الآخر أصيب بنوبة الصرع المريض به. وحدهنّ النساء المتحلقات حولي حافظن على هدوئهنّ. كنت أسمع بعضهنّ تبكي بصمت. تابعت الكلام وأحسست بجسدي ينتفض. كما لو أن الأرض تتحرّك. كنت تعبة، وعطشى، وقد نفد الماء. وما بين نواح الرجال ونحيب النساء وخوار الناقة وصوت المعاول على الصخور كلّ ذلك أشعرني بالدوار. وقفت محاولة السير، فآلمتني رجلاي. أيضاً سوّدتهما الحنّة. أردت أن أتنشّق الهواء والهرب من جوّ الهستيريا الجماعية هذا، والرحيل بعيداً، بعيداً جداً. إلى أوستراليا مثلاً. وابتسمت. هذه عبارة يستعملها زوجي، عندما يريد الاختفاء والاختباء في أرض شاسعة ونائية جداً عن المغرب وفرنسا يذكر أوستراليا. يحبّ الاسم مع أنه لم يسافر قط

إليها. ولو أنه طبّق يوماً ما يقول، ولو أنّه توارى فعلاً في أوستراليا، لأخذته قطعاً على محمل الجدّ.

أمسكني رجل المشعل من معصمي وجذبني بقوة نحو مجموعة من الرجال يحفرون بأصابعهم. بعضهم يواصل الحفر بأياديه الدامية. توقفوا عند رؤيتي وأمرني أحدهم بأن أريه يدي. تفحّصها بعد أن فرك راحتها بالتراب ثمّ بصق فيها وصرخ:

– إنها تسخر منّا. هذه الفتاة لا تعلم شيئاً، حقيرة هي. لقد أفسدها الناس هناك. لقد ذهبت منذ أكثر من عشرين سنة، ويكفيها هذا الوقت كي تنسى كل شيء. أنا متأكد من أنها باعت خرائط الكنز من أحد النصارى... لقد خانتنا... بالنسبة إلينا المرأة التي تغادر القرية هي امرأة ضالّة. حتى وإن عادت لا تبقى هي نفسها.

كان معصمي يؤلمني، والرجل يزعق بأعلى صوته. كانت يدي مليئة بالتراب الممزوج ببصاقه والدم السائل من أصابعي المجروحة.

وإذا رجل آخر مطبق العينين بنوع من العفن الوراثي، يمدّ يديه المتّسختين نحوي ويتلمّس خدّي ثمّ كتفي. فتملّصت من بين يديه صارخة.

– هذا ما ظننته. لا يمكن توقّع الخير من امرأة نحيلة. لعلّهم علموها هناك أنه كلّما كانت نحيلة كان السمّ السائل من أنفها فعّالاً. لأنّ أنفها مرؤّس. لقد قولبه السمّ.

لم أعد أنصت إلى ما يقوله. قوّست ظهري وعدت إلى قوقعتي، ومع بعض التركيز تمكنت من عدم سماع أيّ شيء. سبق أن لامني رجُلي عدّة مرات على نحافتي. لم يكن يقول "نحيلة" بل "نحيفة".

وبالنسبة إليه هذا ما يفسّر عدائيتي. لم أكن أهتمّ بذلك. فما يسمّيه بالعدائية هو طريقتي الفظّة قليلاً في قول الحقيقة. والحقيقة أنني لا أحبّ مجاملة رجُلي. في الحبّ لا مكان للخبث. يجب قول الحقيقة ولو جارحة. وفي ذهني أني لا أجرحه. كنت بدافع الحبّ والواجب أرمي في وجهه كلّ ما أفكر فيه، لا أتحسّب ولا أتحفّظ. اليوم أعترف بذلك. بالغت عدّة مرّات، ولا أذكر أنني اعتذرت له يوماً. كان حريصاً جداً على الاعتذارات، وأنا أجيبه: "هذه شكليات لا تتلاءم مع الحبّ والحقيقة." أشتاق إليه جدّاً، خصوصاً في هذه اللحظة التي كان بإمكانه فيها أن يأتي ليخلّصني من أيدي هؤلاء الرجال والنساء المصابينَ بالجنون. ربطوني بالشجرة وراحوا جميعاً يحفرون. بتّ سجينة إذاً. كفّوا عن الصراخ. لعلّهم تعبوا. أبحث عن جدّتي، ولا أراها. ربما هي في الجهة الأخرى من المزار. أناديها. لا أحد يجيب. أنادي رجُلي. لا صوت يردّ. أحاول فكّ قيدي. أصرخ. لا أحد يلتفت إليّ أو يأتي ليحرّرني.

أذكر اليوم الذي حمل فيه رجُلي حقيبته، بعد جدال عاصف بيننا، وغاب مدّة أسبوع. تساءلت يومها: كيف يمكن أن تحبّ شخصاً بهذه الدرجة من العنف، إلى حدّ الدمار؟ هل من الممكن الاستمرار في التناحر باسم الحب الذي نعجز هو وأنا عن تحديده؟ كان يقول: أتحمّل مسؤولية أخطائي. فأردّ عليه: إن كان حبّنا خطأً، فمن الأفضل وضع حدّ له. لم أكن أفهم. كيف نتوصّل إلى تحمّل مسؤولية أخطائنا؟ يُفترض أن توجد وصفة لذلك، نوع من جرعة سحرية تبعث في الجسم مادة تزيل الاختلافات وتولّد نوعاً من الهدوء

لتحمّل ما يصعب تحمّله. اكتشفت هذه الجرعة مرّة. اعتقدت أنها دواء أو مهدّئ أعصاب. لأنني غالباً ما رأيته يزدرد الحبوب قبل النوم، وهذا آخر الحلول. أما جرعته الفعلية فكانت نتاجه، ما يكتب من شعر. الشعر فقط، مبهم أو معقّد في أغلب الأحيان. في البداية كان يطلب منّي قراءته. لم أكن أفهم الكثير وفي الوقت نفسه أحسّ أنه تعبير عن عذاب ما. كنت أكتفي بالصمت، أو أقول: "هذا جيد!" والأمر نفسه. كنت أقول في نفسي إنه إن هجرني يوماً ما، فليس بسبب فارق العمر الكبير بيننا، بل لعدم دخولي معقله. لكم وددت أن أتمرّس بالشعر، لكن ليس على يده. الشعر الذي أتفاعل معه هو شعر الحياة، شعر الطبيعة، وليس هو في الكلمات. في صغري كنت أملأ رأسي بالصور. كانت تلك طريقتي في تأليف الشعر.

فيما أنا مستندة إلى جذع الشجرة أغفيت مطاطئة الرأس. أبصرت أحلاماً كثيرة. أعتقد أنني رأيت رجُلي يحفر مع الآخرين، بالسُعار نفسه والجنون نفسه. حفر بمفرده حفرة واسعة ورمى فيها الأشخاص الذين قيّدوني وغطّاهم بالتراب. دفنهم أحياءً بدافع حبّه لي. هذا برهان على حبّه. هذا ما انتظرته منه منذ زمن طويل، برهان مذهل، مبادرة رائعة.

تحرّكت قليلاً فانحلّت عقدة الحبل حول معصمي. تحرّرت. تفحّصت يديّ. لم يعد هناك أيّ أثر للحنّة. كانت راحتا يديّ نظيفتين والخطوط في مكانها. وددت لو أن بإمكاني في تلك اللحظة أن أريهما لأستاذي، السيد فيليب دو، لكشف لي حتماً ما الذي حصل في تلك الليلة. لم يكن حولي أحد. المزار مقفل. سرت ببطء بحثاً

عن رفوش ومعاول. دفعت باب المزار، كان مُعتماً. سألت بصوت عال: "هل من أحد هنا؟". فنهض رجل، أو امرأة، متدثّراً بملاءة بيضاء، قد تكون كفناً، وأمطرني بالتماعات "فلاش" آلة تصوير. بُهرت عيناي ولم أعد أرى شيئاً. راح يقفز بخفّة من مكان إلى آخر. وانتابني الخوف. وفيما أنا أتراجع للخروج ارتطمت به. كان ورائي مواصلاً التقاط الصور. أطلقت صرخة، وسمعت صداها. ها أنا سجينة مجدّداً. راح يكلمني بالبربرية والعربية والفرنسية أيضاً. دُهشت إذ تهيّأ لي أنني أعرف هذا الصوت. كلا، ليس هذا صوت رجُلي. كان بعيداً، في اجتماع للكتاب في سان فرانسيسكو. كلا، لا بدّ من أن هذا صوت فيكتور:

"وبدأت ضفادع كلّ المدن تراقص في أحشائي. أضخمها يضغط بثقله على صدري ويمنعني من التنفس، وصغارها تسدّ أنفي وفمي. ثمّ راحت ترقص طوال الليل، وفيما أنا مربّط وجسمي مغطس بمياه البحيرة القذرة أغمضت عينيّ معتقداً أنني نائم وأنني في كابوس. وعندما فتحتهما رأيت كلّ تلك القوائم القصيرة تنطنط على صدري وبطني. ومذّاك تعلّمت النّطنطة. يكفي طيّ الساقين جيداً والقفز من دون التفكير في شيء. وللأسف كنت أفكر. أفكر كثيراً وهذا ما سرّع نهايتي. ظننت أن ساعة موتي دنت، وأن ليل الضفادع لن ينجلي. ولحسن حظّي انتشلني في الوقت المناسب رجال ونساء وهم عائدون صباحاً بعد أن أمضوا السهرة والليل بأكمله في الحفر. يا للشجاعة! عرفت أنهم سيعودون تلك الليلة. هم مصمّمون على الحفر إلى أن تنبجس المياه من البئر. يهتمّ الرجال بالبحث عن

الآبار والنساء يسوّين الأثلام التي ستجري فيها المياه إلى القرية والى الحوض الكبير. انتظروا سنوات كي تجرّ الحكومة المياه لهم. ليست المنشآت بعيدة، هي على بعد حوالى اثني عشر كيلومتراً من القرية. أدركوا الآن أنهم إذا أرادوا المياه فعليهم الذهاب لجرّها، وإذا لزم الأمر فسيحفرون إلى حتى نهاية الأزمنة. وبعد ذلك يناضلون للحفاظ عليها، كي لا يأتي نذل بآلاته ويحوّل مجراها لكي يروي حقوله من دون أيّ عقاب. وإذا ما ربحوا معركة المياه، كسبوا حياتهم، حياتهم وحياة أولادهم. وأنا، المقيّد في الوحول، أخبط برجليّ متعاركاً مع الضفادع، في المكان الذي تركتني فيه. لحقت بك. ثم أوقفني أحدهم، في مكان لا يبعد كثيراً عن قريتك، ورماني في بركة ماء بعد أن ربَّطني. كان شخصاً قادماً من جانبك. من حسن الحظ أن هؤلاء الناس الطيبين فكّوا أسري. في هذه الأثناء كنت تتنزّهين حاملة آلة التصوير كسائحة. يا للوقاحة! عليك الآن الخروج من سباتك هذا، وأن تكفّي عن التفكير في أنك دائماً على حقّ. توقّفي عن اعتبار أحلامك حقيقة، حتى وإن كانت حقيقة هذا البلد أقوى وأكثر جنوناً ومفاجئة أكثر من كلّ أحلام العالم. عودي إلى الأرض. دعي رجليك تتشبّعا بنحو مستدام من جمال وجاذبية هذه الأرض التي لا تني تعمل وتدهشنا. كان الأجداد على حقّ. لقد توقعوا أن يأتي يوم قد تبور فيه أرض القرية بسبب جفاف السماء والبشر. كانوا يعلمون بوجود الآبار، ليس تحت منازلكم بالضرورة، بل أبعد بقليل. ولذلك تحدثوا عن الكنز. فكّر الجميع في الذهب والفضّة. لم يخطر ببال أحد ما هو أثمن، الماء، الماء بكلّ بساطة. أدركوا ذلك وهم

يحفرون. كلّما نبشوا الصخور وجدوا الأرض رطبة. سيعودون كلّ ليلة إلى أن تتفجّر في وجوههم مياه عميقة وباردة وصافية. إن الذهب هو بصفاء الماء وليس العكس. الآن أحسّ بأنني نافع. لم أعد وهماً أو إحدى شخصيات قصصك الخيالية أو كائناً من ورق. سأضع نفسي في خدمة هؤلاء الناس. سأحفر معهم، مكاني ها هنا، بجانبهم. إنهم بسطاء وغير مدّعين. ليس خطأهم أن ينقادوا لبعض الأوهام. أما أنتِ، فافعلي ما تريدين. هيّا، خذي آلة التصوير، وثبّتي قبيلتك في صور. لن ينقموا عليك، فهم أرفع من ذلك. من الأفضل لكِ أن تعودي إلى هناك. لا أدري إن كان رجُلك ينتظرك. أعلم أنّك استهلكته. هل تحلّى بالقوّة الكافية ليرحل؟ أجهل ذلك. تعرفين قصّة الساذج الذي أعدّ طبقاً طيّباً جداً بالزنجبيل وقدّمه للحمار الذي ازدرده كأنه حفنة من العلف. من هنا المثل السائر: "ما أدرى الحمار بالزنجبيل؟" الكنز، كنزك، كان بين يديكِ لكنكِ دمّرته! اليوم، لم يعد رجُلكِ شاعراً. أصبح مجرّد ناسخ. انطفأ فيه كلّ شيء، روحه ونور عينيه. بطل هو. تحدّى العالم أجمع وأراد رأب ما يستحيل رأبه. ليس أول شخص أراد توحيد عالمين منذورين للتعارض. هو شاعر وراوٍ. جنونه هو الذي قرّبني منه. جنونه وألمه. وداعاً أيتها الفتاة الصغيرة التي كبرت يوم كان عليها البقاء صغيرة، وتصرّفت كطفلة عندما كان عليها التصرّف كشخص راشد. وداعاً. لقد أحببتك كثيراً. أحببت شجاعتك وإصرارك ومخيّلتك وأحلامك! خذي الآن ما تحتاجين إليه من وقت للتفكير والتصرّف."

-٢٧-

- خذي، كلي لوزاً مرّاً.

كان الولد الذي مدّ لي يده مليئة باللوز الطازج يعاني من مرض في عينيه. تناولت منديلاً نظيفاً ومسحتهما.

- إن لم نجد الماء أتأخذينني معك؟

فسألته:

- إلى أين تريد أن تذهب؟

- إلى حيث تذهبين.

- والمدرسة؟

فبدأ يتلو على مسمعي أول سورة من القرآن وأتبعها بالثانية فوراً. وإذ لاحظ تشكيكي، أراد إدهاشي فتلاها بالمقلوب بدءاً من الآية الأخيرة. قلت له إن هذا تجديف فأجابني:

- لا، التجديف هو في البقاء هنا والمشاركة في مسابقات السرعة في تسميع القرآن.

كان خطاب فيكتور الطويل قد أذهلني فلم أعد أعي أين أنا أو ماذا يحصل لي. وأكلت اللوز، كان بعضه مرّاً. أحسست بحاجة إلى

شرب القهوة، وهنا لا يشربون إلّا الشاي. جلت بنظري مفتّشة عن الرجل الذي كان حدّثني مدّعياً أنه فيكتور. لم أجده. فسألت الولد:

– هل شاهدت رجلاً قصير القامة متدثراً بملاءة بيضاء؟

– أريد أن تأخذي لي صورة. ليس وحدي. بل معكِ... وبعدها أجيبك.

لم يكن هناك أحد حولنا ليلتقط لنا صورة معاً. ثبّتُّ آلة التصوير على شجرة صبّار ووقفت بجانب الولد. انطلق نظام التشغيل الأوتوماتيكي. اغتبط الولد وأمسك بيدي.

– متى أحصل على الصورة؟

– سأرسلها لك. أعدك بذلك.

– ترسلينها لي إن لم تخرج المياه من باطن الأرض. بلا ماء، سنضطرّ إلى الرحيل مثلك، مثل أهلك.

– إذاً، هل رأيت الرجل الصغير؟

– في الحقيقة، لم يكن هناك رجل. لم يبقَ أحد في المزار. عند شروق الشمس، توقف الذين كانوا يحفرون وعادوا إلى القرية ليناموا. أنت نمتِ تحت شجرة. رأيت عجوزاً تحاول إيقاظك. كانت عيناك مفتّحتين، لكنّك كنت غافية. تركتك وطلبت منّي حراستك. هي التي أعطتني حبّات اللوز وطلبت مني أن أعطيك إيّاها. تلك هي الحقيقة كلها. ماذا، هل نعود الآن؟

– نعم، فلنعد.

– يجب أن نسرع لأن الشمس ستصبح حارقة جداً بعد قليل.

مشيت وأنا أنظر إلى الأرض، محاولة تذكّر ما جرى في العشيّة

والليل. الطفل يشدّ على يدي، هو الآن دليلي وكان فخوراً بذلك. ظننت أنني تخلّصت من فيكتور. لكن ها هو يعود إلى الظهور ليزعجني مجدّداً. لم تشفني العودة إلى البلد كلّياً. ما زلت أسيرة الظلال التي تلاحقني. في أحد الأيّام، وبعد نقاش مع رجلي أغضبته فيه كثيراً، قال لي بهدوء بعد أن فكّر مليّاً: "يا مسكينة، ليس عندك أنا مثالية!" قالها بشيء من الرضى كأن معجزة ما وقعت مزيلة كل التباس ومبسّطة كل ما كان معقّداً. وجد أخيراً سبب خلافاتنا وتصرّفي المزعج ونوبات غضبه. بدا مسروراً صراحة باكتشافه هذا. أصبح قادراً على تصنيفي في خانة وتفسير كلّ شيء انطلاقاً من هذا الوضع. أراحه ذلك. مسألة "الأنا المثالية" هذه هدّأته. لم تعد ردود فعله عنيفة كالسابق. شعرت بأنني أصبحت موضوع تحليل نفسي بالنسبة إليه. حالة تُدرَس. توسّع في شرح نظرية ابتعاد الإنسان عن جذوره وضياع المعالم. أنصتّ إليه مبتسمة، ثم قلت له: "في نهاية المطاف، إن كان هذا يحلّ مشاكلنا، فلنقرّ بأنه ليس عندي "أنا مثاليّة". نسي أهلي توريثي إيّاها بالرضاعة. وأنت الآن ستصلح كلّ الشوائب الناجمة من تربيتي." قلت ذلك لأستفزّه. غضب وتراجعت الأمور إلى سابق عهدها. ومذّاك لم نبحث قطّ في هذه المسألة.

كانت الشمس قد أشرقت عند وصولنا إلى القرية. كان الأولاد يلعبون بهرّ صغير ميت. يتقاذفونه ككرة منفّسة، متمتّعين كثيراً بذلك. وكان رفّ من الذباب يرافق الحيوان الصغير. وقفت على ربوة صغيرة، وللمرة الأولى رأيت هذا المكان كما هو عليه: أرض خراب كلّي حيث هرّ صغير ميت يبعث البهجة في نفوس أولاد مرضى

العيون. بدا أن الرجال والنساء نائمون. وُضعت الرفوش والمعاول في إحدى الزوايا. انضمّ مرافقي إلى الأولاد وراح يركل الهرّ في بطنه. خيّل لي للحظة أنني أسمع أنين الحيوان كأنه ما زال حيّاً. وبالرغم من الشمس اللاهبة، جلست ورحت أبكي. شعرت برغبة جامحة في النزول والاختلاط بهؤلاء الصبية المتّسخين. أردت أن أمسك أنا أيضاً الهرّ بذنبه وأؤرجحه في الهواء. بكيت لأنني فهمت أن طفولتي تعاودني كحمّى مفاجئة لكن مألوفة. وفي غفلة من الأولاد لمّ هرّان أسودان صغيرهما وهربا بعيداً في السهل. فراح الأولاد الذين أخذوا على حين غرّة يتبادلون النظرات مذهولين ولم يفهموا لماذا حُرموا من كرتهم. انهمرت دموعي أكثر وأكثر. ركض أحد الأولاد نحوي وانتشل منّي آلة التصوير. راحوا يمرّرونها في ما بينهم ويفكّكونها. أخذ كلّ واحد منهم قطعة. لم أقل شيئاً وتركتهم يفعلون. "المهمّ أن يجدوا الماء وإلّا فسيصابون بالجنون، يسخطون. وفي سخطهم وجنونهم قد ينزلون إلى مراكش أو أغادير ويحطمون كلّ شيء شرط حصولهم على الماء..." غادرت القرية من دون أن ألتفت ورائي. أشدّ على محفظتي التي تحوي جواز سفري وبطاقة السفر وبعض المال. مشيت بسرعة، لا أدري إن كان وجهي مبلّلاً بالدمع أو بالعرق. كنت أتصبّب عرقاً. سرّعت الخطى ثم ركضت. كان عليّ مغادرة هذه الأرض الملعونة في أسرع ما يمكن. كنت بحاجة إلى لقاء رجُلي والتكوّر بين ذراعيه والبكاء بصمت. عاودتني صورة منزلنا في باريس والثلج على نهر السين ووجه رجُلي الناعم. وكرّرت لنفسي: "المهمّ أن يجدوا الماء... المهمّ أن ينتظرني... المهمّ أن يجدوا الماء...

المهمّ أن يكون في المنزل... وإلاّ أصبنا جميعنا بالجنون.. قصّة الكنز المدفون في سفح الجبل هذه حقيقية. ليست أسطورة".

بعد ساعتين من السير وصلت إلى الطريق المؤدية إلى إمنتانوت، ومنها إلى مراكش. موعد انطلاق الباص في حوالى الخامسة عصراً. كان عليّ الانتظار طوال النهار. جلست على صندوق كوكاكولا عند مدخل محلّ يبيع كلّ شيء، مأكولات وأسمدة وقمصان وآلات زراعية وقوارير غاز وأجهزة تلفزيون وحبال وفحم... جلت بنظري محاولة اكتشاف ما ينقص. لم يعد هناك رفوش ولا معاول. كان هناك رجلان مسنّان يلعبان الضامة بسدادات قناني كوكاكولا وليموناضة "لا سيغونيه". يتجاذبان أطراف الحديث من دون أن يشيحا بنظرهما عن اللعبة:

– هل علمت، يطلبون متطوّعين...

– نعم، جاء المقدّم وحدّثني في الأمر هذا الصباح.

– المهمّ أن يجدوا الماء... وإلاّ فسيجتاحوننا.

– منذ سنوات لم تمطر هناك.

– إنها قرية ملعونة. خرجت فيها الشياطين. لذلك يغادرها الجميع.

– هذا هو العصر.

– هذه هي الحياة.

– ناس متخمون وناس جائعون.

– تلك هي مشيئة الله.

– الله والبشر...

- حذارِ، لا تشكّك. الله لا يجوّع أحداً. البشر هم الذين يجوّع بعضهم بعضاً. هيا تابع اللعب. لن نمضي كلّ النهار لإنهاء هذه الجولة.

- نعم، معك حقّ. المهمّ أن تتفجّر المياه... وتتبخّر ذكرياتنا مع ضباب الصباح...

- تصعد إلى السماء...

- من زمن طويل ونحن نتبادل ذكرياتنا. فليطِل الله بعمرنا قبل استنفادها. أتعرف، يوم لا تبقى لنا ذكريات نتبادلها، أنا متأكد من أن الملاك جبرائيل سيحلّ علينا ويأخذنا معه.

- إلّا إذا اختلقناها...

- لكن هذا ما نفعله منذ زمن طويل. أتظنّ أن حياتنا كانت بهذا الامتلاء؟

- الأفضل أن نروي القصص بدلاً من أن نستسلم.

- حتى وإن استسلمنا، فمن سيلاحظ ذلك؟ من يهتمّ بمصيرنا؟ نحن لا نصبو إلى تحقيق ما هو خارج عن المألوف. لقد عشنا ببساطة، أعني في الفقر، وكل شيء يؤكّد أننا سنرحل عن هذا العالم في حالتنا المتواضعة نفسها.

- هذه الليلة ليلتنا!

- إن شاء الله!

- نعم، طبعاً. نحن أيضاً سنحفر. ومن المحتمل جداً أن جسدنا سيسقط قبل أن تنبجس المياه.

- سيكون موتاً جميلاً.

وصل الباص في حالة يرثى لها متأخّراً ساعة عن موعده. عندما توقّف، رمى مشخّمه من الباب عدّة دجاجات وديوك نافقة بسبب الحرّ. رأينا أيضاً امرأة شابة تركض حاملة طفلاً جفّ الماء في جسمه. إنه ذلك القيظ الممتزج بالغبار والضجيج والهواء الجاف. كأنّ كلّ شيء يدفعني إلى مغادرة هذا البلد. أحسست أني غريبة. ألقيت نظرة أخيرة على العجوزين وهما يحمّلان حمارهما استعداداً للذهاب والمشاركة في الحفر حيث دُفن الكنز. حسدتهما نوعاً ما لأنهما عاشا حياتهما وعلى استعدادهما للموت بهدوء أثناء قيامهما بعمل نافع. ساورتني فكرة الاقتراب منهما وتقبيل يديهما كما كنت أفعل مع جدّ والدي عندما كنت صغيرة.

ركبت الباص وأغمضت عينيّ كي لا أرى بعد الآن هذا البلد الذي لم يعد بلدي. منذ هذا الصباح لمست شيئاً فشيئاً أنّ أيّ بلد لم يعد مجرّد أرض ومنازل، بل هو وجوه وأقدام متجذّرة في الأرض وذكريات وروائح الطفولة وحقل من الأحلام ومصير آخره مقترن بكنز مدفون في سفح الجبل.

أين سأجد هذا البلد؟ أودّ كثيراً القول والإيمان بأنّ:

بلدي وجه
ضوء حيّ
نبع مياه جارية
هو يد نابضة
تنتظر الغسق
لتحطّ على كتفي...

لكنني استشعرت أوان الريبة والتأرّق. لم يهبّ هواء كي يجعل من هذا المساء كوخاً متروكاً على ضفة شاطئ أو بحيرة مع باب مفتوح لاستقبال نفس متعبة. لم يلُح ضوء ليهدّئ الضمير المعذّب. لم تُلقَ أيّ يد لتستند إلى كتفي. عندما عدت كنت كسائحة لامبالية. وها أنا أعود متغيّرة. إنّ اكتشاف الجذور اختبار صعب. وهل كان لي أن أتكهّن بفداحته؟ لقد كبرت. لم أعد طفلة مبهورة بالحياة. أنا متأكدة من أن رجُلي قد رحل. سبق أن حذّرني ولم أصدّقه. لقد شجّعني على زيارة الحجّ هذه. لعلّه كان يعرف أن هذه الصدمة ستساعدني أكثر من كلّ الأحاديث التي كان يتلوها عليّ على التفكير بشكل أفضل. اكتشفت فشلي ولم يعد البكاء يجدي نفعاً.

خاتمة

كانت هذه قصّة الكنز المدفون عند سفح الجبل الذي حملت سرّه في أعماقها فتاة كبرت قافزة فوق الزمن ومصمّمة على النضال والانتصار لأنها لم تتعلّم سوى ذلك.

عندما عادت إلى باريس، وجدت المنزل كما تركته. لم يتحرّك شيء من مكانه. حمل رجلها حقيبة وحسب ورحل، تاركاً رسالة بجانب الهاتف.

حبيبتي (كان دائماً يتوجّه إليها بهذه النداء حتى في أسوأ اللحظات)،
يقول الفيلسوف إنّ على القلب إما أن ينكسر وإما أن يتصلّب كالبرونز. أمّا قلبي فليس منكسراً كليّاً ولن يتمكن أبداً من بلوغ قساوة البرونز. قلبي تعب، ولذلك أرحل. أتركك أخيراً مع نفسك. تعلّمي الحشمة والتواضع. أعرف أن قصّة العينين المنخفضتين هذه تضحكك. لقد تأثرت بقصّة حياتك كما رويتها لي، وأُعجبت بنضالاتك كابنة مهاجرين.

ظننت أنك تعيشين بين حضارتين، بين عالمين. أنت حقيقة في موقع ثالث، لا هو أرضك الأم ولا البلد الذي استضافك. ربّما تجرّأت على الاعتقاد بأنني سأكون لك بمثابة وطن. كنت على خطأ. لا تعرفين كيف توفّرين العار على الآخرين. زينة انتحرت لأنها خجلت من نفسها، لأنها لوّثت نفسها مع إنسان قذر. أعطيتك تلك المذكرات كي تقرئيها من دون أيّ نيّة محدّدة. ربما تعلمت منها أنه في نظر البعض هناك فضائل من دونها لا يكون للحياة معنى ولا كرامة. في خضمّ شجاراتنا وتناحراتنا كنت ستفوزين وتنتصرين كالحيوان. ستمنّين بانتصار حزين وللمرة الأولى ستذرفين دموعاً صادقة ومرّة. عندك الآن متّسع من الوقت لتبكي، وربما تعلّمتِ كيف تعيشين. وداعاً يا حبيبتي. بذلت كلّ ما في وسعي، وأخفقت.

بعد بضعة أيّام تسلّمت رسالة من المغرب:

حبيبتي،

أكتب إليك من تحت شجرة قبالة البئر التي أنهوا للتوّ بناءها. المياه فيه عميقة، والقرية تحتفل. النساء يعملن أكثر من الرجال. إنهنّ جميلات وجديرات بالاحترام. تهيّأ لي أنّي لمحتك هذا الصباح تحملين دلوَي ماء. كان بإمكانك أن تكوني تلك المرأة البسيطة والسعيدة

التي عندما رأتني خفضت عينيها. الحياة تتغيّر في كلّ القرية. حضرت السلطات لتهنئة الذين حفروا ووعدت بمدّ شبكة الكهرباء لهم. أُنقذت القرية. لقد حصلت الأعجوبة. الكنز الذي عُثر عليه سيحسّن وضع الأرض التي ستُقلع منها الحجارة. لقد اغتسلت هذا الصباح بهذه المياه الباردة جداً والصافية. توضأ الرجال بمياه البئر وصلّوا في صمت. كان مشهداً جميلاً ومؤثراً. صارت الزيارات حول البئر أكثر منها حول المزار. من المفترض أن يسعد الوليّ بذلك. سأبقى هنا بضعة أيام لأرتاح وربما أكتب قليلاً. لم يفهم أهل قبيلتك لماذا رحلتِ. يظنّون أنك لم تتحمّلي الحرّ. أخبروني أنهم فخورون بك، حتى وإن تغيّرتِ كثيراً بالنسبة إليهم. في الأيام الأخيرة لاحظوا أنك كنت تبكين طول الوقت ولم يعرفوا السبب. بعد الاحتفال سيبدأ العمل الجدّي. إنهم أشخاص إنسانيون للغاية. ما الذي فعلته بتلك الفضائل الجميلة والنبيلة؟ أردت، على حدّ قولك، فرض نفسك كما لو كنت تعيشين مع رجل سجنك في قفص. الآن بدأ الزمن يمرّ بهدوء بيني وبينك. أنا هنا كي أشفى وأعيش، معك أو بدونك.

تختم هذه القصة بداية قصة أخرى. عندما تشرق الشمس لم تعد كالسابق تقع على الصخور البيض وأجسام العلّيق الرمادية. فالأرض نقبتها أيادٍ سعيدة، انتصرت على الأساطير. إن توزيع المياه هو مستقبل

هذا المصير المعقود بالأقدام الحافية، أقدام أولئك الذين أصبحوا في النهاية شغّيلة الأرض. ويستمرّ العجزة في تبادل الذكريات واكتشاف حمرة السماء في عيون الصبايا المُترنّمات.

طنجة وأماكن أخرى

آب ١٩٨٧ - تشرين الأول ١٩٩٠

في سفح الجبل كنز مخبوء، وحدها تملك سرّ مفتاحه، وإن كانت لا تعرف كُنهه.

هي تعرف من قتل أخاها الصغير، لكنّها لم تعد تريد الانتقام، فأرض قريتها لا تنبت غير القحط والموت.

تحلم بفارس يخطفها ويطير بها إلى باريس. يصبح الحلم حقيقةً حين يأتي الوالد المفجوع ويقرّر السفر بهم إلى أرض الأحلام تلك، وهناك يبدأ صراعها: مع ذاكرتها وأسرتها وهويّتها، والعالم الجديد الذي تظنّ أنه أصبح وطنها. لكنّ ثمة ما يشدّها إلى تلك القرية القاحلة في الريف المغربي، وثمّة قبيلة من البربر تنتظرها لعلّها تعثر على كنزها القديم.

الطاهر بن جلون كاتب وروائي مغربي حائز جائزة دبلن للآداب عام 2004 وجائزة 'إمباك الأدبية' عام 2000. ترجمت رواياته إلى العديد من اللغات. صدر له عن دار الساقي 'عشرُ ليالٍ وراوٍ'.

ISBN 978-6-14425-934-4





www.daralsaqi.com

